د. خالد محمد غازي

مي زيادة

سيرة حياتها وأدبها
وأوراق لم تنشر

مي زيادة

سيرتها وأدبها وأوراق لم تنشر

د. خالد محمد غازي

الكتاب : مي زيادة. سيرتها وأدبها وأوراق لم تنشر
الكاتب: د. خالد محمد غازى
الطبعة : 2010

الناشر: وكالة الصحافة العربية
5 ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مدكور - الهرم - الجيزة
جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 - 35867576 - 35867575 فاكس:35878373

http://www.apatop.com E-mail:news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher .

جميع الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أىّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأىّ شكل من الأشكال ، دون إذن خطىّ مسبق من الناشر .

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

غازي ، خالد محمد .
مى زيادة : سيرة حياتها وآدابها وأوراق لم تنشر/ خالد محمد غازى ـ جيزة : وكالة الصحافة العربية ، ٢٠١٠ .
٠٠ ص، ٠٠ سم .
تدمك ٨ ١٥٨ ٤٤٦ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ مى مارى بنت الياس زيادة ، ١٨٨٦ـ ١٩٤١
٢ ـ الأدباء العرب
أ . العنوان ١ ,٩٢٨ رقم الإيداع / ٥٢٠٨/ ٢٠١٠

مى زيادة

سيرتها وأدبها وأوراق لم تنشر

« أتمنى أن يأتي بعد موتي من ينصفني
ويستخرج من كتاباتي الصغيرة المتواضعة ما
فيها من روح الإخلاص والصدق والحمية
والتحمس لكل شيء حسن وصالح وجميل ،
لأنه كذلك لا عن رغبة في الانتفاع به ..»

من رسالة لميّ زيادة إلى د. يعقوب صرّوف،
فبراير ١٩١٩

الإهداء

إليها ..

وقد أعطت ما أعطت وأخذت ما أخذت !!

إلى الساعات الحلوة والأيام العصيبة .

حضور يتجدد رغم الغياب

هذا كتاب قراؤه كثيرون ..

بيد أن القليلين هم أولئك الذين ينزفون من مخيلتهم وزمنهم ، لينبشوا في صفحات الأمس وذاكرته ، ليعيدوا تشييد الماضي وإحياءه من جديد ..

ومىّ زيادة ، شخصية استثنائية ، بكل ما تحويه الكلمة من معنى ، امرأة عاشت بطقوس المستقبل وقوانيه في ماضٍ محفوف بالتأويلات وقصور الرؤيا .. ولذلك فإن هذه الأديبة التى « خرجت عن النص » فى وقت مبكر، ما تزال تستهوى بحياتها وأفكارها أجيالاً جديدة.. ورغم ظهور أديبات بعدها، فإن الأضواء التي تسلطت عليها لم تتوجه إليهن ، وبذلك بقيت هذه الإنسانة حاضرة في أذهان القراء ، ولم تتوارَ صورتها أو تتلاشَ، كما حدث مع الكثيرات ..

هذا الحضور لتلك الغائبة يتأكد يوماً بعد آخر ، ونحن نشهد المزيد مما يكتب عنها في الصحافة الثقافية، وما يصدر من كتب حولها وعن أدبها .. ولا بد من القول إن تلك الكتابات – رغم من الكثرة الكاثرة التي دونت عنها – لم تشف غليل القارئ، ولم تكشف عن جوانب، وأغوار بعيدة في شخصية مي زيادة ، التي أثارت جدلاً واسعاً في حياتها وبعد رحيلها .. اللهم إلا مؤلفات قليلة حاولت أن تتحرى الدقة والصدق.

ليس بودى أن أتحدث هنا كثيرا عن مى .. فسوف أترك لها أن تتحدث عن نفسها، من خلال هذا الكتاب، لقد عشت مع ميّ في مؤلفاتها، التي جعلتني أتمثلها نصب عيني، واعتمدت على مؤلفاتها كركيزة أساسية لكتابي، فكثرت في صفحاته الاقتباسات والإشارات لمؤلفاتها .. ولمَ لا ومؤلفات الكاتب مرآة لذاته وحياته؟!

هذا الكتاب ، يلقي السمع، ويرسل البصر ، لا أكثر، وراء مبدعة ، أردتُ أن أنفض بعضاً من التراب عنها كإنسانة ومبدعة، فحياة "إيزيس كوبيا" الحافلة والمثيرة لا يمكن لأى سطور اختزالها .. والأزمنة والأمكنة التي احتضنت تلك الحياة ما تزال حاضرة وقريبة بنكهتها وأصالتها وعناوينها ، وأي بهرجة قول مهما فتنّا بها لا يمكن أن تكون بديلة، لبهرجة تلك الحياة الدافقة التي عاشتها ميّ.. حتى اتهموها بالجنون!! فيا مي زيادة.. طوبى لك بجنونك.

الفصل الأول

روافد التكوين الأولى.. نفسية الأنثى وعقلية الأديبة

- الطفولة والصبا
- بين العلم والأنوثة
- الدراسة والصحافة
- اللغة العربية والأديان

الطفولة والصبا

في بلدة " الناصـرة " بفلسطين – مـوطن السـيـد المسـيح – ولدت مـاري زيادة في الحـادي عـشـر من شـهـر شـبـاط عـام ١٨٨٦، من أب لبنانـي هو "إليـــاس زخـــور زيادة " الذي كـــان لبنانيا – مـاروني المذهب ، وقد هاجر من قرية " شحتول " في جبل كسروان بلبنان – وهى موطنه – إلى فلسطين في النصف الثانـي من القـرن الماضي إلـى " الناصرة " واشـتـغل معلمـا في مـدرسـة "الأرض المقـدسـة " وقـد كـانت " الناصـرة " في ذلك الوقت تقع ضـمن نطاق الحكم العـثـمـانـي المسـيطر على بلاد الشام .

وفي قـرية " الناصـرة " تعرف " إليـاس " على " نزهة خليل معـمـر "وهى فلسطينيـة المولد والموطن – سـورية الأصل – أرثوذكسية المذهب ، تنحدر أسـرة أبيهـا من بلدة " أهدان " في شمـال لبنان ، حيث عـرفت فيهـا منذ القرن السـابع عشـر ، وتنحـدر أسـرة أم " نزهة معـمـر " من قـرية " الحصـن " الواقعـة على هـضبـة في شـرق الأردن اليـوم ، التي هى امـتـداد لجبل حوران ، غـير أن أجداد " نزهـة معـمـر " نزحـوا عن سـورية إلى فلسطين في مستهل القرن التاسع عشر . .ولفتت " نزهـة معمر " نظر " إلياس زيادة " بوعـيـهـا الـثـقـافـي ومطالعـاتهـا الكثـيـرة ، وحـفظهـا مـئـات الأبيـات الشعـرية لشـعـراء مرموقين ، بالإضافة إلى شعورها الديني العميّق ونزعتها الصوفية ، التي تتضح جلية

في حفظها الكثير من شعر ابن الفارض وغيره من شعراء التصوف الإسلامي .. تم زواج " نزهة " من " إلياس " ورزقا بطفل وطفلة ، غير أن الطفل اختطفه الموت فتوفى صغيرا (❖) ، فأسبغ الوالدان الحنان على طفلتهما الوحيدة "ماري " فلقيت الرعاية منذ طفولتها المبكرة .

" أليس الاسم هو أول علامات الفرد في جماعته" ؟

على أى شىء يحتوي الاسم ؟

يسأل شكسبير بلسان جولييت ومن منا لم يتساءل عن اهتداء البشر إلى التسميّة وعن رائدهم في ذلك ؟

ألا تصغى إلى همس خفي وراء الاسم والكنية عند سماعها للمرة الأولى ، كأن لها ذاتا خفية وراء المعنى الظاهر ؟

إلا أن الشاعر القائل " الأذن تعشق قبل العين أحيانا " عبر عن جانب من حقيقة روحانية عميقة ومضت له في لحظة إلهام وإشراق .. راجع ما شئت من الأسماء التي تعرف أصحابها معرفة شخصية أو معنوية ، ترى

استحالة تبديل اسم بسواه ،كأنما تلك اللفظة التي يعرف بها المرء عن طريق الانتحال أو بالمناداة منذ الولادة ، أصبحت جزءا أساسيا من ذاتيته ، أو صارت على الأقل من أدل الدلائل عليها ، وفوق ذلك فإن معنى الاسم الواحد يتغير بإطلاقه على أشخاص مختلفين ، هذا شىء يعجز الوصف إلا أننا نشعر به بجلاء.. ترى الآن شخصية الفرد تتفاعل وشخصية الاسم بامتزاجها بها (❖❖) ؟!

(❖) رثته ميّ في إهدائها إليه كتابها " ابتسامات ودموع" فقالت في إهدائها " .. إلى الطفل الذي رحل إلى خالقه ويتّم فيّ عاطفة الحب الأخوي فحرمني من حنو الأخ وقبلته وابتسامته ودمعته : إلى أخي الوحيد الذي تقاسمه الأثير والثرى .. ".

(❖❖) ميّ زيادة : المؤلفات الكاملة ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، ١٩٨٢، جـ١ ، ص ٣١٨ .

لقد آثرت "ماري زيادة" اسم "ميّ "من دون الأسماء الأخرى وشغفت به.. ولم يكن أحد يعلم أن " ماري " ستغير اسمها إلى اسم آخر يشترك معه في أول حروفه – وهو حرف الميم – ويفترق عنه في نواحٍ شتى ، فـ " ماري " اسم أفرنجي النغمة لم تألفه الأذن العربية ، على حين أن اسم " ميّ " اسم عربي (❖) خفيف .. رشيق في نطقه ومن المعروف أن الأسماء الثلاثية في اللغة العربية تتميّز بخفة الوقع على الأذن وخفة النطق والوزن ، وقد أطلق العرب اسم " ميّ " على بناتهن تحببا ومصغرا عن أميّة . وقد تسمتْ " ميّ زيادة " بعدة أسماء أخرى غير ماري وميّ منها إيزيس كوبيا ، عائدة ، كنار ، شجية ، السندبادة البحرية الأولى ، مداموزيل صهباء ، خالد ، رأفت .. ووقعت بهذه الأسماء بعض مقالاتها وقصصها ورحلاتها .. عجبا .، كل هذه الأسماء لفتاة واحدة .. قلقة .. حائرة ، لم يسلم من حيرتها حتى اسمها فتغير معها بتغير الظروف والأحوال .. وفي أول رسالة كتبتها ميّ إلى جبران خليل جبران في ٢٩ مارس ١٩١٢ كتبت تقول : " أمضي ميّ بالعربية ، وهو اختصار اسميّ ، ويتكون من الحرفين الأول والأخير من اسميّ الحقيقي الذي هو ماري ، وأمضي إيزيس كوبيا بالفرنجية ، غير أن لا هذا اسمي ولا ذاك ، إني وحيدة والدي ، وإن تعددت ألقابي".

(❖) ورد اسم " ميّ " في كتب الأدب القديم . وتردد في قصائد الشعراء ، فأبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني ذكره في الجزء السابع من كتابه الذي تحدث فيه عن السيد الحميّري وشرح معنى " ميّ يختج " بالخمور والنبيذ الناضج والشاعر الأموي ذو الرمة يقول أبياتا في محبوبته ميّ الأموية ، منها قوله :

خليلي عدا حاجتي من هواكما ... ومن ذا يواسى النفس إلا خليلها
ألما بميّ قبل أن تطرح النوى ... بنا مطرحا أو قبل بين يزيلها

ونعرف تفاصيل أكثر من معنى اسم ميّ من حديث لها إلى مجلة "المكشوف" نشر في عدد ١٦ آيار ١٩٣٨: " وهو - أي اسمها - قليل التداول في تسمية الفتيات .. ومن أسماء عرائس الشعر واتفق كذلك أنه مكون من أول حرف وآخر حرف من اسم ماري ، كما أن ميّ MAY باللغات الأوربية تصغير ماري للتحبب ، وأخيرا لأنه الاسم الذي أحبته والدتي وسميّت به يوما من الأيام .. ووالدتي هى التي اختارت لي اسم ميّ ، فقد تذكرت أنها عندما كانت في المدرسة عهد إليها مرة بتمثيل دور " ميّ " في رواية لكورتاري" (❖) وكان مترجم الرواية قد عرب الاسم CAMILLE إلى ميّ فكانت حلاوة هذه الاسم لا تزال على شفتيها بالرغم من مرور السنين .. "(❖❖).

تلقت " ميّ " مبادئ القراءة والكتابة في قرية الناصرة ، وعلى وجه التحديد في دير المدينة الذي ذكرته في كتاباتها ، وقد انتقل والد ميّ "إلياس" هو وأسرته الصغيرة إلى لبنان وعمل بالتدريس في قرية "عينطورة " وهكذا فارقت " ميّ " بلدة الناصرة مرتع طفولتها وصباها ، ولكن ظلت صورة الناصرة في مخيلتها تقول عنها: " .. إيه ي اناصرة .. لن أنساك مادمت حية ، سأعيش دوما تلك الهنيهات العذبة التي قضيتها في كنف منازلك الصامتة : سأحفظ في نفسي الفتية ذكرى هتافات قلبي وخلجات أعماقي .. لقد كنت لي مدينة الأزاهر العذبة ، ومجال التنعم بأطايب الأوقات في وجودي غير أني ويالأسف سأبتعد عنك ، سأبتعد عن أكوام

(❖) المقصودة هنا مسرحية هوراس . HORACE

(❖❖) فاروق سعد: باقات من حدائق ميّ ، مؤسسة نوفل ، بيروت، ط ٣ ، ١٩٨٣ م ، ص ١٦ .

غيومك ، وعن كواكب ليلك ، لن أرى بعد المنازل الدافئة التي احتفظت ببسمات صباي وأماني وأحلامي ، غير أني سأحمل ذكرى كل هذه الأشياء تافهة كانت أم عظيمة كأعز ما لدى في الوجود .. " (*) .

وقد شاءت الأقدار ألا ترجع إلى الناصرة مرة أخرى ،ولكن ظل لسانها يلهج بذكر أهلها ، وانطبعت ذكرياتها عن الناصرة في مخيلتها حتي بعد سنين وهى في القاهرة ، وقد استعادت تلك الذكريات وهى تكتب عن شاعرة الطليعة، عائشة التيمورية ، تقول ميّ : " كان ذلك في تلك البلدة بفلسطين وقد بدا الحي متجليا ببهجة الأعراس وبهائها لزواج ذلك الوجيه الثري ، ونصب صوان عظيم على سطح الدار الواسعة ليقام فيه مهرجان الفرح كل ليلة ، فما يخيم الظلام إلا وتعزف الآلات الشرقية تحت الخيمة الوضاءة بتألق الأنوار ومعالم الزينات ، الغاصة بوجوه القوم وأعيانهم من تلك البلدة وضواحيها .. إذ ذاك يهرع أهل الحي إلى الشرفات والنوافذ وسطوح المنازل يتسمعون إلى آهات الطرب الشائعة في الفضاء ، حتى لتتهادي أصداؤها نحو ما جاور من جبال الجليل والأطفال مغتبطون بأن يحتضنهم صدر دافىء ويحميهم من أهوال الظلام ، فتتنبه منهم النفوس لتفهم أعجوبة الألحان.

كنت على ذلك في ليلة فإذا بصوت ينشد على نقرة العود :

كحل بعينيك أم صبغ من الرحمن

جفن من السحر أو سحر من الأجفان

خال بخديك أم صنع من الديان

توهت فكر الأنام في الجفن بالحنان

تبارك الله ما أحلاك من إنسان" (**).

(*) المرجع السابق : ص ٥٠ ، ٥١ .

(**) ميّ زيادة : المؤلفات الكاملة – جـ١ ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

وبعد دراسة ميّ بـ " دير المدينة " التحقت " بمدرسة راهبات عينطورة " وهى في الثالثة عشر من عمرها ، حيث أرسلها والدها لتدرس في القسم الداخلي بين عاميّ ١٩٠٠ – ١٩٠٣ م ، لقد نشأت ميّ في ظل تعاليم الدين ، فنشأ في نفسها نور الحياة والإيمان وخشية الله ، وهذا الجو لا يستطيع أن يصوره ويعلم فيض هذا الشعور إلا من عاش فيه ، فيجد نفسه صافية نقية لا تحمل شيئا دنيئا ولا دنسا من الدنيا .

علينا أن نتخيل " ميّ " وهى منسدلة الضفيرتين على كتفيها ، وكان شعرها الأسود يزيد وجهها الملائكي المستدير جمالا وضياء .

لقد نشأت بين أبوين يختلفان في المذهب . فالأب ماروني المذهب والأم أرثوذكسية ، فلم تتحيز إلى أحدهما في مذهبه ، بل التزمت منذ نشأتها خير ما في سجيتها .

وتفتحت مداركها على التوجيه الديني من والديها ومن معلماتها الراهبات المتصوفات للتعبد والتدريس ، فنشأ قلبها الصغير المتفتح يغرد نقيا في ظل سماحة تعاليم الدين ، فازدهرت ملكاتها نابضة بصدق التعبير والتصوير وعذب الكلم وأروعه ، وفي مدرستها أحست أن بوعيها المبكر القدرة على التأمل والتدبر، فعلى حداثة سنها وقتذاك كانت تطيل من حولها، وهى تسمع مثلا معلماتها أو مرشد مدرستها .

كانت ميّ ذات طبيعة غنية خصبة ، تحب الجري واللعب والضحك و أي بنية لا تحب ذلك ؟ وتبتكر في اللهو أساليب طريفة ترفعها في تقدير رفيقاتها .. ولكنها كانت وحيدة الروح ، وكثيرا ما تنزح عن ميدان اللعب إلى الحجر المنفرد في أطراف الساحة ، فتجلس هناك ناظرة إلى البحر البعيد .. كانت تحسن

ركوب الخيل على حداثة سنها ، وقد قطعت على ظهر الجواد سهولا وجبالا نبضت حياة التاريخ تحت الأرض منها ، وبين الأشجار ، وعلى الصخور وحول القمم ، ما شهدت جلال الطبيعة إلا عادت إليها تلك الذكريات مع صدى الأغاني التي ينشدها أهل المضارب في الظلام .

تكونت بينها وبين الراهبات صداقة حارة ، تنشأ أحيانا بين النساء الجامعات بين غزارة العواطف وحدة الذكاء .. لقد كانت في مدرستها – البعيدة عن أهلها – من شدة توقد تفكيرها ، ورهافة شعورها في عزلة صامتة تلقى ستائر سوداء على وجودها في المدرسة، فكانت في وحدتها رغم حداثتها، تنادم في طويل الليالي فكرة الموت ، التي غشيت إحساسها بالزمن ملفة بالوجوم فقالت في إحدي يومياتها : " قد بدأنا شهر مارس ، ما أسرع مرور الزمن ، إذا أنا شعرت بالزمن متعجلا كل هذا التعجل في حداثتي ، فماذا عسى يكون عندما أتقدم أعواما فأخرى ؟ وبعدئذ، بعدئذ عندما أمسي عجوزا ، عجوز أنا أتراني أصل إلى ذلك العمر ؟ ، وكيف يكون المرء عجوزا ؟ ، كيف يشعر عندئذ وكيف يفكر ؟ يخيل إلىّ أني سأرحل قبل ذلك، وأن الموت سيحملني غضة الشباب فيطير بي إلى حيث تسبح الملائكة في هذا الأيام ، ذلك لأني لا أفهم الحياة التي يقول مرشدنا الروحي، إنها مشكلة المشاكل ، ما هذه الحياة التي قال عنها إنها مشكلة المشاكل . وإنها سريعة سرعة السهم المنطلق في الفضاء ؟

ما معنى هذه التقلبات ، وهذه الحاجات ، وهذه الأنظمة المتولدة ، أبدأ هنا وهناك ، ؟ فيَّ ، وفي غيري ونحن نراها شيئا طبيعيا ، وإن آلمتنا وأسخطتنا .. وانتقلت من تأمل إلى تأمل ، حتى انتقلت إلى فكرة الموت.

كم ذا سمعت أن هذه الفكرة كانت تعزية القديسين ورجاء لهم ، فما كنت أحاول أن أفهم ، بل كنت أنصرف عن ذلك بسرعة لأطمئن وأستريح غير أني اليوم انتشرت في نفسي فكرة الموت مع لذة الشعور بها انتشارا لألحان مع الأرغن العازف"(❖) .

إن ما سردته " ميّ زيادة " – في سانحتها السابقة التي اقتبسناها من كتابها " سوانح فتاة " – كان هو ما عانته وعاشته ، وإن تلك الذكريات الصبيانية كان لها أعمق الأثر في تكون شخصيتها الإنسانية والأدبية تقول بعد أربع عشرة سنة من ذكرياتها في المدرسة : " وهل نحن الآن غير أطفال؟ وهل الشباب والكهولة والشيخوخة سوى مظاهر أخرى من الحياة الدائمة الطفولة ؟ ما مر بي يوم إلا زدت اعتقادا أن ما نراه ، ونشعر به ، ونختبره في الحداثة إنما هو ، هو ما نشهده متتابعا من عام إلى عام ، ولكن بصورة أكبر في ميدان العالم الوسيع"(❖❖).

إن شعورها بالكآبة والتشاؤم وهى فتاة دون الخامسة عشر من عمرها ، يرجع إلى شعورها بالوحدة والاغتراب والبعد عن أهلها ، فقد كانت تقضي أيام الآحاد والأعياد في المدرسة ، في حين تنصرف رفيقاتها وزميلاتها إلى بيوتهن دونها ، فوجدت دنياها الأولى في الدير مع الراهبات ، حيث كانت تسرح روحها في ملكوت الألحان السماوية والتأمل الغيبي ، غير أن هذه الوحدة كانت لها عيوب ومميزات ، فمن عيوبها أنها تجعل المرء يشعر بالكآبة وتفيض نفسه باليأس ، كذلك نرى أن الجو الاعتزالي جو رهيب يحتاج إلى صبر وجلد ، فما بالك إذا كان هذا بالنسبة لفتاة صغيرة بعيدة عن أهلها لم

(❖) وداد سكاكيني : ميّ زيادة في حياتها وآثارها ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٩ ، ص ٢٩ ، ٣٠ .
(❖❖) ميّ زيادة : المؤلفات الكاملة ، جـ ٢ ، ص ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٤. ٥٨٥ ، ٥٨٦ .

تتجاوز الخمسة عشر عاما ! غير أن لهذه الوحدة مميزات، فهى فرصة عظيمة وطيبة ، لأن يخلو المرء بنفسه فيتفكر ويتدبر ، وإذا نظرنا إلى تاريخ أعظم الأدباء والفلاسفة وجدنا أنه لا تخلو مرحلة من مراحل حياتهم من العزلة والوحدة والبعد عن الناس ، ففي الوحدة يرى المرء الدنيا بمنظور آخر .. منظور التعقل والتدبر ، غير أنها أيضا توسع مدارك الإنسان وتسمو بغرائزه وسلوكه وإنسانيته .. ولم يكن لحياة ميّ في المدرسة سلوى سوى معانقة روحها للطبيعة، فقد كانت عاشقة لها ، متذوقة لجمالها ، حيث كانت ترنو إلى القمم ، وتتأمل السفوح ويسرح طرفها ، فيعكس ذلك شفافية نفسها ونقاء سريرتها وقربها إلى الله .

وكانت في مرحلة نشأتها المبكرة ذواقة للفن بصفة عامة ، فأجادت العزف على البيانو ، وقرأت أشعار الصوفيين العرب ، وأعجبت إعجابا كبيرا بابن الفارض ، وعلى أيدي الراهبات أجادت اللغة الفرنسية، وحفظت الكثير من أشعار الفرنسيين أمثال دي موسيه، ولامرتين، وحاولت قرض الشعر بالفرنسية ، نشرت ما كتبته في هذه المرحلة في كتاب لها صدر عام ١٩١١ بعنوان " أزاهير حلم " وكان أول كتاب صدر لها في عالم التأليف .

وفي سنة ١٩٠٤ انتقلت من مدرسة عينطورة إلى " مدرسة الراهبات اللعازريات " في بيروت (التي كانت قائمة في آخر محلة الخندق العميق عند الشارع المعروف اليوم باسم شارع الأمير بشير).

تسلطت روح الاستبداد والقهر والاضطهاد في لبنان في حين أن الحريات كانت سائدة في مصر وقتذاك ،. فكانت ملاذا لأحرار العرب ، وملجأ لرجال الفكر والرأي والأدب والتجديد ، إذ كان يلجأ إلى حماها كل من ضاق بالحكم العثماني ، الجائر ، أو ضاق طموحه في أرضه ووطنه ، فيحمل آماله وطموحه ، ويرحل إلى مصر ، ليتصل بأسباب النهضة العربية المعاصرة ففي عام ١٩٠٨م ، ضاقت " الناصرة " بالأسرةالصغيرة ، " فإلياس " – والد ميّ – كان يمارس التدريس بأجر زهيد لا يكفيه ولا يرضيه ، وزوجته قد حاورته وألحت عليه كثيرا في أمر الهجرة إلى مصر، فقد كانت الزوجة تتطلع إلى حياة أفضل في مصر ومستقبل مرموق " لميّ " فيها .. وميّ نفسها كانت مشوقة إلى الانطلاق حيث تتفتح مواهبها ، وكان إلياس يعلم أخبار الأدباء والمفكرين اللبنانيين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وإلى مصر حاضرة العالم العربي، التي اجتذبت الكثير من المفكرين والأدباء اللبنانيين وغيرهم ، وكان لهؤلاء المفكرين تأثيرهم الذي لا يجحد على الحركة الأدبية في مصر وفي العالم العربي ، فقد سيطرت على الحركة الثقافية ثلاث دور لبنانية هى: الأهرام، الهلال والمقطم.

وهاجرت أسرة ميّ الصغيرة إلى مصر .

وفي المدينة الكبرى (القاهرة) لم يكن أمام والد ميّ إلا أحد أمرين: إما أن يحترف الصحافة، أو يعمل بالتدريس ، وفي بادئ الأمر مارسهما معا ، ثم انصرف إلى الصحافة .

وقد توافقت هجرة " ميّ" إلى القاهرة مع اكتمال أنوثتها ، فأصبحت امرأة ناضجة آسرة الجمال ، وقد راقت الحياة الجديدة لها ، رغم المصاعب التي واجهت الأسرة الصغيرة في بداية حياتها في القاهرة ، تلك المدينة الضخمة،

النابضة بالحركة فأين هى ميّ " الناصرة " تلك البلدة الهادئة الحالمة!

وجاهدت مع أبيها في مدينة القاهرة ، فدرّست اللغة الفرنسية لبنات بعض العائلات الكبيرة من ذوي النفوذ والثراء ، وتفتحت زهور الأمل في نفسها ، واستبشرت خيرا بالحياة الجديدة ، فبعد عامين من نزوحها للقاهرة أضحى والدها صاحب ورئيس تحرير صحيفة "المحروسة" التي كان يعمل محررا بها ، حينئذ بدأت موارد الأسرة تتحسن ، كما أن منصب والدها ، جعلها تتعرف على طبقة من الكتاب والصحفيين المرموقين وذوي النفوذ ، وخالطتهم بحكم عمل الأب وساعد ذلك على تبلور موهبتها كأديبة ، وازدياد شغفها بالاطلاع ، فدرست – آنذاك – اللغتين الإنجليزية والألمانية ثم عكفت على التمكن من اللغة العربية بعد نشر ديوانها " أزاهير حلم ".

ولم تنس الناصرة ، فهجرتها إلى مصر تركت في نفسها آثارا عميقة ، كتبت فصلا بعنوان " أين وطني؟ " في كتابها " ظلمات وأشعة "تقول: "..عندما ذاعت أسماء الوطنيات، كتبت اسم وطني ووضعت عليه شفتي أقبله، وأحصيت آلامه مفاخرة بأن لي كذوي الأوطان وطنا ، ثم جاء دور الشرح والتفصيل فألممت بالمشاكل التي لا تحل ، وحنيت جبهتي وأنشأت أفكر ، وما لبث أن انقلب التفكير فيَّ شعورا ، فشعرت بانسحاق عميق يذلني ، لأني ، دون سواي تلك التي لا وطن لها"(❖).

" .. ولدت في بلد ، وأبي من بلد ، وسكني في بلد ، وأشباح نفسي تنتقل من بلد إلى بلد ، فلأي هذه البلدان أنتمي ، وعن أي هذه البلدان أدافع"(❖❖).

(❖) المؤلفات الكاملة: جـ٢ ، ص ٣٦٤ .
(❖❖) المرجع السابق: ص ٣٦٥ .

بعبارات سلسلة عبرت " ميّ " بها عن تساؤلات واستفسارات عديدة طرحتها على نفسها ، ولا عجب أن أحداث حياتها تحمل الإجابة على تساؤلاتها .

" ولدت في بلد ".. نعم .. قد ولدت ميّ في بلدة الناصرة بفلسطين.

" وأبي من بلد " .. فوالدها " إلياس زيادة " من " شحتول " إحدى قرى قضاء كسروان في جبل لبنان .

" وأميّ من بلد " أمها " نزهة معمر " فلسطينية الأصل من الجليل .

" وسكني في بلد " .. فقد استقرت أسباب العيش لها ولأسرتها الصغيرة في القاهرة .. ويظل تساؤل ميّ الحزين معلقا دون إجابة: "فلأي هذه البلدان أنتمي؟! ".. "ولأي هذه البلدان أدافع "؟!

ألم تقولي يا ميّ ، إنه ليس للعلم والفلسفة والشعر والفن وطن ، لكن ما بالك تسترسلين في تساؤلك وتضاعفين صعوبته فتقولين : " فصرت أعلم أن للعالم والفيلسوف والشاعر والفنان وطنا ، صرت أعرف ضعف الانسان الذي مال إلى النوم والراحة، طلب مضجعا ناعما لجسمه المضني لا مرجأ واسعا يتناول منه الحر والبرد ، ولا بحراً عرمرما تبتلعه منه اللجج"(❖).

(❖) المرجع السابق: ص ٣٦٨ .

بين العلم والأنوثة

قال الذين عرفوا « ميا » والتقوا بها إنها كانت ربعة القوام ، لم تملأ جسمها ، ولم تكشف عن نحافة .. مستديرة الوجه ، أما لون بشرتها فحنطي مشرق باسم شفاف ، يجلل وجهها شعر أسود فاحم السواد ، تنوس ضفيرته المجدولة أو ضفيرتاه ، على عاتقها بربطة حريرية ، وتلعب على شفتيها ابتسامة الخفر ، فكانت من أبعد النساء عن الاسترجال وأشدهن أنوثة ، فكانت كل حاسة من حواسها وجارحة من جوارحها تنم عن ذكائها ، فعيناها اللامعتان وتعبيرها الحار ، ولطف إشاراتها وحسن حديثها، كل ذلك جعلها تؤثر في مستمعيها بحديثها إلى جانب ما في شخصيتها من اللطف والدعة واللين .

تقول السيدة هدى شعراوي عن خلق ميّ: « .. لقد رأيت فيها إنسانا غير عادي ، لقد حباها الله – وهوواسع الفضل – بعقل كبير ، ولكن قلبها

كان أكبر من عقلها.. فقد كان ذلك القلب يتسع لمعان شتى من الرحمة والعطف والحنان ، وكانت عالية النفس ، فما عرفتها تدنت إلى دنية أو تنزلت إلى أسفل .. وكانت واسعة آفاق التفكير ، فما عرفتها وقفت عند حد محدود، وكانت بعيدة الإدراك فما رأيت منها قصورا فيه.. ومع تلك الصفات المحبوبة، والمزايا الموهوبة كانت بعيدة عن الغرور، منزهة عن الانخداع، فما عرفتها زهيت

زهيت بعلم أو تاهت بذكاء أو أدلت بتفكير.. ولكنها كانت تعرف قدر نفسها في تواضع جميل ، وبساطة محبوبة.. ولم تكن مي على وسانتها ووضاحة وجهها جميلة بالمعنى الصحيح للجمال، ولكن نفسها كانت أجمل من وجهها، وروحها أجمل من صورتها.. فكانت بين الجميلات لا تبدو أقل منهن فتنة ولا أضأل نصيبا من الجاذبية ، لقد كان يجمل ميا بين الجميلات، ويزينها بينهن.. شيء خفي وسر مستبهم لعله هوالذي حير الشاعر فقال:

شيء به فتن الوري غير الذي

يدعى الجمال ولست أدري ما هو

وليس في الأمر عندي سر مستغلق ، ولا خفي مبهم ، فسر جمالها كان في روحها والجمال المعنوي الروحي هو ضرب من الجمال يسمو على كل جمال (❖).

كان بريق الذكاء يتلألأ في عينيها السوداوين اللتين كانتا نبعين للحياة التي لا تفني، تديرهما في الوجوه والوجود فيضا من الحنان والجمال، وتتلقى بهما سر الطبيعة التي أحبتها صغيرة وتجافت عنها كبيرة، ولو شئنا أن نتصور منطقها ومبسمها لوجدنا العينين والشفتين تتكلم معا بنبرة عذبة مذوبة بالسحر الحلال، فما سألت من شهد مجلسها وسمع حديثها في عز شبابها ونضج ثقافتها – وزحمة المتقربين منها إلا غاب عن حضوره لحظات وانطلق وراء الخيال المجنح، وقد ارتسمت على وجهه لمعات صيتها ونمنمة ملامحها وصدى صوتها في تصوير «مي» بريشة وهمية مغموسة بألوان شعوره وتقديره، ويكاد ذلك الفيض الروحي الجمالي من خلقة «مي» وخصالها يعجز آخرين عن تصوير

(❖) محمد عبد الغني حسن : مى أديبة الشرق والعروبة، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٦٨.

هذه الإنسانة الموهوبة فيما كانت عليه لمحاتها ، وصفاتها ممن عاشروها ورافقوا خطاها حى فارقت دنياها ،إذ كانوا يتصورون شكلها وأسلوبها فتونا في فتون دون أن يحددوا مدلولا أو يقيدوا موصوفا لها في هذه المخلوقة الساحرة، وكأنما وصفها ابن الرومي بقوله:

كم غرير بحسنها قال صفها

قلت أمران ، هين وشديد

أهي شيء لا تسأم العين منه

أم لها كل ساعة تحديد

على أن أعجب تمثيل وضعها فيه أديب عرفها فقال : إن ميا في صورتها كانت مثل نغم ميلودي منسجم، كل لحن فيه على حده يجود بصوت ، وفي ائتلافه نغم ملائكي واحد ، كذلك كانت هيئة مي وملامحها ، فعيناها تحيران بما فيهما من شعاع ،وأنفها الأقني الذي يمسك بعصا ناظم الجوقة يؤلف قسمات وجهها الذي يحتل فيه الفم الوردي عطر أنوثتها وبسمة فنها (❖).

ورسمت مي لنفسها صورة بديعة لوصف نفسها في رسالة بعثت بها إلى صديقتها السيدة (جوليا طعمة دمشقية) تقول فيها : « أصحيح أنك لم تهتدي بعد إلى صورتي فهاكها استحضري فتاة سمراءكالبن أو كالتمر الهندي ، كما يقول الشعراء، أو كالسمك كما يقول متيم العامرية ، وضعي عليها طابعا سديميا – فليسمح لي البلاغيون بهذا التعبير المتناقض – من وجد وشوق وذهول وجوع فكري لا يكتفي ، وعطش روحي لا يرتوي .. يرافق أولئك جميعا استعداد كبير للطرب والسرور ، واستعداد أكبر للشجن والألم – وهذا هو الغالب دوما –

(❖) وداد سكاكيني : مرجع سابق ، ص ٢٣، ٢٤ .

وأطلقي على هذا المجموع اسم مي تري من يساجلك الساعة قلمها" (❖)". إن جمال الصورة في « مي» لم يكن في لمحات وجهها وحدها ، ولا في رشاقة جسمها وحركاتها ، وإنما كان نبعه الصافي من أعماقها ومما أوتيت من بصيرة ملهمة وعبقرية فاتنة وأنوثة مهذبة .

كانت صورة وجهها تلوح وتتحرك بسر ترتبط به أغوار نفسها ، وكانت هذه النفس مثل نبع كهربي يعطي النور وجهها الصبوح ، وفي الغواني الحسان وجوه تستهوي الأعين بجلودها وملامحها كما تستهوي الصور المرسومة والتماثيل المنحوتة لفاتنات سابيات لكن الجمال فيها منعزل عن باطنه الحي وسره المفقود .

أما جمالها في صورتها وشخصيتها فكان متمثلا في منطقها وسلوكها، متجسما في ثقافتها وتفكيرها ، فياضا في شعورها وأنوثتها وقد تذوق أفذاذ من الرجال هذا الينبوع من جمال الأنثي في حقيقته وصورته ، وكانت وهي تفيض بهذا الجمال الأسمى على من يلقاها ويعرفها تشعره بعصمة روحية وأدبية تطيف بهما الأبصار في غير رياءأو تمويه ..

.. ولو أدركنا سر هذا الجمال في صورتها وما وراء ملامحها لرددناه إلى ما أوتيت نشأتها الدينية وبيئتها الأولى من إيمان بالله وخشية من عذاب الضمير وطول تفرسها في وجه« البتول» وهى تتأمل في صفاء وجهها ، إلى بصيرتها المتفتحة عن إلهام وإخلاص وكيف تفوتنا القدوة التي طبعتها عليها أم كانت معلمتها الأولى؟

(❖) محمدعبد الغني حسن: مرجع سابق، ص ١١، ١٢ .

أما الأب «إلياس زيادة » فكان يرعاها كالزهرة النضرة في مطلع الربيع ، ولا يصدق أن عينيه تريان إنسانا كان هو سبب وجوده في الدنيا وغير نادم من أجله بل كان يزهو بها ويعتز ويرى في فتاته بشرى نبوغ أصيل (❖).

أما وقد حضرت أمامنا صورة واضحة لمي زيادة فلا بأس أن نرى انطباعات الشعراء حول وصف مي.. يقول إسماعيل صبري مخاطباً مي:

زيني الندي وسيلي في جوانبه

لطفا يعم رعايا اللطف رياه

ريحانة أنت في صحراء مجدبة

من الخمائل حيانا به الله

وقد خص « شبلي الملاط» شاعر الأرز، مي زيادة بقصيدة نظمها عام ١٩٢٢ منها قوله :

كأن الله من سحر ودرٍّ

أتاح لميّ لاحظة وفاها

وشاور أمها لما براها

وشاور يوم كوّنها أباها

فجاءت ميّ معجزة تناهى

من المعني إليها ما تناهى

وإذا كان لكل شيء بداية فحتما ستكون له نهاية .. فكل زهرة مصيرها بعد النضرة والنضج إلى الجفاف والذبول .. هكذا الحال مع مي ، سارت حياتها بخطوات سريعة سريعة إلى الهموم قبل الأوان، فعرفت الشيخوخة والمحن في

(❖) وداد سكاكيني: مرجع سابق ، ص ٢٣، ٢٤

ريعان شبابها ، فألح عليها الحزن والغم فاكتأبت وزهدت في كل شيء حولها ، وتعكرت ملامح وجهها ، وإذاكانت قد غابت صورة مىّ المحسوسة .. فإن صورتها الحقيقية الخالدة ما تزال باقية في مؤلفاتها وآثارها.

يقول الأستاذ العقاد عن شخصيتها : « كانت مثقفة قوية الحجة .. كانت تناقش وتهتم بتحرير المرأة وإعطائها حقوقها السياسية ، كما كان فيها بعض صفات الرجال من حيث إنها جليسة علم وفن وأدب وزميلة في حياة الفكر ، أي أن اهتمامها كان موزعا بين العلم والأنوثة ..» (❖)

وكأنها كانت تقرأ ما تبوح به عيون الأدباء والمفكرين حولها ، فكتبت عن العيون تقول:

جميع العيون وجميع أسرار العيون .

تلك التي يظل فيها الوحي طلعة خبأة .

وتلك التي تكاثفت عليها أغشية الخمول.

وتلك التي يتسع سوادها أمام من تحب ، وينكمش لدى من تكره

وتلك التي لا تفتأ سائلة : من أنت ؟ وكلما أجبتها زادت استفهاما

وتلك التي تقرر بلحظة : أنت عبدي !

وتلك التي تصرخ : بي احتياج إلى الألم ،أليس بين الناس من يتقن تعذيبي؟

وتلك التي تقول : بي حاجة إلى الاستبداد ، فأين ضحيتي ؟

وتلك التي تبتسم وتتوسل .

(❖) فتحي رضوان: مي كاتبة وخطيبة ، مجلة "أدب ونقد"، القاهرة، ع ١١، ١٩٨٥، ص ١١.

وتلك التي يشخص فيها انجذاب الصلاة وانخطاف المصلى .

وتلك التي تظل مستطلعة خفاياك وهى تقول : ألا تعرفني ؟

وتلك التي يتعاقب في مياها كل استخبار ، وكل انجذاب، وكل نفي ، وكل إثبات العيون جميع العيون ! ألا تدهشك العيون ؟!

وأنت ما لون عينيك، وما معناهما ؟ وإلى أي نقطة بين المرئيات أو وراءها ترميان ؟ ثم إلى مرآتك ! وانظر إلى طلسميك السحريين ، هل درستهما قبل اليوم ؟ تفرس في عمق أعماقها تتبين الذات العليمة التي ترصد حركات الأنام ، وتساير دورة الأفلاك والأزمنة .

في أعماق أعماقها ترى كل مشهد ، وكل وجه ، وكل شيء .. واذا شئت أن تعرفني – أنا المجهولة – تفرس في حدقتيك يجدني نظرك في نظرك على رغم منك.."(❖)

كانت ميّ شخصية شرقية أصيلة – فرغم اطلاعها على الأفكار الغربية .. المتطرف منها والمعتدل .. ورغم أن مكتبتها كانت لا تخلو من كتاب جديد في مذهب جديد أو رأي مبتكر ، لكنها لم تتأثر بأي رأي هدام أو يخالف شخصيتها الشرقية التي ظلت متمسكة بها ولم تكتفِ بالقراءة كوسيلة من وسائل المعرفة ، بل سافرت إلى أوروبا أكثر من مرة وشاهدت عواصمها ، ورأت بعينيها أحوالها ومشاهدها ، فلم تأخذ عادة سيئة من الغرب ، بل استعملت بصرها كما استعملت بصيرتها في الكتب وما تحمله بين ضفافها ، فحافظت على عادات الشرق الموروثة ودافعت عن الشخصية الشرقية فما عرف عنها – إطلاقا– أنها احتقرت عادة أو تقليدا شرقيا حسنا .. ومن مظاهر تمسكها بشرقيتها ، أنها أتقنت أكثر من لغة أوروبية كتابة وقراءة ، ورغم ذلك لم تتكلم غير العربية.

(❖) المؤلفات الكاملة : جـ ٢ ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

«ولقد ذكرالأستاذ العقاد أن الأدباء تذاكروا يوما في مجلسها مناقب رجل من أعظم الرجالات في مصر ، فشاركتهم إعجابهم به وثناءهم عليه ، ولكنها استأذنت بعد ذلك أن تؤاخذه أمامهم على أمرصغير.. ولم تكن مؤاخذة (مي) هذا الزعيم ، إلا أنه بدأ يحادثها باللغة الفرنسية بعد أن قدمها إليه الأستاذ أحمد لطفي السيد ، وأصر هذا العظيم على محادثتها بالفرنسية وأصرت هي على الرد بالعربية» (❖).

لقد غضبت مي من ذلك « الزعيم الأعظم » لأنه لم يخاطبها بلغته ولغتها والحقيقة أن ميا كتبت ببعض اللغات الأجنبية في صحف ومجلات أجنبية ولكن هذا لم يكن من قبيل ادعاء العلم ، لأنها كتبت لمن لا يعرفون العربية بلغاتهم التي يحسنونها أو يعرفونها فلم تهجر مي اللغات الأجنبية في سبيل محافظتها على شرقيتها وعروبتها ، بل استعملت هذه اللغات لتدافع عن الشرق والعروبة .. تقول عن الشرق « .. لقد أعطي الشرق الغرب أديانا وأخلاقا وفلسفة إلهية وأنبياء وإلها، فتلقاها الغرب شاكرا وارتقي بها .. أفيخجلنا أن ننتفع باختباراته الدنيوية وعلمه والدنيا دنيا الجميع كما أن الخالق إله الجميع ..؟ » (❖❖).

وتحث الإنسان العربي على دراسة الآداب الغربية ، بحيث يظل ما يبدعه عربيا ألم يأخذ دانتي فكرة مسرحيته من مصادر عربية ، ومع ذلك فقد ظل أدبه إيطاليا ؟ ثم ألم يأخذ شعراء فرنسا في القرن السابع عشر من الآداب الإسبانية والعربية والإنجليزية واليونانية واللاتينية وظل أدبهم فرنسيا.

(❖) مجلة الرسالة : القاهرة ، ع ٤٣٥ .

(❖❖) المؤلفات الكاملة : جـ ٢ ، ص ٥٣١ .

ما يلفت نظر دارس شخصيتها أن بسمتها الأولى في الحياة كانت مغلفة بغشاء من الدموع والحزن ، حتى أن أول كتاب ترجمته مي ، كان عنوانه الأصلي «الحب الألماني» لكن العنوان لم يرق لها فبدلته إلى «ابتسامات ودموع»، وهذا العنوان يحمل – بلا شك – دلائل قاطعة على ما في شخصيتها، تقول في مقدمة ترجمتها للكتاب « الحب الألماني .. كلا ، ليس هذا حبا ألمانيا فقط، بل هو خلاصة بسمات الإنسان وعبراته ، فنسميه « ابتسامات ودموع»، فإن كان ذلك تزييفا لفكرة المؤلف الواجب احترامها على كل مترجم ، فهو صادق من حيث اقتناعي الخاص ، أمين للصورة التي ارتسمت منه في نفسي ..» (❖)

استمع معي إلى مي وهي تتحدث عن نفسها:

« كان ذلك في صيف ١٩١١ وبي تيقظ الفتاة الأول ، واستفسارها الصامت إزاء المسائل الكونية والعمرانية والروحية، وإعجابها المتحفز للاهتمام والتحمس.. وبي كذلك خجلها وحيرتها وترددها.

وكنت كئيبة .. كنت أكتئب لغير سبب ، وأكتئب للعوامل الدافعة بالاجتماع ، الشاغلة أفراده ليلا ونهارا .. حتي إذا احتميت بحمى الطبيعة وألقيت عليها اتكال روحي رافقت الكآبة حبي واتكالي ، الكآبة خاتمة شعور الإنسان إزاء الجمال ، والقباحة ، والخير والشر، والعدل والظلم ، والكره والحب ، والفوز والخذلان ، إليها تنتهي حركات التأثرفي جميع حظائر النفس كأن لا شيء وراءها سوى المبهم والمجهول والظلام الدامس .. أهي ناتجة عن شعور المرء

(❖) المؤلفات الكاملة : جـ٢ ، ص ٦٢١ .

بضعفه حيال قوة العالم ،وبعجزه عن تحويل الأشياء من مجراها ؟ قد يكون.. ولكن الواقع أن التنهد والامتثال نهاية كل عاطفة وكل فكر ، كما أن كل عمر بشري يختم بإرسال الزفرة وإسبال الجفون .كنت قبلئذ أسير لا ألوي على شيء، إن وقعت عيني على شخص ، أو طرق سمعي موضوع نظرت في هذا وذاك نظرة استخبار سطحي ، أما هناك فطفقت ألقي على نفسي أسئلة منطلقة من جهلى المتعطش إلى الارتواء .. من أنا ؟ ما هو موقفي في الدنيا؟ لماذا تزعجني بعض الأحاديث وتسخطني بعض الوجوه في حين ارتاح لأحاديث أخرى وتجذبني وجوه غيرها ؟ لماذا أحب هذه ولا أحب تلك ؟ لماذا ينفث في روعي وجوب احترامه ، فأسعد بتوجيه عاطفه جليلة إلى موضوع يليق بها ، بينما ذاك الآخر لا يلهمني غير الهزء والامتهان ؟ لماذا يفرحني الناس وأفرحهم ؟ لماذا يؤلمني الناس وأؤلمهم؟ ومن أين لي ولهم هذه القدرة العميقة النافذة ؟ أسئلة نقضي العمر ناشدين عنها أجوبة ولا نفوز قبل الموت بالجواب الشافي ، هكذا صار كوخي الأخضر سجنا اختياريا ، وشرفته نافذة مفتوحة على ميدان العجائب والغرائب، وقد تسنى لي أن أستعرضها وأتفحصها بفكري سائلة عن ماهيتها دون أن يكون ثمة سامع أو مجيب.. الفكر ! ما أجذب الفكر إذا هو مزج بطلاوة العاطفة وخيمت عليه أوشحة الخيال ! عشت السنوات الأولى من حياتي دون تفكير ، وها قد غدا الجناح الملون بألوان قوس السحاب يضرب جبهتي ليفسح له فيها وكرا فصار كل موضوع ، وكل شخص ، وكل مشهد طبيعي ينفحني بتأملات زرقاء ، وردية ذهبية ، فضية..» (❖) فكانت تطيل التفكير في غرائب الحياة والتغلغل في أعماق

(❖) السابق ، ص ٦١٨، ٦١٩ .

الأشياء للتطلع إلى المجهول أولتفسير اللا معقول ، كان هذا من أهم أسباب الكآبة والحزن لديها، لدى تلك الإنسانة المرهفة الحس ، التي كانت تتألم لآلام الحياة والأحياء.. وتظل مي تفتش عن السعادة بين ضباب الدموع ، وتسأل الله في إحدى قصائدها الفرنسية قائلة:

« يا أيها الخالق! إن الحياة مراحل آلام ، وسلسلة أوجاع، ولجة دموع ، ومع ذلك فطرت الإنسان على السرور وأعددته للسعادة .

أين السعادة السامية الموعودة ؟ "

أفي العلا ؟ أم في سمائك الزرقاء الجميلة بين الشموس التي لا تحصي والعوالم اللا متناهية؟

ويتجلي تأثر مي بالطقس الداكن ، والجو القاتم فيما كتبته من يوميات على لسان « عائدة » وما عائدة إلا صاحبتنا مي نفسها ! فهي تقول في إحدى هذه اليوميات من صباح يوم الثلاثاء ٧ ماس ١٩١١: « ساعات النهار تسير ببطء، على أن الشمس لم تشرق اليوم إنها تختفي وراء الغيوم، وتتلفع بدثار من الأسرار، الجو رمادي الأديم، والأفق متشابه الألوان في جميع جهاته ، والأرض مغتمة حسري ، والمطر على وشك الانهيار ".

«هذا الطقس يلقي على نفسي غشاء من الاكتئاب والتخدر .. عندما يكون الجو رماديا كذلك يكون وجداني، إني أوثر الشمس بازغة تبهج العالم ، والسماء أوثرها صافية في زرقتها السنية .. والنور أن يغذي النبات ويحيي الأزهار أفضل عندي من أن أرى الرياحين منكسة الورود، والورود ذابلة الكؤوس تحت دفق المطر»..

وقد كانت صلبة العود على الآلام ، كما كانت تعجب من الناس بأصلبهم على الآلام عودا ، وإن ما حملته في حياتها الخاصة من الألم وخاصة بعد موت والديها – وهما عمادها وسندها في الحياة – لما ينوء بإنسان أن يحمله ، وكانت النتيجة في النهاية أنها عجزت عن الاحتمال وأن صبرها نفد من طول ما فعل الزمان بها ، فاستسلمت في آخر الأمر ولكنها كانت ـ كما كانت ـ فذة في عبقريتها وبين بنات جنسها .

وظلت مي – أكثر حياتها – تمجد النفس الكبيرة التي تقوى على الألم ولا تنهزم أمامه إلى أن كان الألم أخيرا أقوى وأكبر من طاقتها ومما تحتمله نفسها فألقت سلاحها ، ولها في تمجيد النفوس الكبيرة الصابرة قصيدة فرنسية تقول فيها :

«ما أشرفك أيتها الأنفس التي تجردت من الثروة ! وأنت أيتها الأنفس المتجبرة التي لا تحطمها أحداث الدهر !

وما أسمي شموخ الأنف الذي لا يذله الفقر !

وما أنبل القلوب الشهمة التي ثقلها الآلام ولا تخنع .

الفرح يهملك بعد ابتسامه الطويل ، والأخطار تحيق بك من كل صوب ،

والشدائد تمزقك ، والدموع السخينة التي تذرفينها في وحدتك تقرح عينيك وتضرم قلبك .. غير أنك ستبقين الكبيرة ، فالشرف مقرون بعذابك النبيل ،والسعادة تفوق الإدراك والوصف "(❖).

يقول الأستاذ طاهر الطناحي :" لقد كانت « مي » ذات عاطفة مرهفة ، وكان الأسى يبدو واضحا في كتاباتها الأدبية ، ولعل ظروف حياتها التي بدأتها وحيدة ، لا تهنأ بإخوة وأخوات يؤنسونها في هذه الحياة الدنيا، إلا أخ واحد لم يعش إلا قليلا ، ثم صمت بالموت ، هى التي أثرت في نفسها هذا التأثير .. ثم مات والدها

(❖) محمد عبد الغني حسن: مرجع سابق ، ص ٣٦ ،٣٧ ، ٣٨ .

عام ١٩٢٩، ولحقت به والدتها بعد بضع سنوات ،بقيت بلا أب ، ولا أم ،ولا أخ .. وذات ليلة كنت أزورها ، فرأيتها جالسة وحيدة ، فجري حديث بيني وبينها عن الحياة وغايتها ، ومافيها من سعادة وشقاء ، قالت : « هل تظن أن في الحياة سعادة أو أننا بالحياة سعداء» .. ثم قالت : كأني بابن الفارض يعني «السعادة » بهذه الأبيات:

صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هوى

ونور ولا نار، وروح ولا جسم

ويطرب من لم يدرها عند ذكرها

كمشتاق نعم كلما ذكرت نعم

على نفسه فليبك من ضاع عمره

وليس له فيه نصيب ولا سهم

ثم سكتت ، نظرت إلى السماء ، واغرورقت عيناها بالدموع .. » (❖) ورغم ذلك ، كانت مي لا تخلو من روح الدعابة يقول الأستاذ طاهر الطناحي (❖❖)، وهو من رواد صالونها ومن المقربين إليها في أواخر أيامها .. « ذات مساء أثناء زيارتي للآنسة مي – لحظت على مكتبها صورة رشقتها أمامها ، فسألتها قبل أن أتبينها: «لمن تكون هذه الصورة ؟» « فأمسكتها بيدها ، وأطلعتني عليها ، فإذا هي للشاعر المرحوم ولي الدين يكن أهداها إليها ، وقد كتب تحتها بخطه هذا البيت:

كل شيء يا « مي » عندك غال

غير أني وحدي لديك رخيص

(❖) طاهر الطناحي: مرجع سابق، ص ١٣، ١٤.

(❖❖) المرجع السابق: ص ٢٨ , ٢٩ ، ٣٠ .

وقد حدثتني عنه أنه كان معجبا بها ، مشغوفا بحبها وكثيرا ماكان ينظم شعرا فيها سجل بعضه في ديوانه المطبوع ، ولم يسجل الآخر.. وقد كانت على الرغم من أنها لم تبادله حبا بحب فإنها كانت تعطف على نفسه الرقيقة ، وشعوره المرهف ، وكانت تفسح له في زيارتها حتي وهو مريض في أواخر أيامه ، فقلت لها إن هذا البيت يدل على لوعة وأسى ، وشعور صادق .. غير أن روي « الصاد » روي نادر ثقيل. فما كدت أنتهي من هذه العبارة حتى لمعت عيناها الذكيتان ، وأمسكت بريشتها في رقة وهي تهز رأسها ، وتعطف عنقها كعادتها في الحديث ، وناولتي إياها في ابتسام ماكر وتحد ظريف ، وقالت :« إذا كنت تنتقد روي هذا البيت ، فإني أطلب منك أن تشطره الآن قبل أن تقوم من مكانك، ولن أسمح لك بالانصراف المباح ،ولو جلست هنا إلى الصباح ، حتى تجعل الشطر شطرين ،والبيت بيتين ». فأردت التخلص والاعتذار ،حتى يذهب الليل ويأتي النهار ،ولكنها أصرت، وكان في إصرارها لطف وخفة وجمال ، فأثار وجداني ، وحركت شعوري ،فما وسعني إلا أن أتناول منها القلم ، بعد دقائق ناولتها هذا التشطير:

كل شيء يا ميّ عندك غال

يتمناه في الحياة الحريص..

قدغلا في حماك كل أديب

غير أني وحدي لديك رخيص

فلما قرأته انبسطت أساريرها، وطربت، وكانت تطرب للشعر وتحبه. وذات مساء.. زرتها كعادتي، فبعد حديث طريف أخرجت من مكتبتها ورقة مطوية

نشرتها أمامي ثم قالت : «لقد أعددت لك الليلة امتحانا ثانيا»! فقلت لها: أو لم يكف امتحان الأسبوع الماضي» .. قالت : «هذا بيت لشاعر قديم يسأل فيه سؤالا فعليك أن تجيب عليه شعرا » وهو:

ماذا تقول إذا أتتك مليحة

كحلاء.. في يدها كعين الديك (❖).

فقلت لها: " هذا السؤال عسير ، يحتاج إلى تفكير". ثم جئتها في الأسبوع التالي بهذا الجواب :

أصبو لمبسمها وطيب عناقها

وأقول هل موتي جوي يرضيك..

وأجيبها – لو ناولتني كأسها :

لا خمر غير سلافة من فيك ..

فضحكت في جمال ، وقالت : « لعلك من العشاق المتيمين » قلت لها : « إنني متيم بنبوغك » قالت : "فاحتج على ذلك" قلت: " أنت التي أثرت شعوري ، وأفشيت سري" ..فابتسمت في لطف وأدب.. وبعد انتهاء المجلس انصرفت ، ثم كان صباح اليوم التالي ، فبعثت إليها بهذين البيتين :

أفشي لها الشعرما في القلب من كعد

فقالت: " احتج" قلت اللّه في كبدي ..

اللّه يا « مي » في نفس معذبة

تشكو إليك ، ولا تشكو إلى أحد ..

(❖) أي في يدها كأس خمر صافية كصفاء عين الديك .

الدراسة والصحافة

أتيح لميّ منذ طفولتها أن تتلقى الدراسة والثقافة في معهدين للراهبات، الأول بقرية " الناصرة " بفلسطين ، والثاني بعينطورة اللبنانية ، ولكل معهد من هذين المعهدين نظمه الخاصة في الدراسة والتحصيل العلمي ، ومن هنا فالتلميذات مقيدات بنظام معين ، ولا شك أن " ميّ " قد تفاعلت مع هذا المناخ ، الذي اتسم بالصبغة الدينية في الدراسة والمعيشة ، وانعكس هذا بلا شك على حياتها وأدبها فيما بعد .

ولقد وصفت في يومياتها ، بمدرسة عينطورة على حداثة السن ، بعض معلماتها الراهبات ، معجبة بحدة الذكاء فيهن ورقة الشعور وصدق المجاهدة للتغلب على النفس ، حتى إنها ، وهى في بوادر المراهقة وظمأ الإحساس إلى الحنان والجمال وصفت المعلمة التي أحبتها ، وطاب لها درسها قائلة :

".. من ذا لا يحب نور عينيها المتألق ؟ ومن ذا لا يحب الحلاوة في أجفانها المسبلة .. " أما واعظ الدير والمعهد الذي كان يلاحظ ذكاءها وشذوذها عن رفيقاتها في الوحدة والمطالعة وفي محاولتها التمرد على النظام المدرسي ، لتشعر بأنها ليست كبقية الطالبات في تفكيرها واستعدادها ، فقد ذكرته في يومياتها قائلة:

" يروعني من المرشد جزالة صوته ، وصدى ذلك الصوت المتورع في المعبد رهيب ، ويروعني منه علو أفكاره وشرف تعبيره ، لن أصف هيئته وحركته وكلامه ، وجبهته هى جبهة العلم والذكاء والإدراك ونظرته نظره الفيلسوف الذي يكتب ويرحم ويتجلد على كل هيئة تغلب عاطفة الصلاح"(❖) .

ولما كانت ميّ تواقة إلى المزيد من العلم والتحصيل ، فقد عكفت في بيتها وحدها تقرأ الكتب الأدبية والفلسفية ، وتعرفت من خلال قراءتها على مفكرين وأدباء شعرت أنهم أصدقاء لها ، تجمع بينها وبينهم روابط وثيقة من نوع ما .. من هؤلاء المفكرين الذين أعجبت بهم : لامرتين وراسين وهوجو وشاتوبريان وبيرون وغيرهم .. ومن الكاتبات: دوستال ودوسفينيه وجورج صاند وغيرهن.

واطلعت على الكثير من كتب التاريخ والفلسفة والموسوعات الأدبية فكان تحصيلها الخاص سبباً رئيسيا من الأسباب التي ساعدت على تنمية مواهبها الأدبية والإبداعية، فمي كانت في ظمأ دائم لا يرتوي إلى المطالعة التي ضاقت بها أمها وخشيت عليها منها "فالصبايا نظائرها تواقات إلى استقرار في زواج يؤمن لهن رفاق الحياة في مودة وأمومة، أما مي فكانت الأيام تزيدها تعلقا بالكتاب والقلم، فلما سمحت الجامعة المصرية خلال الحرب العالمية الأولى بانتساب الطالبات إلى بعض الأقسام فيها سارعت إلى دراسة الأدب والفلسفة، وكانت العربية السابقة بين أجنبيات تبادر إلى الجامعة قبل أن تبدأ المحاضرات فتتأمل في هذا الينبوع الفكري الجديد، الذي جاءت تستقي منه على ظمأ وشوق، وبقيت ثلاثة أعوام مثابرة على البحث والمحاضرة في الجامعة التي

(❖) وداد سكاكيني : مرجع سابق، ص ٤٩ .

استهوتها وعدتها منار الفكر العربي الحديث ، وكان فيها الرعيل الأول من الجامعيين والمصريين الذي تلقوا دراستهم في بعثات للغرب وشاركوا في وضع القواعد والخطط للدراسة الجامعية ، وبين هؤلاء كان فوج من المستشرقين الذين أحبوا مصر والمصريين جاءوا بتجاربهم وبالأفكار التحررية ومناهج البحث والتأليف والمحاضرة"(*).

ففي عام ١٩١٦ كانت "ميّ " بين زميلاتها الطالبات تستمع لأحاديثهن ، قبل المحاضرة وهى أحاديث لا تتجاوز الكلام عن الأزياء والسينما وأشكال القبعات ، ولنترك القلم لميّ تصف لنا زميلاتها وتصف لنا الجامعة: " كنا نجتمع هناك كمؤتمر دولي التأم لعقد الهدنة وتقرير شروط الصلح ، أو كمؤتمر نسائي غرضه المطالبة بحقوقه والمجاهرة بمبادئه على أن الأحاديث الدائرة بيننا لم تكن لتدل على شيء من ذلك لأنها كانت مقتصرة على أخبار الكونسرتات والسينما والأزياء وأشكال البرانيط الحديثة ، وكان يتخلل هذه الثرثرة النسائية المحضة ضحك طويل " يدب دبيبه " في كل موضوع تجاذبت أطرافه فتاتان ، فكيف به إذا صار ضجة فتيات كثيرات .

ومن عجائب الحديث النسائي أن السيدات إما يصغين جميعا ولا تتكلم منهن واحدة وهذا أندر من النادر ، وإما يتكلمن جميعا في آن واحد ولا تصغي منهن واحدة.

وكانت الحالة الثانية حالنا في اجتماعاتنا ، نظل عليها حتى يعرض لنا ذكر

(*) المرجع السابق : ص ٥٠ .

موضوع الدرس فيهدأ ضجيجنا بغتة ونسمع جميعا المتكلمة فينا ولا نحجم عن بث الآراء والمناقشة أحيانا ، ونبقي " عاقلات " حتى يمر في الحديث خيال نكتة صغيرة فنعود إلى الثرثرة والضوضاء والضحك المتقطع المتواصل .. اجتماعات لطيفة كاجتماعات الفتيات في كل زمان ومكان ولكننا لم نكن لنهتم " بسر " الغرفة التي تجمعنا جدرانها ولم أنتبه لذلك "السر ".. إلا يوم وجدتني هناك وحدي ناظرة إلى ما نشر على الجدران من رسوم أعاظم الكتاب والمفكرين.

يقال إن في العالم- وقتها - نحو ثلاثمائة جامعة ، ولكن كانت الجامعة المصرية أحدث هذه الجامعات سنا ، وأقلهن فائدة (لأنه ليست لألقابها حروف شتى يجرها الطلبة وراء أسمائهم) فهى مع ذلك آخذة مكانها بينهن ولها ميزة خاصة بكونها جامعة أهلية .. أما الجامعة المصرية فمفتوحة للجميع ، ولا تقلل من فضلها حداثة سنها ، إن كل صغير مستودع آمال كبيرة لأن له قابلية النمو والتأثر .

قال ألفرد دي موسه (وهو الشاعر الذي أعطى قوة التعبير عن أعمق العواطف بألطف الألفاظ) : " كأسي صغيرة، لكني أشرب من كأسي". وعلى هذا القياس للمصريين أن يقولوا : " جامعتنا صغيرة، لكننا نتعلم في جامعتنا ".

ليست الجامعة ينبوع علم وأدب لطلبتها وطالباتها فحسب، بل هى مهبط وحي لي، حين أبلغها قبل ابتداء الدرس الذي أبتغي حضوره بدقائق أقضيها بالانتظار والتأمل ، فكم من أفكار جميلة أنستني ما يحيط بي من آثار الحياة الإضافية! وكم من تأمل التقط موضوعه نظرى بين وريقات خضراء، وكم من

حلم وجدت خطوطه مرسومة في جو قاعة الدرس وألوانه محبوكة بخيوط الأشعة المطلة علينا من النافذة ! أفكار وتأملات وأحلام رفرفت علىّ حينا وغنت في نفسي كالأطيار ، ثم فتحت جناحها الذهبي ساعة جاء الدرس ينبهني فتحت جناحها ، وانطلقت تعدو إلى آفاق بعيدة أجهلها وأحبها لأن لى فيها أطيارا خيالية ..

وتعليقا على مقالة ميٍّ المعنونة بـ "غرفة في مكتبة " والتي نشرتها في "يوميات فتاة " كتب الأديب أنطون الجميل رسالة إلى ميّ في ١٥إبريل ١٩١٥ يعلق فيها على مقالتها السابقة:

" يا ميّ .. قرأت اليوم ما كتبته في " يوميات فتاة " عما جال في صدرك من العواطف أثناء تلك الدقائق الوجيزة التي قضيتها بين صور مشاهير الكتاب في إحدي غرف الجامعة المصرية ، وتلوت على مهل كمن يتلو صلاة ، أو يترنم بأنشودة ما أوحي إليك من الإلهام ، منظر أمراء الفكر مصورين على الجدران من ديكارت ، وكورنيل ، وراسين ، وموليير إلى فولتير ، وهوجو ، ما أجمل هؤلاء الرجال بل أنصاف الآلهة ، تذيع مفاخرهم بعد أجيال فتاة شاعرة ، وتمجد أرواحهم بلغة لم يعرفوا منها إلا الاسم ، وليدة جبل الزيتون ، وربيبة جبل الأرز، تنشر مآثر عظماء أبناء السين بلغة سكان المضارب !

تلك يا ميّ .. ما أجمل خلود الفكر ! .. أليس هو أدعى إلى الغبطة من خلود النفس ؟! أنت لست بالغريبة عن هذه الأرواح الخالدة ، كما أنها ليست بالغريبة عنك ، فمحبو الجمال . كمحبي الحقيقة .. أولاد طين واحد، بل أبناء أسرة واحدة .

أنا لم تقع عيني على هذه الصور التي وصفتها ، ولكني أشك في أن المصور الذي رسم بألوانه هيكلها الفاني قد أجاد إجادتك حين صورت بألفاظك وعباراتك روحها الخالدة وفكرها الباقي .

أنا لا أكتب إليك مقرظا ، فلقد طالما عرفك المعجبون بأدبك الزاهر ، وعلمك الوافر ، كاتبة تستولد فؤادها الرقيق أسمى العواطف ، فتلبسها مما تحكيه مخيلتها الفنية حلة قشيبة ، وتجملها بجواهر عقلها السليم .. فلا بدع إذا وصفت فأبدعت " .

" .. لا .. أنا لا أكتب لأقرظ تلك التي تقرظها أعمالها وحياتها الفكرية ، بل لأدون خواطر جالت في الصدر لدي تلاوة تلك الصفحة من اليوميات ، فحملت القلب على التأمل والتفكير .. دونت هذه الأفكار .. كما دونت تأملاتك اللطيفة في تلك الغرفة .

صدقت : إن للغرف أرواحا لو تكلمت الجدران لكانت أفصح من هوجو وفولتير .

وصدق الشاعر العربي :

واستجمعت دار هند ما تكلمنا

والدار لو كلمتنا ذات أخبار

أي نفس شاعرة لا تحس مثل ذلك ؟ .. أليس القائل :

والدار تملكني – ويلي – وصاحبها

فلي مليكان : رب الدار – والدار

أصدق وأدرى بثينات النفس البشرية من المتنبي حيث ، يقول :

وما حب الديار شغفن قلبي

ولكن حب من سكن الديارا

على أن المتنبي قد أكمل فكرة هذا يوم قال:

لك يا منازل في القلوب منازل

أقفرت أنت، وهن منك أواهل

ألم يدرك شعراء العرب هذه العاطفة أحسن من سواهم حينما كانوا يستهلون قصائدهم بتحية الأطلال البالية ، وندب الربوع الدارسة ؟!

أنا لا أمر بمكان فيه شيء من بقايا الماضي القريب أو البعيد - إن كان في الماضي قرب أو بعد - إلا وأستسلم إلى التأملات المحزنة . كم من النفوس تألمت وبكت حيث نتألم ونبكي ورجت وتعزت ، حيث نرجو ونتعزى ، فتعرفت مثلنا الأمل المحيي ، والقنوط المميت !!

أجل ، لعل تلك الأوراح تطل علينا من عالمها الثاني ، وتشاركنا في دموعنا وابتساماتنا لاشك أنها ترثي لحالنا ، بل تضحك منا- تضحك من

أفراحنا ، ونحن نعتقد أنه لم يعرف الفرح أحد قبلنا - وتضحك من أحزاننا ، ونحن نتوهم أنه لم يشعر بالحزن قلب غير قلوبنا وتضحك من حبنا ، ونحن نتصور أننا دون سوانا فقد اخترعنا الحب !

هذه السطور ، يا ميّ علقيها على حاشية بحرف ضئيل على متن يومياتك الجميلة ولعلك فاعلة ، فينعكس عليها شيء من نور فكرك الثاقب يجعل لها بعض الرونق في عينيك المتألمة "(❖).

ولما أنشأت ميّ صالونها الأدبي ، كان لها في الجامعة المصرية أساتذة وأصدقاء لقيت منهم كل تشجيع وتقدير .

ولا شك أن لتردد ها على محاضرات الجامعة أبلغ الأثر في التأثير عليها كأديبة، لاسيما أنها احتكت بأعلام الأدب العربي المعاصر وبعض

(❖) طاهر الطناحي : أطياف من حياة ميّ ، كتاب الهلال ، القاهرة، ع ٢٧٩ ، ١٩٧٤، ص ٤٥ ، ٤٦ , ٤٧ .

المستشرقين البارزين ، فدرست تاريخ الفلسفة العامة ، والفلسفة العربية ، وعلم الأخلاق على المستشرق الأسباني " الكونت ديه جلارزا"وتاريخ الآداب العربية على الشيخ محمد المهدي وتاريخ الدول الإسلامية على الشيخ محمد الخضري ، إلى أن انتهت الحرب العالمية الأولى وقامت الحركة الوطنية المصرية ، وهنا كانت يقظتها الأدبية الصحيحة والخلق الجديد اللذان أمدتها بهما تلك الحركة بروحها .. وكانت من الطلاب البارزين النابغين في الجامعة ، وكانت لها مكانة مرموقة في نفوس أساتذتها وزملائها الطلاب ، يقول د. زكي مبارك عن ميّ :

".. هى فتاة أعرفها جيدا ، فقد كانت رفيقتي في الدرس ، وزميلتي في طلب الأدب والفلسفة بالجامعة المصرية ، وهى المداموزيل صهباء..

وعرفت منذ يومئذ أن الآنسة ميّ معناها المداموزيل صهباء .. رافقتني بالجامعة المصرية ثلاث سنين ، وكان الطلبة يختلفون معي اختلافا شديدا حين كنا نعرض لتقدير مواهبها الأدبية ، فسألنا الأستاذ المهدي أن يحكم فيما شجر بيننا من خلاف.، وكان فينا من يفضل باحثة البادية ومن يقدم ميّ فقال الأستاذ: تلك أجزل وهذه أرشق .. "(❖) .

ومن مظاهر تكريم زملائها في الجامعة المصرية ، أنهم انتدبوها لتمثلهم في إلقاء خطبة باللغة الفرنسية في تكريم أستاذ الفلسفة " الكونت دي جلارزا " في الحفلة التي أقاموها له في مساء ١٣ إبريل ١٩١٧ في حديقة فندق شبرد بمناسبة انتهائه من تدريس الفلسفة اليونانية لهم(❖❖)، كذلك باسم أساتذة الجامعة وطلابها ألقت "ميّ" خطبة وداع للشيخ محمد الحضرى ـ مفتش

(❖) انظر مقال عروس الأدب للدكتور زكي مبارك ، مجلة صوت المرأة، القاهرة " عدد خاص بميّ زيادة " ١٩٤٩.

(❖❖) الخطبة معنونة بـ " البعث العتيد " ونشرت في كتابها (كلمات وإشارات /١)، انظر المؤلفات الكاملة.

أول اللغة العربية في وزارة المعارف الذي كان يدرس تاريخ الأمم الإسلامية في الجامعة المصرية – والشيخ محمد المهدي وكيل مدرسة القضاء الشرعي الذي كان يدرس تاريخ الآداب العربية، وألقت " مي " خطبتها (❖) في تكريم الأستاذين في الحفلة التي أقيمت في شبرد في آخر كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ م .

ولم تستمر في دراستها الجامعية ، فقد شغلتها الصحافة والعطاء الفكري عن مواصلة الدراسة الجامعية.

وماذا عن تجربة ميّ في الصحافة ؟

لقد كان لمقالاتها في الصحافة المصرية دور اجتماعي كبير فكان لأسلوبها مذاق خاص في العرض .. ينضج بالعاطفة واللطف الفطري والمشاعر المرهفة وكان لثقافتها الأجنبية والعربية أعظم الأثر في كتاباتها.. فكانت تحرر في " المحروسة " بابا ثابتا بعنوان " يوميات فتاة " كتبت فيه العديد من الآراء والمقالات الجريئة ، بأسماء مستعارة وكان من أسمائها المستعارة: "شجية، خالد رأفت ، ايزيس كوبيا ، عائدة ، كنار ، السندبادة البحرية الأولى ". وقد ابتدعت ميّ في الصحافة مجالات سبقت غيرها بها .

فعندما أنشئت صحيفة " السياسة الأسبوعية " – في سنة ١٩٢٦ ـ عرضت هذه الصحيفة على" مي" أن تتولى فيها تحرير القسم النسائي، لكن ميا رفضت هذا التخصص ، وابتكرت في تحرير "السياسة الأسبوعية " بابا جديدا أطلقت عليه اسم "خلية النحل " .. وكان قوام هذا الباب من أبواب تحرير الجريدة أن

(❖) الخطبة معنونة بـ " وداع الأستاذين " ، المرجع السابق ، ص ٦٤ .

يتقدم من شاء من القارئات والقارئين ببعض الأسئلة وأن يتولى من شاء من القارئات والقارئين الإجابة عن هده الأسئلة.. وكانت كل وظيفة الصحفية المشرفة على تحرير هذا الباب هى إختيار الأسئلة والأجوبة وإعادة صياغتها صياغة لائقة وكان هذا الباب أول باب يقبل عليه شباب القراء في سنة ١٩٢٦ ، وكان إقبالهم على هذا الباب يمثل جانبا من إقبال القراء على الجريدة وهكذا برهنت – ميّ – على تفهم سباق في الفن الصحفي .. لكن هذا العمل كان أول وآخر عمل " فني " أدته ميّ للصحافة .

لقد حاولت صحيفة " الأهرام" أن تجتذب "ميا" لأن تكون عضوا في أسرة تحريرها، بل لقد أعدت لها مكتبا خاصا، والعجيب أن مكان هذا المكتب كان في غرفة رئيس التحرير .. ولكنها كانت أذكى من قبول هذا العرض وظلت صلتها بـ "الأهرام" صلة الكاتبة الحرة التي لا تختلط بأحد في الصحيفة التي تنشر مقالاتها .." (❖) .

وإني أختلف مع الأستاذ حافظ محمود في رأيه الذي ذهب إليه وهو " أن ميا كانت خطيبة وشاعرة أكثر منها كاتبة . ومع هذا فإن ما بقى منها هو ما كتبته في كتبها فقط ، لأن خطابتها وشاعريتها ، كانتا من خصائصها الذاتية التي ذهبت معها فنسيها الناس ، بل قد نسوا أيضا أنها كانت صحفية .. "(❖❖).

والحقيقة أنه لو كان ما ذهب إليه الأستاذ حافظ – في رأيه – صحيحا لما بقيت بين أيدينا اليوم آثار " مي " ومؤلفاتها ، وإذا كانت ميّ خطيبة وشاعرة أكثر منها كاتبة فقد أجادت ميّ – بشهادة أدباء عصرها – الخطابة بالدرجة

(❖) حافظ محمود : عمالقة الصحافة ، كتاب الهلال ، القاهرة، سبتمبر ١٩٧٤، ص ١٢٠، ١٢١.
(❖❖) المرجع السابق : ص ١١٩، ١٢٠.

نفسها التي تجيد بها الكتابة!! وما دامت الكتابة المتمثلة في مؤلفاتها التي بين أيدينا، فهى مرآة صادقة للحكم على ميّ زيادة الخطيبة.

وإذا كانت ميّ خطيبة جيدة ، فهى أيضا كاتبة جيدة، لأنها هى التي تكتب الخطب لنفسها .. تلك الخطب البليغة ، القادرة على إثارة الخيال وجذب الانتباه، كما أن خطب ميّ قد طبعت في كتب فيما بعد " في حياتها وبعد وفاتها " إذن فخطب ميّ باقية ولم تفن (❖) ، كما أن كتاباتها باقية أيضا. . أما مي الشاعرة .. فلم تنظم شعرا باللغة بالعربية في حياتها إطلاقا ، إنما نظمت وترجمت قصائد لشعراء فرنسيين ونشرت هذه الترجمات والخواطر المكتوبة باللغة الفرنسية " في كتابها الأول " أزاهير حلم " وهو أيضا باق لم يفن لأن الأعمال الجيدة خالدة .

وإذا كانت خطابة " ميّ " وشاعريتها من خصائصها الذاتية .. فالخصائص الذاتية للمبدع هى التي تميزه عن أقرانه وعن أدباء عصره ، فبدون الفروق والخصائص الفردية ، الذاتية ، لا يمكن الحصول على أدب وفكر متميز ومتنوع ، وإن تلك الخصائص الذاتية هى من أهم عوامل بقاء الفكر وخلوده. .

وإذا كان الناس قد نسوا هذا (وبالطبع يقصد الأستاذ حافظ عامة الناس) فإن خاصة الناس ، وهم الفئة المثقفة القارئة لم تنس هذا .. وأحسب أن من واجبنا – كتاباً ونقاداً وباحثين – أن نذكر الناس بهذا ولا ننسيهم إياه ، بإطلاق أحكام عامة جائرة لا تسندها حجة ولا برهان .

(❖) المؤلفات الكاملة: كلمات وإشارات جـ ١، ٢ .

اللغة العربية والأديان

إذا رجعت إلى القدر الذى يمسك بعربة الوجود الدوار ، فلا يفوته في وظيفته الكبرى أن يتعهد الموهوبين وأن يترك في الطريق المتعثرين والعاجزين .. رأيناه قد أمسك بعربة " مى" وسحبها حتى جناح الناصرة من آفاق فلسطين إلي ربوع النيل، لأمر قدر وكتب في لوح مي ، وهى نفسها التي فلسفت مرحلة القدر حيث كانت تقول بعنف ، إن القدر لا يتفرغ إلا للخالدين ! وكانت وهي تردد هذا القول لا تدرى أنها ستكون في عداد هؤلاء .. ولو نظرنا إلى من سبقوها في مثل تلك النقلات والرحلات أو تبعوها وجاءوا بعدها ، لرأينا مراصد الأفلاك تدور عليهم ، ولا تقف بالتوفيق إلا على أمثالها.

وقديما قيل إن الماء يأسن في مكانه ويسيغ إذا جرى وانحدر ، وقد جرت مياه مي في منحدر النيل الذى سقى التاريخ ومازال يرويه وتشهد الشعوب على جانبيه تداول العصور، والقاهرة شهدت نضوج فكرها.. وانتسابها للجامعة.. واحتكاكها برواد حركات الإصلاح والانبعاث لانطلاق المرأة العربية إلى التحرر والإحساس بالوجود ، كانت كاتبتنا بهذه المشاهد اليومية أشبه بقادم على روض جديد أخذ الصباح يتجلي في أفقه وبدأت ذكاء تطل بأشعتها عليه لتملأه حياة

ونورا، فأخذ والدها يرى في وجهها الخير والمجد ، وأخذت هى تستشف ليومها وغدها ما تعده لنفسها من ثقافة ومكانة تحقق أملها ، وكان أملها عريضا بعيدا وصفته في مقالاتها وكشفت عنه في حياتها التي كتب لها القدر خطاها التي مشت بين الحقيقة والخيال (❖) فنجد " ميا " قد لفتت الانتباه إلى موهبتها ، لاسيما بعد نشر ديوانها الأول ، ومقالاتها الأولى في جريدة والدها " المحروسة"، فكانت تكتب فيها بابا ثابتا بعنوان " يوميات فتاة " إلى جانب مقالات أخرى فلسفية وأدبية واجتماعية.

وقد وجدت مقالاتها جمهورا كبيرا من القراء للنفس النسائى في كتاباتها وعفويتها في التناول والعرض ، فمن غير تكلف كانت تعبر عن طبيعتها النسائية، لا تكذبها مرة واحدة ، فكانت تنتزع القراء من المادية إلي الروحانية والمثل العليا والقيم السامية ، كانت ثقافتها في تلك المرحلة ثقافة فرنسية ، فقد اطلعت على الأدب الفرنسى ، وسير نوابغه في مدرستها ، فقد كانت الدراسة فيها باللغة الفرنسية ، فلما شهد والدها إتقانها للفرنسية ، وعدم إجادتها اللغة العربية وهى عربية المنبت ، بدأ والدها ينبهها ويحثها على ضرورة إجادة لغة قومها وهى العربية .. وكان لأستاذ الجيل " أحمد لطفى السيد " فضل كبير في تحولها إلى مناهل الثقافة العربية والقرآن الكريم ، وكان أول لقاء جمع بين لطفى السيد ومي في بيروت وأعجب من يوم أن رآها .. بذكائها ودفاعها عن المرأة العربية ، وقد والى أستاذ الجيل زيارته لبيتها ليمرن قلمها ولسانها على التعبير والقراءة وليجعل القرآن الكريم رائدها في تعلم البيان.

(❖) وداد سكاكينى : مرجع سبق، ص ٤١ .

وقد ردها هذا إلي الشعور العميق بأصالتها فنزع من لسانها وتفكيرها العجمة والاكتفاء بالثقافة الأجنبية ، حتى تعلقت بأصول التعبير في اللغة العربية، وكان"أستاذ الجيل" يشرح لها مافاتها من المعانى والصور ومي تتذوق بلاغة القرآن الكريم وما فيه من روعة جذابة وكانت مي ساعتها تشعر بسعادة غامرة وإعجاب كبير لأنها كل يوم تتطور في إجادة العربية قراءة وكتابة .

ولم يضن عليها لطفى السيد بجهده ، فحمل إليها العديد من الكتب العربية مثل " النسائيات " لباحثة البادية ، وديوان محمود سامي البارودى "، وتحرير الفتاة " لقاسم أمين وغيرها ، وسهرت "مي " تقرأ وتبحث وتحفظ باجتهاد وتنهل من التراث الأدبي العربي .. ومن آرائها أن القرآن الكريم هو مصدر جميع العلوم، وهو الذى حافظ على اللغة العربية وتراثها ، وأنه هو مصدر الحضارة العربية تقول مي: " .. لقد ذاع القرآن بسرعة لم يظفر بها كتاب قبله ولا بعده ، ولم يقصر انتشاره على الشعوب التي نزل بينها وتوافقت مع تعاليمه ومدركاتها وطبيعتها ، بل خضعت له بعدئذ أمم لها من حضارتها السحيقة ما قد يعد كافيا لتفلت من سطوته ورفض الإذعان لأحكامه .. ولقد أوجد القرآن دينا عربيا ، ودولة عربية ، وأحكاما عربية ، وآدابا عربية ، صارت كلها أجزاءً قومية واحدة ربطت شعوبا لم تكن العربية لغتها ، لذلك قال جماعة من المؤرخين ، إن التمدن العربي كان تمدنا إسلاميا صرفا .

والقرآن مصدر جميع العلوم التي عنى بها المسلمون في أوج حضارتهم، فلتفسير آياته وسوره وجدت علوم الكلام وعلوم المنطق ، ولتفهم ما فيه من نظام وتشريع وجدت علوم الشرع والفقه ، ولم تكن غاية المؤرخين الأولين من العرب

إلا تحديد وقت نزوله وتدوين الأحاديث النبوية، أليس الجغرافيون الأوائل أو علماء المسالك والأمصار ، هم الذين مضوا من أقاصى أفريقيا وآسيا لتأدية فريضة الحج ، ثم عادوا يصفون رحلتهم وما رأوه في البلاد البعيدة من الجديد غير المألوف ؟ ألم يكن غرض علماء اللغة إيضاح ما غمض من آيات القرآن وتطبيق قواعد الصرف والنحو على نصوصه ؟ ألم تطلب أرصاد الفلكيين وعمليات الرياضيين لتحديد ساعات الصلاة وتوقيت مواعد الحج والصوم ؟ ألم تستدع مسائل الوقاية الصحية ، والنظافة اهتمام الأطباء ، كما ظلت بعد تحثهم على البحث والتنقيب ؟.. نعم لم يهتم العرب في ذلك الدور بعلم من العلوم إلا لأن آيات القرآن قضت بمعرفته لاجتلاء معنى غامض ، أو شرح قول مستغلق ، ومذاهب علماء الكلام هى التي نبهت أبحاث الفلاسفة ومناظراتهم فكانوا بما نقلوا وما أوجدوا أساتذة الفلسفة الحديثة ، سبق القول إنه قد اشترك مع العربية لغتان أخريان بكونهما قوميتين ، نشرتا عقيدة دينية ومذهبا سياسيا بين شعوب مختلفة ، أي اليونانية واللاتينية ، فقد كانت اللاتينية مستعملة من كمبانيا في إيطاليا الجنوبية إلي الجذر البريطانية، ومن نهر الرين إلى جبل الأطلس ، واستعملت اليونانية من أقاصي صقلية إلى شاطيء دجلة والفرات، ومن البحر الأسود إلى تخوم الحبشة، لكن ما أضيقه انتشارا إذا ما قوبل بانتشار العربية التي امتدت إلى إسبانيا وإفريقيا حتى خط الاستواء وجنوب آسيا وشمالها إلى ما وراء بلاد التتر !

أما اللغة الفصحى فقد استولت على جميع أنحاء الشرق الإسلامي ،وإن لم تكن لها الغلبة كلغة كلامية على بعض اللغات في الشرق والشمال فقد أوجدت

تبديلا محسوسا في الفارسية والهندية ، والهندستانية والتركية ولغات أفريقيا ولهجات التتر .. كذلك في اللغات الحديثة المشتقة من اللاتينية أو المقتبسة منها، كلمات كثيرة ذات أصل عربي .. لقد عدت اليونانية في صف اللغات الميتة بعد سقوط مدينتها.

فما الذي حفظ العربية حية بعد زوال مدنية العرب بقرون سبعة ؟ إن الذى كان باعثا علي تكوين المدنية العربية هو الذي ما زال حافظها إلى اليوم : هو القرآن ! .. لذلك ستظل اللغة العربية حية ما دام الإسلام حيا وما دام في أنحاء المسكونة ثلاثمائة مليون من البشر يضعون يدهم على القرآن حين يقسمون" (❖)، وكانت " مي " بعد اتجاهها وتحولها إلى العربية محبة لها كل الحب ، شاغلة نفسها بمسائلها ومشكلاتها .. ومقترحة مسائل لتجعلها متمشية مع مقتضيات العصر وتطور الزمن .

ولقد شغلت حينا بالمجمع اللغوي الذي كان ينعقد في دار الكتب المصرية بدعوة من مديرها أحمد لطفي السيد ، وكانت متابعة لجلساته ، فلما شغل السيد بالسياسة وانضم إلى الوفد المصرى، عطلت جلسات هذا المجمع، فعز عليها ذلك التعطل وحثت الأعضاء على أن يجتمعوا في منزل واحد منهم أو في مكتبة أحمد زكي " باشا"، ولامتهم على أن يتركوا مشروعا جليلا كهذا يغرق في الماء أو يطير في الهواء كأكثر مشروعاتنا الشرقية .

ولقد أثارت كلمة مي الأولى عن المجمع اللغوي موضوعا للمناقشة على

(❖) المؤلفات الكاملة : جـ ١ ، ص ٥٢٥ ، ٥٢٦، ٥٢٧.

صفحات جريدة " الايجبشان ميل " وبدأ من هذه الجريدة أو بعبارة أصح – من كاتب فيها – ما أثار غضب "مي" ومي إذا غضبت.. غضبت غضبة مضرية لم تهتك حجاب الشمس أو تقطر كما قال الشاعر العربي قبلها.. (❖) ولكنها هتكت أستار الذين تهكموا من مهمة المجمع لوضع أسماء عربية للمسميات الحديثة ، فهى كانت تميل إلي فكرة استعمال ألفاظ عربية بدلا من استعمال ألفاظ أجنبية ليست من لغة العرب ولا من أوزانها وحقلها في قليل أو كثير ، وتدافع " مي " عن رأيها بقولها : " لماذا لا يجوز للمجمع اللغوى ، ولكل كاتب عربي أن يؤثر استعمال ألفاظ عربية دون التعبيرات الأفرنجية ؟ أليست الحال كذلك عند جميع الشعوب " .

وترد علي الجريدة الإنجليزية بقولها: " ولو اقتصرنا على لغتها (الإفرنجية) دون غيرها ألا تذكر "الايجبشان ميل " أن الإنجليز أنفسهم يفضلون الكلمة السكسونية الأصل على الكلمة اللاتينية ؟ وأن كبار كتابهم إذا وجدوا أمامهم كلمتين اثنتين تؤديان المعني تماما إحداهما سكسونية، والأخرى لاتينية سارعوا إلى استعمال الكلمة الأولى لأنهم يرونها أفصح وأبلغ ؟ فلماذا ينكر علينا ما هو في نظرهم عين البلاغة وكل الحق» (❖❖)، هكذا كانت مي بليغة في ردها وفي دفاعها عن " المجمع اللغوي" الذي يحافظ على كيان اللغة العربية ، فكأنها قالت ما قاله الشاعر حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية:

وسعت كتاب الله لفظا وغاية

وما ضقت عن آيٍ به وعظات ..

فكيف أضيقُ اليوم عن وصف آله

وتنسيق أسماء لمخترعات ..

(❖) محمد عبد الغنى حسن : مرجع سابق، ص ٧٥، ٧٦ ، والإشارة إلى بيت الشاعر:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكت حجاب الشمس أو قطرت دما

(❖❖) المؤلفات الكاملة: جـ ١، ص ٤٣١ .

وجاء عام ١٩١٩، وفيه تفجرت الحركة القومية والنهضة المصرية، وظهرت جماعة يرون أن اللغة العربية لغة صعبة التعلم ، وأن العامية أصلح للتعبير ، وأقدر على أداء مهمتى التخاطب والكتابة من اللغة العربية الفصحي ، وكان " اسبيروبك " أحد الذين نادوا بهذا الرأى زعما منه أنه يريد الإصلاح ويبني رأيه على بنود ثلاثة :

أولا : صعوبة تعلم اللغة العربية .

ثانيا : تضاعفها بين فصحي أو كتابية وكلامية أى عامية .

ثالثا : يعترض على إنشاء المجمع اللغوى ويحدد وظيفته ، أو بالحرى هو يحذف الحدود من تلك الوظيفة ويجعلها شائعة .

وقد قامت " ميّ " بالرد علي البنود الثلاثة بحجج قوية ، فالأدلة عندها حاضرة، والأمثلة لديها معدة مهيأة تقول في ردها : " أما الصعوبة فإذا كانت بينة في اللغة العربية فهي غير محصورة فيها ، وأية لغة تخلو من صعوبة اللفظ أو التعبير والكتابة أو القواعد أو الزوائد التي لا منفعة لها ؟ حتى ولو كانت حديثة مختلطة كاللغة الإنجليزية ، فكيف بالعربية ، وهى من أمهات اللغات وميزتها على جميع اللغات الشائعة في كونها اللغة القديمة الحية رغم الزمان .. إن الذين تعلموا منا الانجليزية يعرفون صعوبة نطقها ويعجبون للحروف الكثيرة التي لا تظهر في اللفظ ، ومع ذلك فلا يحذفها الإنجليز ويرغمون أبناءهم والمتعلمى لغتهم على إجهاد النفس في مالا طائل تحته.. .. حتى اللغة الفرنسية.. نجد في كتابتهاصعوبة لا شبه لها في اللغة العربية، فما قد يكتب

عندنا بثلاثة حروف يقتضى أحيانا عندهم تسعة حروف ، والحركات التي تجد اليوم عندنا من يثور عليها ويطلب حذفها موجودة عند الفرنسيين وإن اختلفت وظيفتها اللفظية بعض الاختلاف ، وتصريف الأسماء الذي يحرجنا في العربية موجود عند الألمان وعند اليونان الذين يضرب بهم سبيرويك المثل .

إن اليونانية الحديثة بتصريفها وحركاتها وقواعدها ليست دون العربية صعوبة وتزيد عليها في اشتباك الأبجدية ، وحسبى أن أذكر من ذلك أن حرف الياء يكتب عندهم على سبعة أنواع تارة بالحرف المفرد وطورا باتحاد حرفين من حروف العلة.."(❖).

وترى " ميّ " أن نبذ اللغة العربية الفصحى ، والاستعاضة عنها باللغة العامية اعتراف بالعجز والخذلان ، لأن اللغة تنتعش بانتعاش الأمة وتجمد بجمودها .. ورأت أيضا في العامية خطرا على الفصحي ولم تأذن للأولى أن تدخل حرم الثانية وهو مقدس ، ولم تجر مع الجارين في سبيل مناصرة العامية، ولم تحرم استعمال العامية في الشوارع وفي غيرها مما يسهل معه التخاطب بها، لكنها حرمت تسجيلها في اللغة الراقية خشية أن تفسد عليها جمالها وتهذيبها، ومن هنا نرى أن الذوق عند ميّ سليم مهذب .. ولم تقتصر سلامته وتهذيبه على ما كانت تكتبه ، بل ظهر في أحاديثها التي تدل على لطف نفسها وسلامة فكرها .

ولا يفهمن القارئ من هذا الموقف النبيل الذي وقفته من اللغة العربية واللهجة العامية أنها كانت متزمتة متصلبة، أو "شيخة " أكثر من الشيوخ..

(❖) المؤلفات الكاملة : جـ ١ ، ص ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

أنفسهم أو أنها متطرفة إلى أبلغ غايات التطرف ، ولكنها كانت قواما في رأيها مع احترام القواعد والأصول ويظهر اعتدالها في قولها : " وما نطمع فيه ويعمل له التعليم والتهذيب هو رفع العامة إلى فهم أوسع وأحذق (❖) .. " .

ولا شك أن " ميا " قد عانت صعوبة النحو العربي ، وما فيه من خلاف في المذاهب بين البصريين والكوفيين والمتقدميين والمتأخرين ، وأدركت قيمة الوقت الذى يضيع في فهم مسائل النحو وأبوابه الصعبة ، ولذلك تقدمت بعدة مقترحات للمجمع اللغوى ، هذه المقترحات تتلخص في أربعة أمور :

أولا : أن يؤلف لجنة تبحث في كتب العرب ، ففيها بحر زاخر من الألفاظ والمسميات والمفردات الرشيقة البليغة التي نجهلها فيستخرجون منها ما يمكن الانتفاع به .

ثانيا : أن يؤلف لجنة أخرى توجد لجميع المسميات والمعاني والأدوات الجديدة تعبيرات سهلة إن لم تكن في كتب العرب فعن طريق النحت والاشتقاق والتعريب لتقرير ما يتفاهم به أهل جميع الأقطار ، فلا يكون كل من كتابهم قاموسا لذاته ومجمعا متفردا .

ثالثا : أن يؤلف لجنة ثالثة ترجع إلى عمال السكة الحديدية وباعة الأقمشة والأثاث وأدوات الزينة والطب والهندسة والصناعة والزراعة وسائر شئون الحياة ومرافق المعيشة التي اتسعت دائرتها بيننا ، فتتعرف مصطلحات كل جماعة ومهنة ، وتأخذ عنهم الأسماء التي عربوها وتواطأوا على استعمالها فتتناولها ، وتهذب منها ما هو خليق التهذيب وتدونه في القاموس الذي يتحتم تأليفه.

(❖) محمد عبد الغنى حسن : مرجع سابق ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

رابعا : أن يلخص لنا المجمع القواعد في كتاب وافٍ على اختصاره على نحو ما يفعل الإفرنج ، بحيث يضمن للمتعلم الإلمام بها فيعالج اللغة ويكتبها كتابة صحيحة في أقرب وقت ممكن . هذا أهم ما يقوم به مجمع لغوي عربي ، على ألا ينفرد مجمع قطر واحد بتقرير الألفاظ وتدوينها لأن اللغة ليست له وحده ، بل عليه أن يعرض خلاصة أبحاثه على علماء الأقطار الأخرى ومجامعها فيبحثونها ، ويكون التقرير في آخر الأمر بالاجماع قدر المستطاع (❖) .

لقد كانت مقترحات كاتبتنا بناءة .. وعلى الرغم من مرور عشرات السنوات عليها فإن هذه المقترحات في حاجة إلى إعادة النظر إليها والعناية بها والعمل على تنفيذها وتأتي أهمية هذه المقترحات من كونها تيسر قواعد اللغة العربية ، وتعنى الإصلاح لا الهدم .. وقد صدقت حين كتبت تقول: " .. الاصلاح ليس الهدم دوما ، بل هو في الغالب تبديل وصقل وتكييف إذ ليس في صالح الأمة إنكار الماضى الزاخر بالمجد الأدبي والحكمة ، وكما أن الفرد الواحد من الناس لا يأتي العالم مستقلا عن أمسه وغده بل يأتي متصلا على رغم منه بما سبقه وبما سيلحقه ، فكذلك اللغة التي هي وحدة حية ، ورثنا معها الحق في أن يكون لنفسيتها مجموعا وأفرادا أثرا فيها " (❖❖) .

ولما اشتد قلم ميّ في العربية واتسع وعيها لدقائق اللغة وانبسط تفكيرها في مناحي الثقافة ، أخذت تنشر مقالاتها في " المحروسة " جريدة أبيها وفي "الزهور"(❖❖❖) .

(❖) المؤلفات الكاملة : جـ ١ ، ص ٤٤٤ .
(❖❖) المرجع السابق: ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ .
(❖❖❖) مجلة " الزهور " لأمين تقي الدين وأنطون الجميل .

وربما فضلت على مقالات الرجال لقيمتها وأنوثتها وكانت " المقتطف " و " الهلال " تحتفيان بما تنشر فيهما " مي " ، وقد جعلت الكاتبة من ذاتها ناقدة نتاجها ، غير مستغنية عن آراء المقربين لديها ، مستعينة بتوجيه أستاذها الثاني " يعقوب صروف " صاحب "المقتطف " الذى كان يبدى لها عنفه بملاحظاته ولم يكن إلا عنف الأب الرحيم الذى يريد لوحيدته المدللة ما يجنبها الخطأ في صنعها ويهديها إلي أقوم سبيل ، وكان ذلك في بداية عهدها بمجلته وتشجيعه ، ولما اتهمها بأنها تكتب في العربية لغة غربية غضبت غضبة محببة .. ودافعت عن نفسها بلباقة ربحت فيها ، وحرصت فيما بعد ألا تترك لأستاذها مجالا لنقده المتهكم .

ومما جاء في ردها : " أعترف بأن معرفتى اللغات الأخرى قبل العربية جعلتني أشبه جماعتنا بتلك المرأة ، التي لم تخرج في حياتها من قرية لا تزيد منازلها على السبعة عدا .. وكانت تقول فيها إنها أجمل مدينة في العالم ، وإنها أم الدنيا ، وتلك المعرفة جعلتني أسائل نفسى كلما قرأت مقالا لبعض من يدعون أعاظم الكتاب وفطاحل الشعراء قائلة : وماذا وضع هؤلاء الأقطاب من ذاتيتهم في ما كتبوا، بل أين الذاتية التي لا أجد لها أثرا؟ " ثم مالي أنا أشرح ميولي وأبرر سروري اللغوي ، إذا كان هنالك من يستحق الملام ، فأنت هو ، أنت الذى تنصلت من الأسجاع والحواشى يوم كانت هذه روح العصر ، لو أردت أن أقلد أحدا لقلدتك لكنني أكره التقليد الذي يشوه المقلد ويمسخ المقلد وأنا أحب أن أكون أنا في كتابتى" .

والواقع أن أديبتنا تخلصت من كل تأثر بالأسلوب الأجنبى، بعد هذه الملاحظات

وأمثالها من أقرب أصدقائها ، فكانت تغرف من نبعها حقيقتها وتكتب على سجيتها في أسلوب عبر عن شخصيتها وانطلاق تفكيرها وفلسفة نظراتها للمجتمع والحياة .. (❖)

أما عن« موقف مي من الأديان ».. فلم يعرف عنها تهاون في أمور دينها أو زيغ في عقيدتها ، بل كانت متدينة كثيرة التدين وكانت نفسها ثابتة على الإيمان واليقين .

وأكد الأستاذ العقاد " إنها لم تكن مؤمنة بقلبها وعواطفها فقط كما يفعل كثير من الناس .. بل كانت متدينة بعقلها وتفكيرها ، ولم تنخدع بما قرأت من كتب الملحدين والهدامين ، وكثيرا ما قرأت كتبهم بتعرف مرامي كلامهم واتجاه حديثهم ، ولكنها لم تتأثر بواحد ، ولم تجد هذه النزعات الإلحادية طريقا إليها ، وكانت تناقش في الدين وتناظر في اللاهوت وكانت دائما عن صفوف الملحدين بمعزل ، وعن جانب اللادينيين بمنأى بعيد " .. لم تضطرب مبادىء مي أمام الآراء العقائدية والفلسفية والعلمانية في عصرها ، فكان الدكتور يعقوب صروف رائدا للثقافة العلمية، ورغم أنها كانت تعد الدكتور صروف معلمها الأول الذى كان يشجعها على الاطلاع والبحث والكتابة في مجلته ، لكنها لم تتأثر بآرائه التحررية في الدين ، بل واجهته وجادلته بشجاعة على صفحات مجلة " المقتطف" .

"إن هذه المرحلة من حياة ميّ وثقافتها التي كانت مفتحة النوافد على الشرق والغرب ، هى أشبه بعراك وقفت له وقفة قديس أمام الرب وفيلسوف

(❖) وداد السكاكينى : مرجع سابق، ص٤٧ وما فيها من مراجع .

مستمسك باليقين ، ومن السباقين إلى الآراء التحررية ، التى كانت تسمى في أيام ميّ إلحادا وعنادا أديب كبير هو "أمين الريحانى" الذى اتهمه الأب لويس شيخو بالكفر ، لأنه نشر في مقالاته أفكارا انطلاقية كانت كالشرر الذى يحمل النور ويثير الدخان .. كان الأب اليسوعى يتتبع الريحاني بنقده اللاذع واتهامه الصريح حتى تجنبه القوم لكن " ميا " وهي دون العشرين من عمرها ، اقتحمت السدود ، وزارت الريحاني في موطنه الفريكة " بلبنان " فما همها ولا روعها ما كان يقوله الأب شيخو ، وكان يرمى اليه ، فقد كانت حتى في تلك الأيام سيدة نفسها ، مستقلة في تفكيرها وفي منازعها ومرامى أدبها ، ما همها ولا روعها أن في " الريحانيات "(*) ألوانا من الأدب حمراء سياسية ودينية واجتماعية ، أو ليس فى الطبيعة كذلك ألوان حمراء..

أو ليست في الحياة سكاكين مشحوذة غير سكين الأب شيخو ؟ " وما خشيت ميّ على نفسها ولا على عقيدتها من الألوان الحمراء والسكاكين المشحوذة ".. وقد كتب الريحاني كثيرا عن أصالة فكرها وعصمة روحها وطهارة ضميرها وعقيدتها .. وعلى ذكر الريحاني الذي اتهمه شيخو بالكفر لحرية تفكيره ، فإن الدكتور شبلى شميل الذى عرف بمنازعه التحررية والإلحادية فيما يتناول من موضوعات سابقة في ثقافتنا الحديثة ، كان صديقا لمي وكان مفكرا ثائرا – على شيخوخته المتهدمة وفلسفته المنحرفة ـ وقد طلع في هبة الانبعاث العربي المعاصر بنظريات "داروين" في النشوء والارتقاء ، شارحا معنى التطور على طريقته ووجهته ، ناقلا للعربية هذه النظريات التي كانت جديدة إلحادية في زمنه ، وقد انتهى التفكير الثوري بالدكتور شميل إلى الكفر بالله والأديان

(*) نسبة إلي " أمين الريحاني " .

السـماوية، فكانت ميّ تحـاوره تارة بجـد وبرهـان وتارة بدعـابة وتهكم ، قـائلة لشيخها المعجب بنبوغها : " عجبت أن رأيتك كافرا بالله ، مؤمنا بداروين ".

فيضحك الطبيب الشيخ شبلى لحوارها الهازل وقولها له : إنه متعصب لإلحاده متشبث بعناده (❖).

" ولما توفى الدكتور شميل كتبت " ميّ " حوارا جعلت فيه " ابن سينا " بطل الفكرة وهى تعنى به صديقها العنيد الملحد ، فلما جاء في موضوعها ، أن ابن سينا سأله الملكان المحاسبان بعد وفاته :

- من ربك يا هذا ؟

فأجاب:

- ربما ما كان أن كان فهو قد كان ..

ولم يفهم الملكان هذا الجواب ، فعادا إلى ربهما يقولان :

- جاءنا رجل من الدنيا ، وسألناه عن ربه فقال :

- ربما ما كان أن كان هو قد كان .. وقد حيرنا هذا الكلام فلم نفهم منه شيئا"(❖❖).

وهؤلاء المفكرون الثلاثة " . يعقوب صروف ، أمين الريحاني ، الدكتور شلبى شميل " الذين حاورتهم ميّ وبادلتهم الحديث من قريب ومن بعيد كان تأثيرها فيهم أكثر من تأثيرهم فيها ، وقد عرفت غيرهم الكثير من المتحررين الناقمين على الدين فكانت تلبس لهم ولأمثالهم دروعا روحية تكافح فيها نيرانهم على نحو ما ابتدع في عصرنا من هذه الدروع الواقية وأدواتها التى نفثت ماء يطفىء الحريق ، و" ميّ " وإن لم تستطع إبادة اللهب ، فإنها حملت إلى المجتمع ما يقيه

(❖) وداد سكاكينى : مرجع سابق، ص ٣٣، ٣٤ ، وما فيه من مراجع .

(❖❖) المرجع السابق : بتصرف ، ص ٣٥ .

من المدمـرات الإلحـادية ، وشـاركت المصلحين في دفع الأذى عن المثل العليـا والتعـاليم السـماوية التى وجـد فيهـا كل مجتـمع مهـمـا يكن ، من غلو الزيغ في التحـرر ، راحـة نفسيـة وهداية. في دروب الضـلال (*)، المتضاربة التي اعتنقها المتطرفـون على غيـر هدى مـأخـوذين بدعـوى الثـورة لم تنبـهـر أديبتنا بالمذاهب المختلفة والتجديد.

ومع أنها كانت مسيحية محافظة على تعاليم دينها ، إلا أنه لم يضق صدرها بما رحب من الديانات الأخرى ، ولم تعرف التعصب الدينى ، فكان قلبها السمح وفكرها الرشيـد يحتـرم اليـهودية ويحتـرم كل شـريعـة تدعـو إلى الخيـر والسـلام والأمـان ، ففي خطبتها التي ألقتها في النادي الشرقى فـي القاهـرة ، ليلة الثالث والعشـرين من إبريل ١٩١٤، والـتي كـان مـوضـوعـهـا " المرأة والتمدن" .. تقول: ".. أول من عطف على المرأة وأسمعها كلمات الإشفاق والغفران هو يسوع الناصرى ، وهو أول من سـوى بينها وبين الرجل إذا جعل لهما خطة واحدة تفضى إلي ثواب واحـد وإلا فللضـالين عـقـاب واحـد ، على أن النصـرانيـة حـرمـتـهـا من وظائف الكهنوت وما برحت طائفة من اللاهوتيين تراها قارورة الخطايا والآثام .

ثم جـاء نبي الإسـلام ، فـرفع شـأنـهـا أى رفـعـة في بلاد الـعـرب ، إذ حـرم وأد الفـتـيـات (**) وسـواهـا بالرجل في جـمـيع الحـقـوق والواجـبـات ، إلا في الشـهـادة والميـراث – فإن امرأتين تساويان رجـلا – وفي مـاعـدا ذلك فهي والرجل سـواء في جميع الحقوق المدنية ، ويقول العارفون إن لها الحقوق السياسية أيضا ، وللمسلمات

(*) محمد عبد الغنى حسن : مرجع سابق، ص ٦٨

(**) الصحيح أن تقول البنات لأن الفتيات تعني الشابات .

أن يكن فقيهات منهن عائشة زوجة صاحب الشريعة الذى قال لقومه: " خذو نصف دينكم عن هذه الحميراء"(❖).

وفي خطبة لميّ في تكريم الأستاذين محمد الخضرى ومحمد المهدى في آخر يناير ١٩١٨ وقفت تشيد بالمسيحية والإسلام " .. إذا ذكر الإنجيل انحنت الرؤوس إجلالا وتجمهرت النفوس حبا حول السيد المسيح – أستاذ الرحمة والغفران ـ وكفي التلفظ باسم القرآن كى تهتز القلوب طربا على وفق الآيات والأسجاع مرتلة مع السور اسم النبى العربي .. " (❖❖).

هكذا نظرت نظرة سمحة إلى الأديان والشرائع السماوية ، ولقد أنصفت الإسلام حين تحدثت عن الديمقراطية ، في كتابها . " المساواة " .. وتميزت أديبتنا بالكياسة في تناولها موضوعا يتعلق بالأديان ، فكان يقرأ ما تكتبه أصحاب المذاهب والديانات المختلفة فيشعرون بالرضا لما تكتب ، لأن تناولها لأى موضوع تتعرض فيه للدين يقوم على احترام العقيدة .

لقد كانت – كما قال الكاتب سلامة موسى في مقدمة كتابها " بين الجزر والمد " – تساير الشباب في تشوفه إلي صوفية طليقة من القيود المذهبية والفروق الدينية ، التي كثيرا ما مزقت الوحدة والرابطة القومية ، وطالما تمنت ميّ أن يهدأ يوما تأثير العواطف المتطرفة ، وتتوازن قوى الإنصاف ، فيرتفع المرء بإدراكه إلى أفق يشرف منه على جميع النزعات الإنسانية ، وتنعى على الناس أن يسموا ما عند غيرهم تعصبا ويسمو ما عندهم غيرة ونخوة وحمية ، والحق أنه تعصب في الحالين، ومماثلة عند الطرفين، ولكن الناس يغالط بعضهم بعضا،

(❖) المؤلفات الكاملة : جـ ٢ ، ص ٣١ ، ٣٢ .
(❖❖) المرجع السابق : ص ٦٥ .

وتنتظر اليوم الذى ينسى الناس فيه اختلافات المذاهب ، وتتساءل متى يقولون مع الشاعر " خليل مطران":

هذي المذاهب كلها دين الهدى كأشعة الشمس افترقن على مدى

والملتقى فى مصدر الأنوار

وبمرور الأعوام ، ازدادت ميّ تعلقا بالذات المطلقة في الوجود ، وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على فلسفتها التي صارت إلى التصوف ، فلم يستهوها وهى فى شبابها الحب والغزل ، ولا شغلها البحث والاطلاع عن بصيرتها المتبتلة ، لقد كانت راهبة فى غير رهبانية ، متكتمة عاشت مع الناس كما عاشوا ، فلم تمارس اللهو أبدا وظل الشعور الدينى يظلل ميا كما تظلل الخمائل فى الهجير المتعب العطشان ، وكانت فى محنتها - أو محنة حياتها - شمعة تحترق دون أن يشعر بها أحد .

الفصل الثانى

مى وأقطاب عصرها .. من الربيع إلى الخريف

- الصالون
- عاشقة ومعشوقة
- المحنة

الصالون

لعبت الصالونات الأدبية دورا هاما فى نشر الثقافة ، وإلقاء الضوء على إنتاج الأدباء والمفكرين ، والتعريف بالآداب المختلفة ، ودفع الأدباء المغمورين إلى عالم الشهرة والنجاح .

وكلمة صالون لاتينية الأصل ، وتعنى المكان الذى يستقبل فيه الأهل زوارهم بعامة وبتعريب هذه الكلمة ، تعنى ندوة أو منتدى .. والحقيقة أن هذا المعنى المعرب لا يؤدى المعنى بدقة، لأن محتوى اللفظين يرجع إلى أمد بعيد ، فالشعراء قديما كانوا يتزاحمون عند الخلفاء لإنشاد قصائدهم أو يجتمعون لمناقشة قصيدة أو تقييمها ويسمى مكان اجتماعهم (منتدى) وقد كانت هذه المنتديات وقفا على الرجال .. وقد عرفت أوروبا- بصفة عامة - وفرنسا -بصفة خاصة - هذه الصالونات فى القرن السابع عشر ، وانتشرت وحققت شهرة عالمية فى القرن الثامن عشر .

وقد عرف العرب الصالونات الأدبية والندوات النسائية منذ عهود قديمة، فقد اشتهر فى الجاهلية الخطباء والخطيبات والشعراء والشاعرات، ومنهن على سبيل المثال «هند بنت الخس» «وهى الزرقاء»، و«جمعة بنت حابس»، واشتهرت فى الجاهلية نساء من المحكمات والناقدات للشعر، يجلسن بين الرجال فى مجالس، ويسمعن القصيد، ويحكمن لشاعر على آخر.. ومنهن «أم جندب» «زوجة امرئ القيس»، التى حكمت بين امرئ

القيس وعلقمة الفحل ، وكان حكمها لعلقمة على زوجها ،فطلقها امرؤ القيس بسبب هذا.. وليست أندية النساء بدعة فى التاريخ الإسلامى .. ففى العصر الإسلامى كانت السيدة عائشة رضى الله عنها زوج النبى (ص) تحفظ شعر لبيد وتتمثل به فى المجالس وتتكلم فى مسائل الفقه.

وفى مكة ظهرت امرأة جزلة اسمها «خرقاء » وكان عندها سماطان من الأعراب تحدثهم وتناشدهم بلا ريب ولا سوء ظن .

وكانت كذلك « عمرة » امرأة أبى دهبل الشاعر جزلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر.. ولقد عرفها زوجها –قبل الزواج – فى أحد المجالس فتزوجها .. وعرف العرب كذلك ندوة السيدة سكينة بنت الحسين بن على فى العصر الأموى بالمدينة المنورة ، وتفيض كتب الأدب والتاريخ بذكر هذه الندوة وقدترجم لها «ابن خلكان » صاحب وفيات الأعيان .. وذكر طرفا من نوادرها ، وأخبارها فى مجالسها ومواقفها من الشعراء والأدباء ، وكانت تعرف كيف تأسر قلوب الرجال فى أدب ظاهر وعفة باطنة ، ولم يتعرض جمالها وملاحتها ومكانتها للقيل والقال ، وما عرف عنها ريبة فى حياتها.. بل وصفها المؤرخون بأنها كانت أفضل نساء عصرها.. وعرف العرب كذلك منتدى « ولادة بنت المستكفى » فى قرطبة فى زمن العباسيين فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وعن طريق منتداها الأدبى نشأت علاقة الحب الشهيرة بين ولادة وأبى الوليد بن زيدون الشاعر الأندلسى الشهير ،الذى نظم فيها نونيته المشهورة التى مطلعها:

أضحى التنائى بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

كذلك عرف العرب صالون « حفصة الركونية » فى غرناطة فى القرن الثاني

عشر الميلادى ، هؤلاء النساء المتحدثات إلى الرجال وكثيرات غيرهن تحفل بذكرهن كتب التاريخ والأدب ولم تتطرق مجالسهن إلى ريب أو شكوك أو تصل إليها الوساوس ، لأن الاجتماع فيها كان جماعيا ،للمحادثة والمذاكرة والمناظرة.. وفى العصرالحديث،عرفت مصر في العقد الأخير من القرن الماضى صالون الأميرة (نازلى فاضل) وهى بنت الأمير مصطفى فاضل وكان وليا للعهد حين كان أخوه اسماعيل الخديوى ، ولكنه اختلف مع اسماعيل ، فهاجر الأستانة ، وكان الأمير مصطفى محبا للثقافة والأدب ،وفى قصر الأميرة « نازلى » عقد أول صالون عربى ، وكان من رواده الشيخ محمد عبده والزعيم سعد زغلول وقاسم أمين وعلى يوسف وأحمد لطفى السيد وآخرون من المهتمين بقضايا الاصلاح الاجتماعى والتطورالسياسى ، وقد اتسم ذاك المنتدى بسمات النخبة والطليعة ، إن المشابهة بين صالون الأميرة نازلى فاضل وصالون مى زيادة ، تكاد تكون تامة من حيث الشكل ، أى من حيث ما يدور فى الصالونات من مناقشات ومناظرات ومكانة المجتمعين ، ومن حيث ترفع الأحاديث عن الابتذال وارتفاعها عن الصغائر ، إلا أن صالون مىّ يختلف فى ناحية واحدة وهى التعرض للسياسة ، فالمناقشات فى صالون الأميرة نازلى كانت دائمة وثابتة فى السياسة ومايدور على الساحة السياسية ، أما صالون مىّ فالتطرق لناحية السياسة قليل وطارئ .

وفى عام ١٩٠٥ عرفت مصر ندوة « لبيبة هاشم » صاحبة مجلة «الفتاة » وكان من روادها الشيخ على يوسف وأحمد لطفى السيد وغيرهما، وفى الوقت ذاته تقريبا شهدت حلب مولد صالون فى دار امرأة تنتمى إلى أسرة اشتهرت بالثقافة وحب الأدب والعلم هى « مريانا مراش» (١٨٤٩-١٩١٩) وكانت مريانا

أول أديبة فى سوريا برزت فى مجال الأدب والصحافة ، وكان صالونها ملتقى النبهاء من عشاق الأدب وصفوة المؤرخين والمفكرين ، ولكن الصالون أقفر لنزوح الغالبية من رواده إلى مصر ، واتخاذها وطنا وذلك هروبا من الاستبداد والظلم فى العهد العثمانى وبحثا عن الحرية والتسامح التى كانت تنعم بهما مصر .

وفى دمشق أقامت « مارى عجمى » –وكانت فى عصر مى – مجلسا أدبيا فى دارها ، وكانت شاعرة جيدة مجددة ، تمرست بالصحافة والتدريس ، ولكن مجلسها لم يتسع إلا لأندادها من الرجال ، ولم يبق طويلا فإن أديبة الشام، أدركتها الكهولة فانفض من حولها الأصدقاء.

والحقيقة التى تبدو واضحة ، أنه لا يستطيع الباحث المحقق فى مظاهر الحركات الفكرية والأدبية أن يطوى أخبارا وأسبابا ، ويحصر عدد الصالونات والمنتديات الأدبية فى مختلف العهود.. وذلك يرجع لأكثر من سبب، فالمنتدى الفكرى كان ينفض بموت صاحبه أو صاحبته أو بالشيخوخة ، فينصرف عن الصالون رواده، أو هجرة المترددين على المنتدى إلى بلد آخر غيرالتى بها المنتدى، ومن الجلى أيضا أن تأثير تلك المنتديات على الحياة الفكرية كان تأثيرا محدودا، ربما لأن رواد المنتديات والصالونات كانوا من فئة معينة ، وهى صفوة المفكرين والعلماء والأدباء ،وهذا يجعل الصالون ينعزل برواده عن الحياة الإجتماعية .. كذلك إن كتب الأدب والتاريخ تشير إلى المنتديات ، لكن بصورة عارضة وموجزة .

إن ظاهرة المنتديات والصالونات الفكرية فى أدبنا العربى القديم منه والحديث ظاهرة جديرة بالدراسة والاهتمام ، والمكتبة العربية تعانى فقرا فى المؤلفات التى تتعرض لها وكانت بداية انعقاد صالون مى عام ١٩١٣، ففى

١٩١٣/٤/٢٤ وقفت مى خطيبة لأول مرة فى بهو الجامعة المصرية، لإلقاءكلمة جبران خليل جبران نيابة عنه اشتراكا فى تكريم الشاعر خليل مطران، بمناسبة الإنعام عليه بوسام رفيع، وبعد أن ألقت الخطبة على جمهور الحاضرين، أعقبتها بكلمة لتحيةالمحتفل وفى نهاية الكلمة وجهت الدعوة لعقد صالون أدبى فى بيتها ، فلقيت من الحاضرين يومها تشجيعا عظيما وبعدذلك ابتدأ يجتمع فى بيتها، «صالون أدبى» كل يوم ثلاثاء من كل أسبوع، ومكث أعواما تحت رئاسة المرحوم الشاعر اسماعيل صبرى .. وكان الصالون فى بادئ انعقاده عام ١٩١٣ يعقد بمسكنها فى شارع عدلى بوسط القاهرة – مكان محطة البنزين الحالية – وكان يحمل اسم «شارع المغربى» ثم انتقل عام ١٩٢١ إلى إحدى عمارات جريدة "الأهرام" واستمر حتى نهاية الثلاثينيات، وفى صالونها استقطبت المفكرين والكتاب والشعراء، ونوعيات مختلفة من علية القوم والأثرياء والأدباء المعدومين كذلك، وكان صالونها رحبا فسيحا، اختارت أثاثه بنفسها، وعلقت فى صدر صالونها أبيات الإمام الشافعى:

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى

وعيشك موفور ،وعرضك صينُ

لسانك لا تذكر به عورة امرىء

فكلك عورات وللناس ألسنُ

وعينك إن أبدت إليك معايبا

فصنها وقل ياعين للناس أعينُ

وعاشر بمعروف، وسامح من اعتدى

وفارق ، ولكن بالتى هى أحسنُ

وكانت فى صالونها تقدم شراب الورد أو القهوة على الطريقة الشرقية، وكانت تجلس فى صدر صالونها الرحب ترحب بضيوفها وحولها حشد من رواد ندوتها منهم: إسماعيل صبرى، منصورفهمى ،ولى الدين يكن، أحمد لطفى السيد، أحمد زكى، رشيد رضا، محيى الدين رضا، مصطفى عبد الرازق، الأمير مصطفى الشهابى ، الفريق أمين المعلوف، الدكتور يعقوب صروف، الدكتور شبلى شميل، سلامة موسى، إسماعيل مظهر، محمد حسين المرصفى، أحمدشوقى، خليل مطران، إبراهيم المازنى، عباس محمود العقاد، أنطون الجميل، مصطفى صادق الرافعى، طه حسين، داوود بركات، زكى مبارك، عبد الرحمن شكرى.

ولا عجب فى أن يكون منتدى مى ظاهرة كبيرة فى أدبنا العربى الحديث، فرواد التجديد والتحديث كانوا من رواد صالونها ومن أصدقائها، فلم يقيض لأديبة فى ندوتها كماقيض لمى من نجاح، وفى رأيى أن هناك مجموعة من الأسباب أدت إلى نجاح هذا الصالون على رأس هذه الأسباب، الخصائص الذاتية لشخصية «مى زيادة» فإخلاصها وشبابها وتألق نبوغها وسحرحديثها، أروى ظمأ رواد صالونها إلى السعادة الروحية فأثرت فى أدباء عصرها من الناحيتين الإنسانية والفنية، فكانت تشارك فى كل حديث، وتختصر للمجلس سعادة العمر فى لفتة أو لمحة أو ابتسامة، فرواد صالونها كان لا يفوتهم الثلاثاء من كل أسبوع، فإذا تعذر حضور الأديب منهم، واضطر للغياب كان كظامئ الطير حواما على الماء على حد تعبير الشاعر إسماعيل صبرى، الذى اضطر للغياب عن الصالون لعذر طارىء فكتب معتذرا عن الغياب قائلا..

روحى على بعض دور الحى حائمة

كظامىء الطير حواما على الماء

إن لم أمتع بمىّ ناظرى غدا

أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

يقول الأستاذ العقادفى مقال له عن « مىّ » ..«كان ما تتحدث به مى ممتعا كالذى تكتب بعد روية وتحضير ، فقد وهبت ملكة الحديث فى طلاوة ورشاقة وجلاء ، ووهبت ما هو أول على القدرة من ملكة الحديث وهى ملكة التوجيه وإدارة الحديث بين مجلس المختلفين فى الرأى والمزاج والثقافة والمقال ، فإذا دار الحديث بينهم جعلته مىّ على سنة المساواة والكرامة وأفسحت المجال للرأى القائل الذى ينقضه أو يهدمه وانتظم هذابرفق ومودة ولباقة ولم يشعر أحد بتوجيه الكلام منها، وكأنها تتوجه من غير موجه ، وتنتقل بغير ناقل وتلك غاية البراعة فى هذا المقام ..» (❖)

إن المواقف الكثيرة التى شهدها الأستاذ العقاد من مى جعلته يؤكد رأيه السابق .. بذكرأحد المواقف التى عاصرها « .. ليس أدل على براعة مىّ من إدارتها الحديث فى مجلس حضره نحو ثلاثين كاتبا وأديبا ووزيرا ، للتشاور فى الاحتفال بالعيدالخمسين للمقتطف ، وكان اجتماع هذا المجلس عندها إبان المنازعات السياسية التى وصلت بكثير من الكتاب والأدباء إلى حد التقاطع والعداء.. وكان منهم من حضر هذا المجلس وهم متشيعون إلى شتى الأحزاب، منتمون إلى مختلف الهيئات، فقضينا عندها ساعتين نسينا فيها أن البلد فى اضطراب، أو منازعات سياسية بفضل براعتها فى التوفيق بين الآراء والأمزجة وقدرتها على توجيه الحديث إلى أبعد موضوعات الخلاف والملاحاة.. وما أحسب

(❖) وداد سكاكينى : كتابها السابق الذكر ، ص ١٢٩ .

أن أحدا غير «مى» قد استطاع هذا الذى استطاعته فى تلك الأيام، حتى أذكر أننى قلت لها وأنا أودعها تلك الليلة: لقد كنت يا آنسة فى هذا المساء تحملين معزف أورفيوس..» (❖)

ويصف إبراهيم عبدالقادر المازنى زيارته لصالونها قائلا: " أعرف أنى دخلت متهيبا، مستحييا، ووقفت على الباب مترددا، تهيبت لقاءها واستحييت أن أجد نفسى بين زوارها الذين قيل إنهم من كل طبقة ، وترددت لأنى لم أعتد هذه المجالس، ولأنى أعرف من نفسى شدة النفوز من هذه الطبقات التى تعد نفسها عالية أو متعالية أو لا أدرى ماذا أيضا على أن دخلت بسلام.. فاستقبلتنى هاشة باشة، شاكرة، فتعجبت ولا أظن أنى نطقت بحروف وقعدت حيث أومأت، وكان هناك الأساتذة لطفى السيد، وخليل مطران، ومصطفى عبدالرازق، والسيد رشيد رضا، وابن أخيه محى الدين رضا والعقاد، وآخرون كثيرون، امتلأت بهم حجرات الدار، وكانت المرحومة أمها تساعدها على الترحيب بالضيوف وإكرامهم" .

ولا أذكر أنه دار بينى وبينها حديث . وكانت كلما مرت بى تلقى كلمة تحية، أو تكتفى بالابتسام، وأنا كالأخرس لا أنبس بنبت شفتة !.. إلى أن يقول : وإذا بهذا الجمع الحاشد يخرج من الحجرات إلى الردهة الفسيحة وإذا بمى تقف لتخطب ، فارتعت ووجمت فما أكره شيئا كراهتى للخطب..وقالت شيئا سمعت منه اسم ماكس نورده ، فانطلق لطفى السيد يصفق، فتعجبت لهذا الرجل، ولما

(❖) وديع فلسطين: مىّ فى حياتها وصالونها وأدبها، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ، بيروت،١٩٨٣ ، ص ٢٦ .

عددته يومئذ إسرافا فى التلطف والمجاملة ، ولم أصغ لشىء مما قالت.. ورأيت كثيرين ينهضون شاكرين ممتنين.. وصار هذا يدعو ذاك لإلقاء كلمة.. فخفت، وزادنى رعبا أن السيد محيى الدين رضا همس فى أذنى أنه سيدعونى إلى الكلام فقلت: والله لئن فعل لأقولن ما يسوء.. فما أنا من رجال «الصالونات» واتفق فى هذه اللحظة أن مرت بى الآنسة مى، فحاولت أن أنهض لها ، فنهتنى عن ذلك، وعرفتنى أنه غير لازم ، فوجدت لسانى ، وقلت لها معتذرا عن جهلى:

– إنى من عامة أبناء الشعب ،ولست من رواد الصالونات ، فأرجوأن تتجاوزى عن أغلاطى .

فقالت بابتسامة وديعة :

– لا تقل هذا الكلام .

قلت ..

–ألا تحبين أن تعرفينى على حقيقتى ؟

قالت : طبعا .

قلت : ثقى إذن أنى من أبناء الشعب ، ولا أستطيع ، ولا أحب أن أرتقى هذه المنزلة!

فتبسمت وهزت رأسها.. (❖)

لقد عظمت مكانة مى فى الأفئدة ، وكانت حريصة على تلك المكانة وعلى مجدها الأدبى ، فحرصت على مضاعفة جهودها فى القراءة والتأليف، وكانت ثقة المعجبين بها تزيد من طموحها ونبوغها، فقدمت التضحيات الكثيرة.. وربما

(❖) المرجع السابق : ص ٢٢، ٢٣، ٢٤.

كانت لاتشعر بحجم هذه التضحيات .. من نشوة النجاح ، لقد أخذت نفسها بالجد، فكانت لا تلهو مع اللاهيات من جيلها ، ولا تنفق وقتها هباء فيما لا يفيد ،ولم تفكر فى الزواج رغم عشرات المتيمين والمعجبين ، لقد كان كل تفكيرها محوره المجد الأدبى والمكانة العظيمة ،وبشخصيتها الجذابة، استطاعت أن تكون ألفة روحية بين المترددين على صالونها، وكانت هى نفسها أعظم لتسامى الإنسان بأفكاره ومشاعره، فكان حديثها تشع منه روح التسامح والود والتهذيب الرفيع والفكر العميق والنكهة المهذبة اللبقة. «فلو جمعت الأحاديث التى دارت فى ندوتها لتألفت منهامكتبة عصرية تقابل مكتبة العقد الفريد ومكتبة الأغانى فى الثقافتين الأندلسية والعباسية».

وكانت المرأة العربية وقتذاك لم تنل الكثير من حقوقها الاجتماعية ، التى أقلها التعليم ، وعندما رأى الرواد من المفكرين الأديبة النابغة «مى زيادة» بشخصيتها الفريدة ازداد إيمانهم بضرورة إعداد الفتاة فى بيتها ومدرستها، لأنه تقع على عاتق المرأة مسئوليات جسام فهى زوجة وأم وأخت.. ، وكان من أنصار تعليم المرأة وتشجيعها على التعليم والقراءة والتأليف الأستاذ أحمد لطفى السيد والدكتور طه حسين، وإليهما يرجع الفضل فى تشجيع الكثير من الأديبات فيما بعد عصر مى .

وكان المترددون على ندوتها يتحدثون فى شتى المواضيع الفكرية والأدبية ، ويتكلمون بالعربية أو بغيرها من اللغات الأجنبية ، أما مى فكان حديثها دائما باللغة العربية الفصحى .

أما عن الطابع العام لندوتها فهوالطابع الأدبى الذى لم يتغير ، ولم يزاحمه

شعار آخر، ولئن تجافت صاحبته عن السياسة الحزبية والأجنبية، فما كان لها أن تغفل عما يدور فى الخواطر من جراء هذه السياسةمن النواحى القومية والعالمية ، فتقرأ كبريات الصحف التى تعنى بهذا الشأن وتستفتيها بعض المجلات الأدبية فى نهضة الأقطار العربية وتطور النهضة وأسبابها، فلا يفارقها الشعورالوطنى الأصيل والرأى السديد فى الخطاب والجواب، وتغلو فى اعتدالها نقمة على الاستعمار وسياسته فتتحدث وتكتب فى الموضوعات التى تجدها أجدى على الوطن فى البناء والنضال، ولم تكن تريد للمرأة العربية أن تخوض فى السياسة وهى فى خطواتها الأولى للتحرر مماعاق نهضتها وتعليمها.

وإذا كانت «مى» فى ندوتها وأحاديثها تباعد بينها وبين التيارات الحزبية والتعصبية، فما استطاعت أن تدير لها ظهرها والمجتمع يعانى من همومه، وإذا مرت بحديث طارىء أو عابر عرفت بلباقتها كيف تتناول الموضوع أو تنهيه ، ولم يحضر ندوتها زائر من السلك الدبلوماسى ، إلا كان الأدب وسيلته اليها يتذوقه أو يمارسه ، ولم يكن يصد عنها من أوتى الموهبة والثقافة ولم يبلغ مكانة الكبار فى أقدارهم وأعمارهم .. فقد حدثنا الدكتور طه حسين فى بعض ذكرياته أنه لم يتصل بندوة « مى » إلا بعد أن نوقشت رسالته الجامعية فى (أبى العلاء المعرى) للدكتوراة فى الأدب ، وحضرت مى نفسها هذا النقاش ، ثم شهدت بعض الحفلات التكريمية التى أقيمت له وكان الواسطة إلى ندوتها أستاذها وأستاذه أحمد لطفى السيد (❖). تقول الأديبة « إيميه خير» عن صالون مى زيادة (فى حديث نشرته مجلة اذاعة لبنان- تموز ١٩٧٢): « كان أبرز أهداف صالونها ، البحث عن إنشاء جديد يقرب بين طرفى اللغة الفصحى

(❖) وداد سكاكينى : مرجع سابق ، ص ١١٧، ١١٨.

التقليدية واللغة العامية، والتقريب بين الفكر الشرقى والغربى بواسطة تعريب الروائع الأوروبية .. وفى أيام الثلاثاء كان يزدحم الصالون ، فتناقش الكتب الجديدة والقصائد الحديثة والحملات الصحفية وكان أنطون الجميل أفوه خطباءالشباب يحلل قضايا الساعة .. وتندمج مى فى شتى الأحاديث بما توحيه روحها الوثابة من الأفكار المبتكرة.. فتصفق لها وتمدحها تلك الجوقة ومنها أولئك الذين حملوا لمصر صولجان الأدب ، فأبصرت مى بهؤلاءالرجال الذين كرموها أملا كبيرا لمستقبل المرأة الشرقية المضمون فى حياتها الاجتماعية ومؤازرتها للرجل ، وتشجيعا منها لهذا الأمل كتبت سيرة "باحثة البادية" وبعد وقت طويل «سيرة عائشة التيمورية» كأنما شاءت أن تقول لهاتين الرائدتين أن فتيات الجيل الجديد سيسرن على خطى الأمهات » .

يقول أحد الباحثين وهو الدكتور مترى بولص: (❖) « .. لم يكن صالون مى وقفا على فئة من المؤلفين المنتمين إلى طبقة أو اتجاه دون فئة أخرى ، إلا أنه فى منحاه الاجتماعى كان وقفاً على الفئة الفنية .. والأدب تحول فى صالون مى إلى تيار فكرى بعيد عن التيارات الاجتماعية والسياسية التى كان يضطرب بها المجتمع المصرى ، وبذلك نأت مى بالأدب عن الالتزام الاجتماعى الواقعى ، وحصرته فى برج عاجى تطل منه على الناس ، إن صالون مى فى جانب من جوانبه الإيجابية لدليل على رقى الفكر وسمو الثقافة ،إلا أنه من ناحيته السلبية سمة من سمات نزعتها الفردية، وأرستقراطيتها الفكرية.. وهذا ما جعل صالونها بعيد الأصول عن الشعب منقطع الصلة بالعاديين من الناس ".

(❖) مجلة " آفاق عربية " : بغداد، ع٢، شباط ١٩٨٦، ص ٨٨ .

وإنى أختلف مع الدكتور بولص فى بعض الأحكام، ما دام صالون مى لم يكن وقفا على فئة من المؤلفين المنتمين إلى طبقة معينة ، أو اتجاه معين ،فهو يضم إذن فئات من مختلف الفئات فمنحاه الطبقات والاتجاهات ، وهذا يناقض ما يقوله الدكتور فى أن هذا الصالون منحاه الاجتماعى كان وقفا على الفئة الغنية؟ فما دام رواد الصالون من مختلف الاجتماعى ، ليس وقفا على فئة معينة – وهى الفئة الغنية التى يشير إليها الدكتور .

أما كون صالونها قد كون تيارا فكريا بعيدا عن التيارات الاجتماعية والسياسية، فمن البديهى أن التيارات الاجتماعية والسياسية فى أى مجتمع لها تأثيرها الواضح والمباشر وغير المباشر على التيارات الفكرية التى ليست فى معزل عن هموم المجتمع والسياسة.. كما أن صالون مى سمته الأساسية أنه أدبى فكرى ، ولم يكن اجتماعيا أو سياسيا .

وإذا كان الصالون سمة من سمات نزعة من الفردية وأرستقراطيتها الفكرية، فإنه سمة من سمات تميزها وتفردها، فكان صالونها أشبه بخلية نحل أدبية، فكانت بارعة فى توجيه الحديث لكل زائر، وإفساح المجال أمامه ليدلى برأيه ويقول كلمته ، فلايشعرأحد بالاغتراب فى مجلسها.

ومى لم تكن أرستقراطية وليس أدل على ذلك من أن صالونها ضم مختلف الفئات من الأدباء والمفكرين.. كذلك موقفها الشهير من المازنى حين ذهب لصالونها للمرة الأولى ، وعلى حين غرة وهو جالس مرت من أمامه فنهض احتراما وتقديرا لها فنهته عن هذا! .

يقول الدكتور طه حسين: « كان صالونها ديمقراطيا أو قل كان مفتوحا لا يرد عنه، الذين لم يبلغوا المقام الممتاز فى الحياة المصرية ، وربما كانوا يدعون إليه ، وربما كانوا يستدرجون إليه استدراجا فيلقون الناس ويتعرفون إلى أصحاب المنزلة الممتازة ، ويكون لهذا أثره فى تثقيفهم وتنميةعقولهم وترقيق أذواقهم، وأنا أذكر أنى اتصلت بصالون مى على هذا النحو بعد أن نوقشت رسالتى فى « أبى العلاء » وشهدت مى هذه المناقشة ، وشهدت فيما يظهر بعض الحفلات التى أقامها لى الزملاء حينئذ، وطلبت إلى أستاذها وأستاذى لطفى السيد أن يظهرنى فى صالونها ، وكذلك عرفتها في هذا الصالون .. كان الذين يختلفون إلى هذا الصالون متفاوتين تفاوتا شديدا فكان منهم المصريون على تفاوت طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية وعلى تفاوت أسنانهم أيضا، وكان منهم السوريون وكان منهم الأوروبيون على اختلاف شعوبهم وكان منهم الرجال والنساء ، وكانوا يتحدثون فى كل شئ ويتحدثون بلغات مختلفة وبالعربية والفرنسية والإنجليزية خاصة..» (❖).

وإذا كان صحيحا ماذهب إليه الدكتور بولص من أن أديبتنا نأت بالأدب عن الالتزام الاجتماعى الواقعى .. فإننا لا يجب علينا أن نخبر الأديب بالالتزام الاجتماعى ونضع لإبداعاته الحدود والقواعد .. فليس كل أدب الالتزام ناجحا فنيا .. فكم من أدب ملتزم عديم القيمة الفنية .!

وها هو أمير الشعراء أحمد شوقى يترجم انطباعاته عن مى وصالونها بقصيدة يقول فيها :

(❖) محمد عبد الغنى حسن: مرجع سابق، ص ١٧٩ .

أسائل خاطرى عما سبانى أحسن الخلق أم حسن البيان ؟
رأيت تنافس الحسنين فيها كأنهما لمية عاشقان
إذا نطقت صبا عقلى إليها وإن بسمت إلىّ صبا جنانى
وما أدرى أتبسم عن حنين إلىّ بقلبها أم عن حنان
أم ان شبابها راث لشيبى وما أوهى زمانى من كيانى

وقد زار صالون « مى » اثنان من أفضل المفكرين الأمريكيين ، الأول هنرى جايمس القصصى الأمريكى وشقيق وليم جايمس العالم النفسى المشهور ، والثانى ابن الشاعر الأمريكى ، وكانت مى معهما مثالا للمرأة الشرقية المثقفة، فخرج الأديبان الكبيران من ندوتها معجبين بها وبعقليتها المتفتحة .

وجاء عام ١٩١٩ يحمل فى طياته الأحزان لمى، فقد توفى والدها « إلياس زيادة » صاحب ومحرر جريدة " المحروسة "، رحل وقد كان سندا قويا لابنته ، فى ارتياد الحياة الغريبة ، فقد كان يشجعها ويشحذ من أزرها فى مواجهة المجتمع والسير فى دروبه.. بينما كانت أمها تحدثها عن ترك هذا اللون من الحياة وتنصحها بأن تسارع بالزواج، لكن مى لم تلتفت إلى نصيحة أمها، وماذا تريد مى من الحياة غير أن تقرأ وتكتب وتحضر الندوات وتقابل الأدباء والمفكرين، فهذه الحياة استهوتها فانشغلت بها .. أما الآن وبعد أن توفى والدها وسندها ماذا تفعل ؟!.

ورغم أن الصدمة كانت كبيرة لها، غير أن الأيدى التى امتدت لمساعدتها خففت من وطأة الصدمة .. فبمآزرة السوريين الذين فى مصر ، وكانوا يتعاضدون فيما بينهم تولت تحرير « جريدة المحروسة » وقدمت الأهرام» لها كل

ما تحتاجه من عون ، فأمدتها الأهرام عام ١٩١٨ م بمكان مناسب فى شارع مظلوم ، وهى العمارة التى شغلتها بعد ذلك أقسام جريدة « الأهرام » لتقيم فيه وتدير ندوتها ، وبدأت مى تكتب فى «الأهرام» منذ عام ١٩٢٢ ثم فى مجلة «الزهور» لصاحبيها أمين تقى الدين وأنطون الجميل ، وكان داوود بركات رئيس تحرير « الأهرام » وقتذاك متيما بمى على تقدم سنه ، وقيل إنه هو الذى أردف اسم مى بلقب النابغة ، كذلك قيل أن تقديم المكان - لمى وصالونها - كان لغرض تجارى بحت القصد منه هو نقل اهتمامات مى بعد وفاة والدها من جريدته «المحروسة» الى صفحات «الأهرام » ، وبالفعل انتهى الأمر إلى إغلاق «المحروسة» وكتابة مى فى الأهرام.

لقد استمر صالون " مىّ " قرابة خمسة وعشرين عاما ، وهى أطول فترة عرفها صالون أدبى فى الشرق أو فى الغرب ، وإن افتقار صالونها إلى غاية، أو منهج يسير عليه هو الذى جعل هذا الصالون يفتقر إلى خصائص البقاء والاستمرار ، فقد اعتمدت صاحبته على جمالها ودلالها وعقلها وأنوثتها، فى مد صالونها بالحياة والنماء ، فلما تقدمت بها السن ولم يبق من الأمس إلا طيفه ومن الأنوثة إلا بقاياها ومن المجد إلا صداه ، بالإضافة إلى أن الموت اختطف بعضا من رواد صالونها وانفض الآخرون عنها.. كل هذا كان له تأثيركبير فى نهاية هذا الصالون .

وفى آخر أيامها انهارت انهيارا سيطر على أعصابها وحاصرتها العديد من الأمراض النفسية ، ورغم كل هذا لم تفقد « مى » توجهها الفكرى ، لم تنطفىء الشعلة المتقدة إلا بالفناء .. وبينما صالونها يغلق أبوابه تعرضت الحياة الاجتماعية فى مصر لرجات عنيفة وتغيرات عميقة.

فخرجت المرأة إلى مجال التعليم والعمل فى أعداد كبيرة ، وملأت الفتيات المدارس والجامعات ، ولم تعد المرأة شيئا نادرا يجهد الإنسان وراءه ليراه أو يحاوره ، ولم تعد الأبنية فى معمارها الضيق والمدينة على امتدادها المترامى ، تشجع على مثل تلك الصالونات ، فحلت مكانها المنتديات فى دور الصحف وفى المقاهى ، وعرفت القاهرة فى الأربعينيات والحقبة التى تلتها قهوة الحلمية الجديدة وقهوة القزاز فى باب الخلق والفيشاوى فى حى الحسين ومقاهى أخرى.. وفى الوقت نفسه حاولت بعض المتأدبات فى مصر وسوريا إقامة مثل هذه الصالونات ، ونسين أن الزمن غير الزمن ، وأن الناس غير الناس ، فجاءت محاولتهن تقليدا شائها ، يفتقد الأصالة والفعالية وانتهت كلها إلى اللاشىء (*).

بقيت نقطة مهمة يجب أن نشير إليها ، ونحن نتعرض لصالون مى ، هذه النقطة تتبلور فى سؤال واحد: هل كان لمى وصالونها دور فى المعارك الفكرية فى ذاك الوقت؟

الإجابة : نعم .. لقد شهدت مصر فى العشرينيات والثلاثينيات معارك فكرية عديدة .. ولم تكن مىّ فى عزلة عن تلك المعارك الفكرية ، وكان بمقدورها أن تؤثر فى الكثير من الأحداث بتدخلها ، لكنها كانت لا تتدخل تدخلا مباشرا .. وقد ذكر الأستاذ العقاد فى أحاديث كثيرة على صفحات الصحف والمجلات أنه اشترك فى العديد من المعارك السياسية، وذكر أنه كان يقسو فى حملته على عبد الخالق ثروت باشا انتظارا لهاتف من مى تنصحه فيه بالتقية والتخفيف، وروى العقاد فى حديث له مع كامل الشناوى أن « مى » كانت تشفق من عنف حملاته على الحكومة ، وتخشى أن تجره تلك الحملات إلى السجن، وكثيرا ما رجته فى أسلوب رحيم أن يخفف من غلوائه حتى لا يلقى به إلى غياهب السجن، وقال إنه قد حدثت

(*) د . الطاهر أحمد مكى : الصالونات الأدبية فى الشرق والغرب، مجلة الدوحة ، قطر، ع١٠٣، ١٩٨٤، ص ٤٥ .

بينهما فى يوم من الأيام جفوة ، وأصر العقاد على ألا يتصل بها، ولكنه شعر بحنين إليها، فلم يفكر فى زيارتها أو كتابة رسالة إليها، وإنما حرر مقالا عنيفا هاجم فيه رئيس الوزراء اسماعيل صدقى، وفى اليوم التالى جاءت إلى جريدة «البلاغ» وقابلت المرحوم عبد القادر حمزه ، وقالت له : ألم نتفق مع الأستاذ العقاد على ألا يتخذ هذا الأسلوب العنيف حتى لا يعرض نفسه لما لا تحمده عقباه ؟ ويقول العقاد: وكانت غرفتى بجوار غرفة الأستاذ عبد القادر، ويفصل بين الغرفتين باب، وإذا بالباب يفتح ، وتطل مى منه وخلفها الأستاذ عبد القادر حمزة يقول : هذا هو الأستاذ العقاد فقولى له ما تريدين .. واصطنعت مى الهدوء ، وتصنعت الابتسام ، وقالت لى: فيم هذا الجفاء ؟ فلم أتمالك أن قلت لها، أو قلت لنفسى : وفيم هذا الجفاء ؟(❖).

وكان العقاد عندما يشدد من هجومه على خصوم الوفد وخصوم سعد زغلول يأتى إليه صوت مى عبر أسلاك الهاتف يستعطفه ليخفف من تلك الحملات خوفا عليه من الاعتقال أو النفى .

وشهدت أديبتنا معركة « السفور» التى كانت من أهم المعارك الأدبية التى شهدتها الساحة الأدبية فى ذلك الحين ، وكانت على علاقة بكلا طرفى النزاع الأصليين فهما من رواد ندوتها وهما مصطفى صادق الرافعى وعباس محمود العقاد وهناك بعض الباحثين يرجع أن تلك المعركة الفكرية ما كانت لتقوم ، لولا التنافس لكسب عواطفها ، فقد كان العقاد والرافعى كلاهما متيما بحبها ، رغم أن الثانى – الرافعى – كان مقيما فى طنطا حيث تعيش زوجته وأولاده ، ومع أنه كان يكبر « مى » بأكثر من ثلاثين عاما إلا أنه كان أول روادها الذين يحضرون صالونها وهو فى كامل أناقته ، وكانت

(❖) وديع فلسطين : مرجع سابق، ص ٤٩ ،٥٠.

تستقبله بما يليق بكاتب إسلامى كبير ، وشاعر يزاحم أحمد شوقى على إمارة الشعراء ، وكان الرافعى مصابا بالصمم ، مما جعل مشاركته فى أحاديث الصالون محدودة ، وكانت توليه عناية خاصة ، وقد أحس هو بذلك ، فكتب لها رسالة فى عام ١٩٢٣ ونشرت هذه الرسائل فى كتابه « أوراق الورد» ولكنه لم يجد تجاوبا ولا صدى لرسائله بل شعر بفتور عاطفة مى نحوه فكتب لها فى عام ١٩٣٤ رسائله الثانية والمعنونة بـ «رسائل الأحزان » وقد نشرت في كتاب أيضا وهى تمثل مذهبه في الحب والجمال ثم تبعتها في نفس العام رسائله الثالثة " السحاب الأحمر " وعرضت مىّ في صالونها رسائل الرافعى الأولى " أوراق الورد" وكان من بين زوارها الأستاذ العقاد ، وما إن نشرت رسائل الرافعى بعد ذلك ، حتى تصدى لها العقاد بالهجوم ، فقد كان بين الطرفين " العقاد والرافعى" خلاف قديم، يرجع إلى اتصال الرافعى الوثيق بالملك فؤاد، وإلى عمل العقاد مع سعد زغلول والأحزاب المعارضة ، وتابع العقاد هجومه على الرافعى عندما نشر كتابه " على السفود " ناقدا العقاد وزميليه عبد الرحمن شكرى ، وعبد القادر المازنى ، وحمل حملة شعواء على مدرسة الديوان .

وشهد عام ١٩٢٧ منافسة على إمارة الشعر بين حافظ إبراهيم وأحمد شوقى وكان كلاهما من رواد الصالون وقد أقامت جريدة " السياسة الأسبوعية " مهرجانا لتنصيب شوقى أميرا للشعراء ، وكانت مىّ محررة صفحتها النسائية ، فأصبح من الواجب على أصدقاء حافظ ومريديه أن يكرموه هو أيضا، فجاء الحفل الثانى – حفل تكريم حافظ – على غرار الحفل الأول – لتكريم شوقى –

فقد شهدته وفود عربية كبيرة وفى هذا ألقى حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة عن العلم :

العلم شرقى تغافل أهله

عنه ، فعاقبهم بطول غياب

وتنبهوا لمصابهم ، فتضرعوا

فغفا ، وعاودهم بغير عتاب

عاشقة ومعشوقة

عـلاقـات " ميّ زيادة " العـاطفيـة مـوضـوع أغـرى كـثيـرا من البـاحثين وشغلهم، فكثرت الكتابة فيـه إلى حد أننا نرى كتبـا بأكملها تتناول هذا الموضوع ، ونطالع كذلك بين ثنايا الصحف والمجـلات منذ عهـد ميّ حـتى يومنا هـذا مـوضـوعـات كـثيـرة تتناول عـلاقـاتهـا العـاطفيـة وعـلاقـات مفكرى وأدباء عصـرها بها..

إن الجـانب العـاطفي من حـيـاة "مـيّ " هو من أكـبـر الجـوانب التي ركز عليها كل من كتب عنها .. ولا أبالغ إذا قلت أنه رغم كثرة الكتابات في هذا الجانب، لكنه جانب فيه من الغموض والإبهام الكثير ، فلم يحسم تناوله أو مناقشته بشكل نهائي وموضوعي.. وهذا الجانب العاطفي في حياة الانسان بصفة عامة وفي حياة الأديب الفنان بصفة خاصة على قدر كبير من الأهمية !! لمَّ . لا، وقد أثر هذا الجانب في حياتها وأدبها وأثر في الإنتاج الإبداعي الفكري لمعاصريها أو بعبارة أكثر دقة أثر هذا الجانب على محبيها.. إن المرأة كانت ولازالت نبعاً فياضا لإلهام الأدباء والشعراء والفنانين ، لا سيما إذا كانت جميلة جذابة: وأديبة نابغة .. إن مصدر الإبداع هو شعور الفنان وتحرك أحاسيسه الكامنة، وقد رأيت أن أتناول أبرز العلاقات العاطفية في حياة ميّ ، ولا داعي لأن أبرز علاقات هامشية لم يكتب لها الخلود ولا الذكر.

جبران خليل جبران (*)

شغلت علاقة جبران خليل جبران بميّ الجزء الأكبر من كتب وأبحاث الباحثين، لأنها أهم علاقة في حياة ميّ، وأهم ما يدعم هذه العلاقة ويؤكدها في نفس الوقت الرسائل المتبادلة بين الاثنين وما تخللها من تعبيرات رقيقة وعبارات عذبة حالمة تنم عن الشوق والانتظار واللهفة.. ولا يساورني أدنى شك في صحة هذه المراسلات ، ولكن هناك أسئلة كثيرة تفرض نفسها.. هل حقا أحبّ جبران ميّ؟! وهل كان هذا الحب متوهجا إلى هذا الحد الذي وصفه الباحثون وأولوه عناية بالغة ؟ وهل من الممكن أن تنشأ علاقة حب بين طرفين (رجل وامرأة) ولم يلتقيا أبدا طوال حياتهما؟، هكذا شاءت الأقدار ألا يقضي كل منهما وطره من الآخر ! أسئلة كثيرة وكثيرة، ورغم كثرة ما كتب في هذا الموضوع، إلا أنه في حاجة إلى إعادة نظر والحكم فيه بالعقل لا الهوى دون تحيز أو انفعال أو تعصب. " وقبل الإيغال في القضية نتساءل أيضا: ماذا يقول أي إنسان بغض النظر عن كونه من رجال الفكر - في رجل يبعث برسائل العشق الحارقة،

(*) ولد في قرية " بشرى " بلبنان في ٦ ديسمبر ١٨٨٣، استقر والده بقرية " بشعلا " وأدت سوء علاقة والد جبران بوالدته عام ١٩٨٥ إلى اصطحابها أولادها الأربعة وهجرتها بهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، تاركة زوجها في " بشرى " وظهر ميل جبران للرسم منذ صغره ، وعاد إلى بيروت ١٨٩٦ والتحق بمدرسة الحكمة ولما توفيت شقيقته ووالدته وأخوه الأكبر - بسبب مرض خبيث - عاد هو وشقيقته " ماريانا " إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأرسلته " ماري هاشكل " بعد ذلك إلى باريس لدراسة الفن ١٩٠٨- ١٩١٠، وعاد إلى نيويورك وأسس هو ونسيب عريضه " الرابطة القلمية " وفي عام ١٩٢٨ ذاعت شهرة جبران وملأت الآفاق ولاقت كتبه التقدير والرواج وفي شتاء عام ١٩٢٩ اشتد عليه المرض وانهارت صحته تماما في إبريل ١٩٣١، وتوفي صباح الخميس ٩ إبريل ١٩٣١ تاركا خلفه إبداعات شعرية ومؤلفات رائعة خالدة خلدت اسمه .

وكلمات الغرام اللاهبة لعدة فتيات أو سيدات "؟ وماذا يقال في أنثى تفعل نفس الشيء بالنسبة للرجال ؟ أتكون كل هذه الرسائل صادقة ؟ أتكون كل هذه الخطابات عبارة عن مهارة أسلوبية وبخاصة من أناس يجيدون هذه الصنعة ، واقع الأمر أن في حياة جبران الذي أقام في أمريكا أكثر من امرأة حبر لها الرسائل الغرامية وصرح لها بالحب من خلال كلمات لا تقبل اللبس ، وفي حياة "ميّ " – التي أقامت في القاهرة – أكثر من رجل سهرت الليالي من أجله تدبج له خطابات طافحة بالعشق ، وتظهر عاطفة نيران الشوق"(❖).

وإذا تحدثنا عن ميّ وجبران جدير بنا أن نتعرض لغراميات جبران ، فجبران كان محبا للرسم وأظهر هذا الميل ، فلفت نظر أساتذته ، وقد أخذت إحدى مدرساته تشجعه على ممارسته ، وتقدمه إلى كبار الرسامين الأمريكيين وتعرف على الرسام الأمريكي الكبير " ماجر " الذي أعجب برسومه وشجعه ، ويقال إن جبران كان وقتها في الرابعة عشر من عمره قد التقى بسيدة أمريكية متزوجة كانت تتردد عليه لرسمها ، وأنه قد قامت بينه وبين السيدة الأمريكية علاقة محمومة (رجح بعض الباحثين أنها علاقة جسدية) ولما عاد جبران من الولايات المتحدة الأمريكية إلى بيروت عام ١٨٩٦ واتصل لوالده في قرية " بشري " ، وعاد إلى مواصلة دراسته تعرف خلال إقامته في بيروت على ابنه صديق حميم لوالده اسمها " حلا الظاهر " وهى التي أطلق عليها في كتابه " الأجنحة المتكسرة اسم "سلمي" وعلى والدها " فارس كرامة "، وكانت حلا أو سلمى تكبر جبران بعامين ، يقول جبران : " كنت في الثامنة عشرة عندما

(❖) أحمد حسين الطماوي : غرام ميّ وجبران بين الحقيقة والخيال ، مجلة "الهلال" ، القاهرة، ع٢، فبراير ١٩٨٦ ، ص ٨٥ ، ٧٦ .

فتح الحب عيني بأشعته السحرية ، ولمس نفسي لأول مرة بأصابعه النارية و كانت " سلمى كرامة " التي أيقظت روحي بمحاسنها ، ومشت أمامي إلى جنة العواطف العلوية حيث تمر الأيام كالأحلام وتنقضي الليالي كالأعراس.. (❖) ... كانت جميلة النفس والجسد فكيف أصفها لمن لا يعرفها؟! "(❖❖) وقد زوجها والدها من رجل غني ، واستمر جبران يراها مرة كل شهر حتى توفى والدها والتقى بها جبران ، وأراد أن يبدأ معها حياة جديدة " : تعالي يا سلمى ، تعالي ننتصب كالأبراج أمام الزوبعة هلمي نقف كالجنود أمام الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا لا بظهورنا ، فإن صرعنا نمت كالشهداء ، وإن تغلبنا نعش كالأبطال ، إن عذاب النفس بثباتها أمام المصاعب والمتاعب لهو أشرف من تقهقرنا إلى حيث الأمن والطمأنينة "(❖❖❖) لكن سلمى رفضت .. لأن ذكرى الماضي ستظل مجسدة أمامها دائما .. وتشاء الأقدار أن تتوفي سلمي هى وطفلها أثناء ولادته ، وكانت هذه إحدى صفحات العاطفة في حياة جبران ، وفي عام ١٩٠٤ نجح جبران في إقامة معرض للوحاته ورسوماته وزارت معرضه مدرسة للرسم فرنسية تعمل في إحدي مدارس بوسطن ، وتدعي هذه المدرسة (ميشيلين) وتوطدت العلاقة بينهما ، وعندما سافر جبران إلى باريس لدراسة الفن تقابل مع – ميشيلين – مرة أخرى – ولازمها ونشأت بينهما علاقة حب،

(❖) جبران خليل جبران : الأجنحة المتكسرة ، مطبعة كرم ومكتبتها ، دمشق ، د. ت ، ص ٣.

(❖❖) المرجع السابق : ص ١٩ .

(❖❖❖) المرجع السابق : ص ٤٢.

ولكن جبران بعد أن عاد إلى الولايات المتحدة الأمريكية تركته " ميشيلين " وتزوجت من رجل أمريكي.

وتعرف جبران على " ماري هاسكل " عن طريق ميشيلين ، فقد قدمته إلى "ماري هاسكل " التي كانت تعمل ناظرة لمدرستها ، وقد أعجبت ماري بجبران أشد الإعجاب وأقامت له في مدرستها معرضا للوحاته .. وقد ألقت " ماري " في يومياتها المنشورة المزيد من الضوء على علاقتها بجبران ، يقول جبران رداً على إحدى يومياتها المنشورة: " لقد انجذبت إليك انجذابا خاصا ، عندما رأيتك للمرة الأولى ، كان هذا في معرض رسومي، وقد أحببت التحدث إليك في ذلك اليوم ، ولما طلبت عرض صوري في مدرستك ، رحبت بذلك ووافقت ببراءة الطفل ، ثم أحببتك أكثر بعد ذلك.. وأحببت جو مدرستك وكتبك ، وطريقة تناولك للأمور والقضايا المختلفة ، وحتى نقدك لي وقد جعلني هذا أصارحك بما في نفسي، وكنت تطرحين علىّ أحيانا أسئلة محرجة ، لكنني أحببت أسئلتك، وقد قابلت أنت أجوبتي بصدر واسع وفهم صادق، وكنت أعرف يومئذ أناسا كثيرين في بوسطن ، لكن حبي لك فاق حبي لهم جميعا.. "(❖).

وأرسلت ماري جبران على نفقتها الخاصة إلى باريس ، ليدرس الرسم والفنون بين عامي ١٩٠٨ - ١٩١٠ ويجدر بنا أن نتساءل : لماذا حرص جبران على ألا تتخطى علاقته بماري هاسكل حدود الصداقة.؟ ولماذا راعى أن يحجب عنها علاقاته بالأخريات؟ هل كان الدافع وراء ذلك حرص جبران على الانتفاع بمساعدات ماري هاسكل الفنية والمادية أكبر من رغبته في الاقتران بها !

(❖) د. رؤوف سلامة موسى: جبران حياته وآثاره ، دار مطابع المستقبل بالفجالة والإسكندرية، ١٩٨٣، ص ١١.

إن ماري هاسكل قدمت لجبران كل ما لديها من أموال ، حتي أن الناس كانوا يعتقدون أن جبران ثري كبير من الشرق .. وقد كتب جبران لها وهو في فرنسا العديد من الرسائل المتوهجة بالحب يقول جبران في إحدي رسائله إليها: "ما عرفت في حياتي إلا إمرأة واحدة وأحس وإياها أني حر عقلا وروحا، وأشعر وإياها بذاتيتي، وهذه المرأة هى أنت .. ويقول أيضا.. فيك أجد كل ما أطلب من المرأة : روحا تتخذ منها روحي جناحا تحلق به ونورا يشع على المجهول ويفتح به المنغلق ووسادة يتكىء إليها رأسي.. أنت أعز شخص إلىّ في عالمنا، وأقرب إلىّ اليوم من أي وقت مضي " (❖) .

وفي عام ١٩٢٦ تزوجت ماري هاسكل ، وتركت بوسطن إلى "سافنا " بولاية جورجينا والحقيقة أن جبران لم يحجب علاقته بماري هاسكل ، فكان يعترف بفضلها وجميلها عليه فكان يهدي إليها بعض مقالاته العربية ومؤلفاته التي طبعت.. ولم تعرف أن جبران أهدى لميّ زيادة كتابا واحدا أو مقالة واحدة !! إن علاقات جبران النسائية التي ذكرنا طرفا منها ليست كل ما لجبران من غراميات وعلاقات بالنسوة الغربيات ، وإن ما تلونه كان إشارة سريعة ليس إلا.. وما دمنا قد أحطنا ببعض هذا الجانب " العاطفي " من حياة جبران ، فلا بأس أن نتناول علاقته بميّ زيادة في ضوء ما أحطنا به. كانت شهرة جبران قد بلغت إلى مصر ، وقرأ كتبه الكثير من النقاد والأدباء ، ومنهم من لم يعجب بأدبه لرومانسيته الجامحة إلى عالم الخيال وغموض أفكاره ، لكن "ميّ " عندما قرأت

(❖) المرجع السابق : ص ٢٦ .

لجبران شعرت أن كتاباته تنم عن عاطفة إنسانية عالية ونادرة أيضا وكانت تتبع أخباره وما ينشره باهتمام كبير .. ولما قرأت قصته " مرتا البانية " خطر ببالها أن تكتب إلى جبران ، ولكن انتابها رهب وخوف من أن جبران ربما يستهين بجرأتها ويهمل رسالتها ، وقد يكون على غير علم بأدبها فقد كانت في تلك المرحلة في بواكير حياتها الأدبية وكانت تنشر ما تكتبه بأسماء مستعارة، ولم تحظ بشهرة كبيرة بعد، كما حظى بها جبران في الشرق ، لكن " ميّ " رغم كل هواجسها كتبت إلى جبران أول رسالة عام ١٩١٢ فعرفته باسمها الحقيقي ونشاطها الأدبي ، ولما تسلم جبران أول رسالة من ميّ تلمس في كلماتها روحا أدبية موهوبة، فلم يهمل رسالتها ، ورد عليها متحدثا عن نفسه " ..أما أنا قد ورثت عن أمي تسعين بالمائة من أخلاقي وميولي ، ولا أعني بذلك أني أشابهها بالحلاوة والوداعة وكبر القلب، وأني أذكر قولها لي مرة وقد كنت في العشرين لو دخلت الديرلكان ذلك أفضل لي وللناس ، فقلت نعم ولكن قد اتخذتك أما قبل أن أجيء إلى هذا العالم فقالت : لو لم تجئ لبقيت ملاكا في السماء ، فقلت: ولم أزل ملاكا، فتبسمت وقالت: أين أجنحتك؟ فوضعت يدها على كتفي وقلت: هنا فقالت: لكنها متكسرة ، وبعد هذا الحديث ذهبت أمي إلى ما وراء الأفق الأزرق، أما كلمتها " متكسرة " فظلت تتمايل في مسمعي، ومن هذه الكلمة غزلت ونسجت كتابي الأجنحة المتكسرة.."

وكان جبران في الغربة يعاني ألم الوحدة والقلق النفسي، الذي لا يدري كنهه.. وحينما صدر كتابه " الأجنحة المتكسرة " في أواخر إبريل عام ١٩١٣، أهدى نسخة منه إلى ميّ فقرأته بمنظور الأديبة والناقدة فرأته متمردا على قيود

المجتمع والأسرة ، جانحا إلى الخيال وقد انتقدت ميّ جبران في مفهومه للزواج تقول في إحدى رسائلها: ".. إننا لا نتفق في موضوع الزواج ياجبران أنا أحترم أفكارك ، وأجل مبادئك لأنني أعرفك صادقا في تعزيزها مخلصا في الدفاع عنها . وكلها ترمي إلى مقاصد شريفة، وأشاركك أيضا في المبدأ الأساسي القائل بحرية المرأة .. فمثل الرجل يجب أن تكون المرأة مطلقة الحرية بانتخاب زوجها من بين الشباب ، متبعة في ذلك ميولها والهاماتها الشخصية ، لا مكيفة حياتها في القلب الذي اختاره لها الجيران والمعارف ،حتي إذا ما أنتخبت شريكا لها تقيدت بواجبات . عند الزواج تعد المرأة بالأمانة والأمانة المعنوية تضاهي الأماني الجسدية أهمية وشأنا ... عند الزواج تتكفل المرأة بإسعاد زوجها وعندما تجتمع سرا برجل آخر تعد مذنبة إزاء المجتمع والعائلة والواجب ، ربما اعترضت على هذا بقولك إن الواجب كلمة مبهمة يعسر تحديها في أحوال كثيرة، فليس لنا إلا أن نعلم " ما هى العائلة " ؟ لنجد الواجبات التي تفرضها على أفرادها ، دور المرأة العائلي هو أصعب الأدوار ، وأوضعها وأمرها !"

" إني أشعر شعورا شديدا بالقيود المقيدة بها المرأة ، تلك القيود الحريرية الدقيقة كنسيج العنكبوت المتينة متانة أسلاك الذهب .. "

لقد كانت بداية العلاقة بين ميّ وجبران ، مبنية على أساس إعجابها بمؤلفاته رغم أنها – في كثير من الأحيان – تخالفه في الرأي .. لقد أعجبت ميّ بجبران إعجاب المناقضة وهو أن يعجب المرء بصفات في إنسان آخر يتمنى أن تكون موجودة فيه هو ، فميّ في وضوح تفكيرها واستقامة سلوكها هى في الحقيقة نقيض جبران .. تقول ميّ في إحدي رسائلها لجبران: ".. كل واحد من

مؤلفاتك صديق عزيز علىّ، بل أراني تلميذة أفكارك في مواضيع كثيرة .." . لقد تحول الإعجاب الأدبي إلى صداقة حميمة وعلاقة روحية متبادلة بين الطرفين.. وانقطع البريد بينهما خلال الحرب العالمية الأولى، حتى عاد البريد كما كان، ولم يكن جبران أقل من ميّ قلقا على انقطاع الرسائل فهذه الرسائل سلواه في بلواه وغربته وإلهامه في الكثير من إبداعاته ، وفور انتهاء الحرب بادر جبران إلى تحبير رسالة لميّ مع نسختين من كتابيه: " المجنون " ، و" المواكب " .

فكتبت ميّ نقدا لكتاب " المواكب " نشرته في مجلة " الهلال "(❖)، والحقيقة أنها في ذلك المقال ترددت فيه بين النقد والتقريظ ، وبين الهجوم والاستسلام ، فمدحت بحساب وأخذت بحساب أيضا.. فقالت في مدحه: " في المواكب كما في المجنون أكاد أتبين تأثير نيتشه ، وإن كانت بسمة التهكم الفني الدقيق التى نراها عن جبران لن تشبه أبدا ضحكة نيتشه ذات الجلبة الضخمة المزعجة..

إن الشاعر العربي فني في كل شيء ، ونظرة واحدة إلى كتاب "المواكب " تكفي لتعيين ما عنده من ذوق بسيط أنيق ، ولا تقيم المرارة لديه طويلا ، لأنه يعود إلى ذكر الطبيعة وحبها ، وينشد مطربا حزنه ولهفه بنغمة عذبة ..

ليس حزن النفس إلا ظل وهم لا يدوم

وغيوم النفس تبدو من ثناياها الهموم ..

وقد يرتفع أحيانا إلى أعلى ذرى التأمل . فنحسب الإمام الغزالي متكلما إذا يقول :

(❖) مجلة الهلال : ع يوليو (تموز) ١٩١٩م .

وغاية الروح طي الروح قد خفيت

فلا المظاهر تبديها ولا الصور

إذا طوت شمأل أذيال عاقلة

إلا ومر بها الشرقي فتنتشر

فيجيبه في الغاب ، بما يدل على اعتقاده بوحدة الوجود :

لم أجد في الغاب فرقا

بين نفس وجسد

فالهوا ماء تهادى

والندى ماء ركد

والشذا زهر تمادى

والثرى زهر جمد

أعطني الناي وغني

فالغنا جسم وروح

وأنين الناي أبقي

من غبوق وصبوح

ثم تقول ميّ ناقدة: ".. ولكني أعتقد أن ذاتية الكاتب لم تدرك بعد استعدادها الأقصى ، ولم تقف بعد على ذروة اقتدارها سواء في التصوير أو في الكتابة .. إن جبران خليل جبران مازال متسلقا كنف الجبل التى قيدته الأقدار بالصعود إليه ، وسيتابع الصعود متمردا مادام كلفا بهذا النعت ، وراء ستار الهجوم والتهكم بالرموز والأمثال ، ولكنه سيصل يوما إلى القمة فنسمع منه عندئذ أجمل أنغامه.

فكتب جبران إلى ميّ بعد غيبة يقول: ".. ولقد انصرفت عن كل ما وجدته بانتظاري في هذا المكتب لأصرف نهاري بكامله مصغيا إلى حديثك.. ذلك الحديث العلوي المتراوح بين العذوبة والتعنيف وإنني وجدت بعض الملاحظات التي لو سمحت لنفسي الفرصة أن تتألم لتألمت منها ، ولكن كيف أسمح لنفسي النظر إلى شبه سحابة في سماء صافية مرصعة بالكواكب ؟ وكيف أحول عيني عن شجرة الياسمين المزهرة إلى ظل أحد أعضائها ؟ وكيف لا أقبل وخزة صغيرة من يد عطرة مفعمة بالجواهر ؟

إن حديثنا الذي أنقذنا من سكوت خمسة أعوام لا ولن يتحول إلى مناظرة ، فأنا أقبل بكل ما تقولينه لاعتقادي بأنه يجمل بنا وسبعة آلاف ميل تفصلنا ألا نضيف إلى هذه المسافة الشاسعة مترا واحدا بل أن نحاول تقصيرها بما وضعه الله فينا من الميل الجميل والشوق إلى المنيع والعطش إلى الخالد.. يكفينا ياصديقتي ما في الأيام والليالي من الدموع والأوجاع والمتاعب والمصاعب ، إن من يستطيع الوقوف أمام المجرد المطلق لا يلتفت إلى كلمة جاءت في كتاب أو ملاحظة أتت في رسالة ، إذن فلنضع خلافاتنا – وأكثرها لفظية – في صندوق من الذهب ولنرم بها إلى بحر من الابتسامات.ما أجمل رسائلك يا ميّ وما أشهرها !!، فهي مثل نهر من الرحيق يتدفق من الأعالي، ويسير مترنحا في وادي أحلامي ، بل هي كالأوتار .. ".

وقد كتبت ميّ " خطابا لجبران متضمنا نقدها لكتابه " المجنون " واختتمت رسالتها بقولها : أهذا هو المجنون .. هوأنت المجنون ".

فأجاب جبران مبررا : " المجنون ليس أنا بكليتي ، واللذة التي أردت بيانها

بلسان شخصية ابتدعتها ليست كل ما لدى من الأفكار والمنازع ، واللهجة التي وجدتها مناسبة لميول ذلك المجنون ، ليست باللهجة التي اتخذتها عندما أجلس لمحادثة صديق أحبه وأحترمه ، وإذا كان لابد من الوصول إلى حقيقتي بواسطة ما كتبته، فما عسى يخدمك عن اتخاذ فتي الغاب ونغمة نايه منها إلى المجنون وصراخه، وسوف يتحقق لديك أن المجنون لم يكن سوى حلقة من سلسلة طويلة مصنوعة من معادن ! .

لا أنكر أن المجنون كان حلقة خشنة مصنوعة من حديد.. ولكن هذا لا يدل على أن السلسلة كلها خشنة ومن الحديد !

لكل روح فصول ياميّ ، وشتاء الروح ليس كربيعها ، ولا صيفها كخريفها.. وفي ٧ فبراير عام ١٩١٩ كتب لها جبران من نيويورك:

" لقد أعادت رسالتك إلى نفسي ذكرى ربيع ألف خريف ، وأوقفتني ثانية أمام تلك الأشباح التى كنا نبتدعها ونسيرها مركبا إثر مركب.. تلك الأشباح التي ما ثار البركان في أوروبا ، حتي انزوت محتجبة بالسكوت ، وما أعمق ذلك السكوت وما أطوله ! هل تعلمين يا صديقتي بأني كنت أجد في حديثنا المتقطع التعزية والأنس والطمأنينة ، وهل تعلمين بأنني كنت أقول لذاتي ، هناك في مشارق الأرض صبية ليست كالصبايا، قد دخلت الهيكل قبل ولادتها .. ووقفت في قدس الأقداس فعزمت السر العلوي الذي اتخذه جبابرة الصباح ثم أخذت بلادي بلادا لها وقومي قوما لها ، هل تعلمين بأني كنت أهمس هذه الأنشودة في أذن خيالي ،كما وردت على رسالة منك ولو علمت لما انقطعت عن الكتابة إليّ ، وربما علمت فانقطعت وهذا لا يخلو من أصالة الرأي والحكمة" .

لقد بدأت العلاقة بين ميّ وجبران علاقة فكرية .. أدبية ثم تطورت

إلى صداقة ، ثم تطورت الصداقة إلى تلميح بالحب ثم إلى الغرام الصريح ، والحقيقة أنها وقفت أمام هذا التطور في علاقتها بجبران متميزة ، لكنها كانت مغلوبة على أمرها ، فقلبها كان يذوب حنانا ولهفة لكلمات جبران ، فأرسلت إليه عتابا رقيقا قالت فيه : " لما كنت أجلس للكتابة كنت أنسى من أنت وأين أنت ، وكثيرا ما أنسى أن هناك رجلا أخاطبه فأكلمك غالبا كما أكلم نفسي ، أحيانا كأنك رفيقة لي في المدرسة ، إنما كان يطفو على تلك الحالة المعنوية عاطفة احترام خاص ، لا توجد عادة بين فتاة وفتاة .. أهي المسافة وعدم التعارف الشخصي والبحار المنبسطة بيننا هي التي كانت تلبس حقيقة ذلك التراسل – ثوب الحنين ؟ قد يكون ، غير أن مكانتك في اعتباري وتقديري كانت مصدر هذه الثقة التي ظهرت منذ نشأتها كأنها فطرية لم تنتظر الوقت لتقوى ولا التجربة لتثبت.. وصلت الرسالة التي سبقت النشيد ، فأحجمتُ إزاء بعض الكلمات ، خوفا مما قد تجر إليه ومرت أسابيع ستة أو سبعة دون أن أكتب ، لأني كنت أقول لنفسي: " يجب أن نقف هنا .. ولكننا لم نقف ، بل خطونا خطوة، بل قفزنا قفزة ".

أنت قيدتني "مذنبة " في دفترك وقمت تشكو ، لأني كنت كلما حدقت في شيء أخفيه وراء القناع وكلما مددت يدا أثقبها بمسمار.

نعم قبلت ذلك وفعلته متعمدة، تعمدت قطع الأسلاك الخفية التي تغزلها يد الغيب ، وتمدها المعاني وأمسخ الأسئلة وأضحك عند الكلمات التي تملأ العينين دموعا ، وهل كان لدى وسيلة أخرى لأحولك عن هذا الموضوع وأذكرك أني وحيدة أبوي ؟

قد لا يكون في العائلة الغربية إلا ولد واحد ، فيقذفوا به من إنجلترا إلى الهند أو فتاة واحدة فترحل من فرنسا إلى الصين بلا جلبة ولا ضوضاء

ولكن أين نحن من هؤلاء ، ونحن شرقيون؟ تعمدت ذلك خصوصا لأوفر على نفسي عذابا هى فى غني عنه ، ولأ تحايد على كلمة تقربني من ذلك الموضوع الذي ملأ روحي شوكا وعلقما.

في هذه السنوات الماضية ، فهمت ما أريد ، وإنما في غير معناه الحقيقي وفهمته على وجه لم أقصده ثم سطا عليك كبرياء الرجل ، فنسيت أن السكوت لا يحسن بيننا على هذه الصورة نحن اللذان تكاتبنا أبدا كصديقين مفكرين .. أما صدق القائلون : إن صداقة الرجل والمرأة رابع المستحيلات ؟ آلمني سكوتك من هذا القبيل وأرهف انتباهي ، فأعلمني إنك لم تشاركني ارتياحي إلى تلك الصداقة الفكرية ، لأنك لو كنت سعيدا بها مثلي لما كنت رميت إلى أبعد منها .. علمت أنني كنت وحدي ، حيث كنت أظننا اثنين وقدرت أنك لم تحسب تلك سوى مقدمة وأنا كنت أقدرها لذاتها ، وصار معنى سكوتك عندي إما ذاك، (❖) وإما لا شيء ، وأنت أدرى بأثر ذلك في نفسي".

كانت تلك الرسالة بعد ثمانية أعوام من الصداقة الفكرية بين ميّ وجبران، ولم تلتق بجبران إلا في رسائله إليها وفي مؤلفاتها فهو أديبها المفضل الذي وجدت فيه أمانيها، وبعد أن أرسلت إليه ميّ رسالتها السابقة أبطأ جبران في الرد فخشيت أن يقطع جبران رسائله والحقيقة أن جبران في تلك الفترة كان يشكو علة في قلبه، فكتبت إليه في الرابع من أغسطس عام ١٩٢١ رسالة تفصح فيها عن حبها وقلقها عليه في ثوب من الوقار والاحتشام الشرقي فقالت: أريد أن تساعدني وتحميني، وتبعد عني الأذى ليس بالروح فقط، بل بالجسد أيضا.. أنت الغريب الذي كنت لي بداهة وعلى الرغم منك أبا، وأخا، ورفيقا وصديقا.. وكنت لك أنا الغريبة بداهة وعلى الرغم مني أما، وأختا ورفيقة وصديقة،

(❖) تعني الزواج .

عنك وعن صحتك ، وأذكر عدد ضربات قلبك ، وقل لي رأي الطبيب إفعل هذا، ودعني أقف على جميع التفاصيل . كأني قريبة منك ، أخبرني كيف تصرف نهارك .. أتوسل إليك أن تتناول الأدوية المقوية مهما كان طعمها ورائحتها.

فمن هذه المعنويات ما هو ضروري كل الضرورة ، مفيد كل الإفادة وكل ما تفعله لوقاية نفسك أحسبه أنا لك يداً علىّ وأشكرك لأجله بكل ما في قلبي من صداقة ومودة .

أرسل إلىّ سطرا أو سطرين من أخبارك " بلا إجهاد ".

إن تلك الرسالة السابقة يندفع فيها الدم الإنساني ، بما فيه من حياة ونبض وشعور ، ولقد توالت رسائل جبران إلى ميّ حاملة إليها كل ما يعن في خاطرها ويجول بفكرها .. وكذلك ميّ ألحت في تخيل جبران والتماس ما يديهي منها ولو بالخيال ، فكانت تسأله عن تفاصيل حياته اليومية ، يقول جبران في إحدى رسائله وهو يحدثها عن مرضه:

" .. إن الراحة – يا ميّ – تنفعني من جهة أخرى ، أما الأطباء والأدوية ، فمن علتي بمقام الزيت من السراج .. لا ، لست بحاجة إلى الأطباء والأدوية، ولست بحاجة إلى الراحة والسكون.. أنا بحاجة موجعة إلى من يأخذ مني ويخفف عني.. أنا بحاجة إلى فصادة معنوية ، إلى يد تتناولني مما ازدحم في نفسي إلىّ شديدة تسقط اثماري وأوراقي "!!

ويجيب ميّ عن تساؤلاتها عن تفاصيل حياته و ملابسه وعدد السجائر التي

عـوائدي (❖) أن أرتدي بذلتين في وقت واحـد، بذلة من نسـيج الناسـجين وخياطة الخياطين وبذلة من لحم وعظام .. أما اليوم فإني أرتدي ثوبا واحدا طويلا وسيعا ، عليه أثر الحبر ، والألوان وهو بالإجمال لا يختلف عن ملابس الدراويش إلا بنظافته.. أنا أكره ملابس رجال الغرب فهى بدون وزن ولاقافية، وإذا ما عدت إلى الشرق فلن أرتدي إلا الثياب الشرقية القديمة .. لقد وجد جبران في المرض لذة نفسية وتمنى أن يكون مريضا في مصر ، لا في نيويورك ليكون قريبا من " ميّ " لقد وجدت في المرض لذة نفسية تختلف تأثيرها عن كل لذة أخرى بل وجدت نوعا من الطمأنينة يكاد يجبب إلى الاعتلال.. إن المريض لفي مأمن من منازع وأغراض الناس والوعود والمواعيد ، والمخالطة والمنازعة.

وقد اكتشفت شيئا آخر أهم بما لا يقاس من اللذة والطمأنينة ، وهو هذا: إني في اعتلالي أدنى إلى الكليات المجردة مني إليها في صحتي.. فإذا أنا أسندت رأسي إلى هذه المساندة ، وأغمضت في هذا المحيط ، وجدتني سابحا كالطير فوق أودية وغابات هادئة متشحة بنقاب لطيف ، ووجدتني قريبا ممن أحبهم، وأناجيهم وأحدثهم ، ولكن من دون غضب وأشعر شعورهم ، وأفكر أفكارهم .. يلومونني ولا يسخطون علىّ ، بل يلقون أصابعهم على جبهتي بين الآونة والأخرى ، ويباركونني..!

حبذا لو كنت مريضا في مصر، حبذا لو كنت مريضا بدون نظام في بلادى،

(❖) الأصح في اللغة عاداتى ، لكن جبران كما عرف يؤثر الحرية في التعبير حتى لو خالف ذلك قواعد اللغة.

قريبا من الذين أحبهم ، أتعلمين يا " ميّ " أني في كل صباح ومساء، أرى ذاتي في منزل في ضواحي القاهرة ، وأراك جالسة أمامي ، تقرئين آخر مقالة كتبتها، أو آخر مقالة من مقالاتك لم تنشر بعد.. "!

وفي عام ١٩٢٥ كتب جبران على خجل إليها طالبا لها صورة جديدة أسوة بالصحافي الذي أرسل إليها من " بونس إيرس " يلتمس صورتها لنشرها في جريدته، فلما أرسلت إليه ميّ بصورتها كبرها بريشته، وبلا ريب لم تكن أول صورة لميّ عنده، كي يتضح من أحاديثه في رسائله لها .. ولما تناولت هديته البريدية التي تحتوي على محفظة يد ومرآة وقلم وماسكة ريشة للكتابة ، وقد كتب عليها جبران هذا الإهداء " أذكريني كلما كتبت " وفرحتْ بهدية جبران الرمزية ، فشكرته قائلة: " محفظتي لي في النهاية ، وقلمي لي ، المرآة والصورة كلها لي ، فإذا بها جميعا الروح التي تحضنني وتحب .. ".

ولعل رسالة ميّ التي أرسلتها إلى جبران عام ١٩٢٤ تكشف ما في نفسها من شوق مكبوت .. لجبران: "لقد كتبت لك كل هذه الصفحات لأتحايد كلمة الحب ، إن الذين لا يتاجرون ، بمظاهر الحب ودعواه في السهرات والمراقص والاجتماعات ، ينمي الحب في أعماقهم قوة ديناميتية رهيبة ، قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم في الألأء السطحي ، لأنهم لا يقاسون ضغط العواطف التي لم تتفجر ، لكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون أن يتمنوها لنفوسهم ويفضلون وحدتهم ، ويفضلون السكوت ، ويفضلون تضليل قلوبهم على ودائعها والتلهي بما لا علاقة له بالعاطفة .

يفضلون أي غربة وأي شقاء . وهل من شقاء وغربة في غير وحدة

القلب ؟ على الاكتفاء بالقطرات الشحيحة .

ما معنى هذا الذي أكتبه ؟ إني لا أعرف ماذا أعني به ، ولكن أعرف أنك محبوبي ، وإني أخاف الحب إني أنتظر من الحب كثيرا ، فأخاف ألا يأتيني بكل ما أنتظر، أقول هذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير ، ولكن القليل في الحب لا يرضيني الجفاف والقحط واللاشيء خير من النزر اليسير ..كيف أجسر على الإفضاء إليك بهذا وكيف أفرط فيه ؟ لا أدري .. الحمد لله إني أكتبه على الورق ولا أتلفظ به ، لأنك لو كنت حاضرا بالجسد لهربت خجلا بعد هذا الكلام ولاختفيت زمنا طويلا ، فما أدعك تراني إلا بعد أن تنسي .. حتي الكتابة ألوم نفسي عليها أحيانا ،لأني بها حرة كل هذه الحرية .

أتذكر قول القدماء من الشرقيين : إنه خير للبنت ألا تقرأ ولا تكتب! إن القديس توما يظهر هنا ، وليس ما أبدى هنا أثر الوراثة فحسب ، بل هو شيء أبعد من الوراثة ما هو ؟ قل لي أنت : ما هو هذا؟ وقل لي عما إذا كنت على ضلال أو هدي فإني أثق بك وأصدق بالبداهة كل ما تقول.. وسواء كنت مخطئة أو غير مخطئة فإن قلبي يسير إليك ، وخير ما يفعل هو أن يظل حائما حواليك يحرسك ويحنو عليك.

غابت الشمس وراء الأفق، ومن خلال السحب العجيبة والأشكال والألوان حصحصت نجمة لامعة نجمة واحدة ، هي الزهرة إلهة الحب، أترى يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويتشوقون ؟ ربما فيها من هي مثلي ، لها جبران واحد حلو بعيد، هو القريب القريب، تكتب إليه الآن والشفق يملأ الفضاء، وتعلم أن الظلام يخلف الشفق وأن النور يتبع الظلال ، وأن الليل سيخلف النهار ، والنهار سيتبع

الليل مرات كثيرة قبل أن ترى الذي تحبه ، فتتسرب إليها كل وحشة الشفق وكل وحشة الليل ، فتلقي بالقلم جانبا لتحتمي من الوحشة في اسم واحد جبران" .

وكانت العلة قد بدأت تشتد على جبران لكن حنينه إلى قول كلمة خالدة هو أمله في الحياة ، فحدثها في إحدي رسائله عن شوقه إلى تلك " الكلمة" التي يريد أن يقولها قبل أن ينصرف عن هذا العالم ، وهي ما قالها بعد في كتابه "النبي " وضمنها الكثير من فلسفته وخواطره في الحياة والأدب والحب والدين ، يقول " أما تعلمين يا مى أني ما فكرت في الانصراف الذي يسميه الناس موتا إلا وجدت في التفكير لذة غريبة ، وشعرت بشوق هائل إلى الرحيل ، ولكني أعود، فأذكر أن " كلمة " لا بد من قولها فأحار بين عجزي واضطراري ، وتغلق أمامي الأبواب ..

لا .. لم أقل كلمتي بعد .. ولم يظهر من هذه الشعلة إلا الدخان ، وهذا ما يجعل الوقوف عن العمل مرا كالعلقم !

أقول لك يا مىّ – ولا أقول لسواك – إني إذا ما انصرفت قبل تهجئة كلمتي ولفظها فإني سأعود لأقول الكلمة التي تتمايل الآن كالضباب في سكينة روحي .. أتستغربين هذا الكلام ؟ .. إن أغرب الأشياء أقربها إلى الحقائق الثابتة، وفي الإرادة البشرية قوة اشتياق تحول السديم فينا إلى شموس " .

وفي هذه الفترة حزنت مىّ حزنا عنيفا لوفاة والدها ، وقلقها يشتد من أجل والدتها التي عاودها الداء ، ورغم ذلك لم تتوقف عن الكتابة لجبران ولم تنقطع رسائل جبران ، ولكن ميا بدأت تفكر في مصيرها الذي يخبئه القدر لو فقدت أمها بعد أبيها، وليس في رسائل جبران ما يحمل كوة صغيرة من أمل اللقاء

بالإضافة إلى أن المرض قد اشتد على جبران وفي ذروة قلقها جاءتها رسالة من جبران يقول فيها: "عزيزتي ميّ .. صحتي الآن أردأ نوعا مما كانت عليه في بدء الصيف ، فالشهور الطويلة التي صرفتها بين البحر والغاب قد وسعت المجال بين روحي وجسدي ، أما هذا الطائر الغريب " يعني قلبه "الذي كاد يختلج أكثر من مائة مرة في الدقيقة ، فقد أبطأ قليلا بل أخذ يعود إلى نظامه الاعتيادي غير أنه لم يتماهل إلا بعد أن هد أركاني وقطع أوصالي .."

واستمرت تراسل جبران إلى أن توفي عام ١٩٣١، فهرعت ميّ إلى قلمها ترثيه فهي التي أشقاها موته – لا سيما بعد موت والديها – وهي التي تاقت إلى لقائه ، فذكرت في رثائها رسائله الأخيرة لها وقوله فيما تقول ميّ : " يا أخي .. لقد أعطيت كثيرا وإن أغاظتك هذه الكلمة ، لقد أعطيت كثيرا وقال فيك الشرق للغرب ها أنذا ! كما قال فيك الشرق الناهض لنفسه ها أنذا حسنا فعلت بأن رحلتَ ! فإذا كانت لديك كلمة أخرى فخير لك أن تصهرها وتثقفها وتطهرها ، وتستوفيها في عالم ربما كان يَفْضُل عالمنا هذا في أمور شتى.."

إن ما عرضناه من بعض الرسائل المتبادلة بين جبران وميّ ، وما اعتري هذه الرسائل من لواعج ، تلك اللواعج التي سكبها على الورق مداد قلمهما ، من شعور عاطفي نبيل وصفاه بأفصح العبارات وأبلغ المعاني ، مما جعل هذه الرسائل تعد ثروة نفيسة في أدب الرسائل في أدبنا العربي .

وبعدكل ما تلونا.. نتساءل : ترى من تلك التي أسكنها جبران قلبه ؟ هل هي "ميشيلين " أم " ماري هاسكل " أم "هيلدا "أم " ميّ زيادة " التي استمرت علاقته

بها عن طريق الرسائل تسعة عشر عاما من عام ١٩١٢حتى وفاته عام ١٩٣١؟ ، وهل من الممكن أن تنمو علاقة حب ناضجة.. سليمة بين طرفين (رجل وامرأة) لم يلتقيا ولو مرة واحدة ؟ أحسب أن تصديق هذا درب من الخيال والشطحات اللامعقولة لا أكثر ، فأبسط معاني الحب أن تتلاقى الأرواح والأجساد في رباط مقدس ، ما كان بين ميّ وجبران هو إعجاب متبادل لا يصل إلى مرتبة الحب فلو كان حبا لقهر حاجزي الزمان والمكان والتقي العاشقان ، لكن العلاقة بينهما لم تنم ولم تتبلور إلا في تلك الرسائل التي تبادلاها.

أكان جبران يتذكر ميا وهو يسطر رسائل الشرق والغرام لماري هاسكل ويقول لها : " دعيني أصرخ بكل ما في حنجرتي من صوت إني أحبك " وفي الوقت نفسه يكتب لميّ زيادة : " ميّ ياترى تتفتح الأبواب الدهرية ، هل تعلمين؟ هل تعلمين متى تتفتح الأبواب الدهرية .. " نعم تتفتح الأبواب الدهرية إذا كان هذا الحب – أو هذا الوهم – حبا صادقا لا تسلية ظريفة."

وهل كانت ميّ زيادة في قرارة نفسها تعتقد أن جبران يحبها حقا ؟ قد دعته إلى لقائها في أوروبا وكتبت إليه برغبتها في لقائه ففي ٢٨ آذار عام ١٩٢٢ كتبت ميّ في ذيل رسالتها لجبران حاشية جاء فيها " من المحتمل (❖) أن أغادر مصر إلى أوروبا في أواخر الشهر الآتي ، أو الشهر التابع وإذا وقع ذلك "المحتمل " كنت سعيدة .. سعيدة لأني أشعر أن جميع ذرات كياني تتوق إلى الخروج من الشرق زمنا، ليست نيويورك في أوروبا ، ومع ذلك مباركة حيث هي لأجل من تضم ."

وأرسلت إليه ليزور مصر "تعال – ياجبران – وزرنا في هذه المدينة (القاهرة) .. فلماذا لا تأتي وأنت فتي هذه البلاد التي تناديك ؟ ".

(❖) تعني من الممكن أن تلتقي به حيث كان ..

لكن جيران لم يلبِّ نداء ميّ .. ألم تقرأ ميّ كلام جبران عن الحب في كتابه " النبي": "فلتكن هناك فسحات تفصلكم بعضكم عن بعض في حياتكم المشتركة ولتدعوا رياح السماء تتراقص فيما بينكم ، أجل فليجب أحدكم الآخر .. ولكن لا تقيدوا الحب بالقيود ، بل ليكن الحب بحرا متموجا بين شواطيء نفوسكم .. فالحب عن جبران ليس اتحادكل حبيب في الآخر ، وإنما الحب يحيا بعيدا عن الضيم ، وأية فتاة من الشرق تلك ، التى تقبل الحب من خلال هذا المفهوم ؟!"

خلاصة القول:" إن ميا لم تحب واحدا فقط كذلك جبران " ومن هنا نستطيع أن نقول إن ما بينهما لم يكن حبا.

عباس محمود العقاد

الأستاذ عباس العقاد ظاهرة فذة وفريدة ، وفي أوائل هذا القرن سطع نجمه وذاع صيته ، ربما لأنه دخل الساحة الأدبية مسلحا بأشياء كثيرة في مقدمتها شخصيته القوية واعتزازه بنفسه وقلمه ، وإقباله على المعرفة الجادة وإبحار فكره وقلمه في العديد من الميادين وقد ساعده على هذا التألق أن الناس في تلك الفترة كانوا مقبلين على المعرفة والقراءة ، يقول الأستاذ العقاد : "أحببت في حياتي مرتين : أحببت " سارة" وهذا ليس اسمها الحقيقي ، وإنما هو المستعار ، أطلقته عليها في قصتي المعروفة بهذا الاسم.. وأحببت " ماري زيادة" الأديبة المعروفة باسم "ميّ ".

كانت الأولى مثالا للأنوثة الدافئة الرقيقية ، لا يشغل رأسها إلا الاهتمام بجمالها وأنوثتها ، ولكنها كانت – إلى ذلك – مثقفة .

وكانت الثانية – وهى ميّ – مثقفة قوية الحجة ، تناقش وتهتم بتحرير

المرأة وإعطائها حقوقها السياسية ، وكانت جليسة علم وفن وأدب ، وزميلة في حياة الفكر ، أي أن اهتمامها كان موزعا بين الأدب والأنوثة .. كلتاهما جميلة، ولكن الجمال في" ميّ " كالحصن ، الذي يحيط به الخندق ، أما الجمال في " سارة" فكالبستان الذي يحيط به جدول من الماء النمير ، هو جزء من البستان لا حاجز دون البستان ، وهو للعبور أكثر مما يكون للصد والنفور!"(❖).

لقد عرف العقاد " ميا " قبل أن يعرف سارة بسنوات عدة.. عرفها عن بعد من مقالاتها في صحفها ومؤلفاتها ، واستمرت العلاقة بينهما عن طريق الرسائل، حتى عاد من أسوان بلدته إلى القاهرة ، وسارع إلى زيارتها يحدوه الشوق والحنين والتمتع برؤيتها وحديثها الشهي ، وبمرور الأيام تقارب القلبان قلب العقاد وقلب ميّ ، فأخذت تخصه ببعض دقائق حياتها وأسرارها ، بل أخذت تبثه صدق إحساسها وجيشان مشاعرها خلال سطور بعض مقالاتها .. وكان بعض رواد صالونها يظنون أنها تعنيهم دون سواهم لا سيما حين كتبت مقالتها " أنت أيها الغريب " التي قالت فيها:

" أنا وأنت سجينان من سجناء الحياة ، وكما يعرف السجناء بأرقامهم يعرف كل حي باسمه ، وقد التقينا وسط جماعات المتفقين فيما بينهم على الضحك من سواهم حينا ، والضحك بعضهم من بعض أحيانا، أنا منهم وإياك غير أن شبهك بهم يسوءني ، لأني إنما أقلدهم لأريك وجها مني جديدا ، وأنت ، أتجاريهم بمثل قصدي أم الهزء والاستخفاف فيك طوية وسجية ؟

ولكن رغم انقباضي للنكتة منك والظرف ، ورغم امتعاضي للتغافل منك والحبور ، أراني وإياك على تفاهم صامت مستديم يتخلله تفاهم آخر

(❖) طاهر الطناحي : أطياف من حياة ميّ ، مرجع سابق، ص ٧٨ .

يظهر في لحظات الكتمان والعبوس والتأثر .

بنظرك النافذ الهادئ تذوقت غبطة من له عين ترقبه وتهتم به ، فصرت ما ذكرتك إلا ارتدت نفسي بثوب فضفاض من الصلاح والنبل والكرم ، متمنية أن أنثر الخير والسعادة على جميع الخلائق .

لي بك ثقة موثوقة ، وقلبي العتى يفيض دموعا ، سأفزع من رحمتك إلى إخفاق الأماني وأبثك شكوي أحزاني .. أنا التي تراني طروبة طيارة .

وأحصي لك الأثقال التي قوست كتفي وحنت رأسي منذ فجر أيامي .. أنا التي أسير محفوفة بجناحين متوجة بإكليل .

وسأدعوك أبي وأمي .. متهيبة منك سطوة الكبير وتأثير الأمر ، وسأدعوك قومي وعشيرتي ، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دوما بالمحبين ، وسأدعوك أخي وصديقي ، أنا التي لا أخ لي ولا صديق ، وسأطلعك على ضعفي واحتياجي إلى المعونة ، أنا التي تتخيل في قوة الأبطال ومناعة الصناديد ، وسأبين لك افتقاري إلى العطف والحنان ، ثم أبكي أمامك وأنت لا تدري ، وسأطلب منك الرأي والنصيحة عند ارتباك فكري واشتباك السبل ، وإذ أسيء التصرف وأرتكب ذنبا ما سأسير إليك متواضعة واجفة في انتظار التعنيف والعقوبة ، وقد أتعمد الخطأ ، لأفوز بسخطك علىّ ، فأتوب على يدك وأمتثل لأمرك ، وسأصلح نفسي تحت رقابتك المعنوية مقدمة لك عن أعمالي حسابا لأحصل على التجنيد منك أو الاستنكار ، فأسعد في الحالين ، وسأوقفك على حقيقة ماينسب إلىّ من آثام، فتكون لي وحدك الحكم المنصف وما يحسبه الناس لي فضلا وحسنات ،

سأبسطه أمامك فتنبهني إلى الغلط فيه والسهو والنقصان ستقومني وتسامحني وتشجعني وتحتقر المتحاملين والمتطاولين، لأنك تقرأ الحقيقة منقوشة على لوح جناني .

كما أكذب أنا وشاية منافسيك وبهتان حاسديك ، ولا أصدق سوى نظرتي فيك وهي أبر شاهد كل ذلك وأنت لا تعلم .. سأستعيد ذكرك متكلما في خلوتي لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك . حكاية البشر المتجمعة في فرد واحد.. وسأستمع إلى جميع الأصوات على أعثر على لهجة صوتك وأشرح جميع الأفكار وامتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديري لآرائك وأفكارك .

وسأتبين في جميع الوجوه صور التعبير والمعني ، لأعلم كم هي شاحبة تافهة لأنها ليست صور تعبيرك ومعناك . وسأبتسم في المرآة ابتسامتك... في حضورك سأتحول عنك إلى نفسي لأفكر فيك ، وفي غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك .. "(❖).

والذي نرجحه أن ميا كانت تعني بذلك الغريب عباس العقاد ، الذي يعيش في القاهرة غريبا عن الأب والأم ، فبينه وبينهما آلاف الأميال والعلاقة بين العقاد وميّ كنت وقتذاك قد قطعت شوطا كبيرا .

وكان العقاد – رحمه الله – شديد الحساسية والتأثر الشديد ، لم لا وقد أثبتت الدراسات العلمية والنفسية أن أقوى الرجال أسرعهم إلى التأثر والحساسية ، وكان العقاد شديد التقدير لميّ ، وشديد الحساسية أيضا لقيمة الحب ، فالحب – في رأيه –اندفاع روح إلى روح ، واندفاع جسد إلى جسد ، وهو قضاء وقدر فهو يرى أننا لا نحب حين نختار ولا نختارحينما نحب ، وأننا مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت .

(❖) المؤلفات الكاملة : جـ٢، ص ٣٥٨ ، ٣٦٠ .

وجاء صيف ١٩٢٥ وسافرت ميّ إلى إيطاليا ثم غادرتها إلى ألمانيا ، واستمرت تراسل العقاد برسائل اتسمت بالعاطفة المشبوبة ، التي تنم عن الشوق المكبوت ، حفزت العقاد إلى التعبير الصريح عما يكنه نحوها من شعور عميق وحب روحي صادق.. فرد على إحدي رسائلها بهذه الأبيات التي لم تنشر في ديوان .. (❖).

" آنستي العزيزة ميّ .. القاهرة ٢٥ يوليو ١٩٢٥

أبعث بهذه الأبيات من وحي رسالتك الأخيرة :

آل روما لكمو منـي الولاء

وثناء عاطر بعد ثناء

وسلام كلما ضاء لنا

طالع الإصباح أوجن مساء

في حماكم كعبة ترمقها

مهج منا وآماق ظماء

كعبة لا كالتي يعمرها

بينكم رهط القسوس الحنفاء

كرمت روما وذكرها بها

وبنور روما ومن تحت السماء

نزلت ثم حجيجا داعيا

وهى أولى بحجيج ودعاء

أنت في روما وفي مصر أنا

بعدت شقتنا لولا النجاء

(❖) الطناحي: مرجع سابق ص ٨٦ .

بيننا جيرة نور ساطع

فوق رأسينا ونور في الخفاء

أرقب البدر إذا الليل سجا

فلنا منه على البعد لقاء

وأرود الشعر في مثل الكرى

فإذا فيه من الطيف عزاء

حلم الصادي فمن يوقظه

وعلى "فيه " من الماء شفاء"

وتلقت ميّ وهي في روما هذه الرسالة " القصيدة " فوجدت فيها الشعور العميق نفسه الذي يشعر به العقاد تجاهها ، فكتبت إلى العقاد من برلين في ٣٠ أغسطس ١٩٢٥ رسالة ردا على قصيدته تقول فيها : ".. إنني لا أستطيع أن أصف لك شعوري حين قرأت هذه القصيدة ، وحسبي أن أقول لك إن ما شعرت به نحوك هو نفس ما شعرت به نحوك منذ أول رسالة كتبتها إليك وأنت في بلدتك التاريخية أسوان ، بل إنني خشيت أن أفاتحك بشعوري نحوك منذ زمن بعيد – منذ أول مرة رأيتك فيها بدار جريدة " المحروسة" إن الحياء منعني ، وقد ظننت أن اختلاطي بالزملاء يثير حمية الغضب عندك ، والآن عرفت شعورك ، وعرفت لماذا لا تميل إلى جبران خليل جبران " ، ثم قالت في نهاية رسالتها .. ".. لا تحسب أنني أتهمك بالغيرة من جبران فإنه في نيويورك لم يرني، ولعله لن يراني ، كما أني لم أره إلا في تلك الصور التي تنشرها الصحف، ولكن طبيعة الأنثي يلذ لها أن يتغاير فيها الرجال وتشعر بالازدراء حين تراهم يتنافسون عليها .. أليس كذلك .. معذرة فقد أردت أن أحتفي بهذه الغيرة ، لا لأضايقك ،

ولكن لأزداد شعورا بأن لي مكانة في نفسك ، أهنئ بها نفسي ، وأمتع بها وجداني ، فقد عشت في أبيات قصيدتك الجميلة وفي كلماتها العذبة وشعرت من معانيها الشائقة ، وفي موسيقاها الروحية ما جعلني أراك معي في ألمانيا على بعد الشقة ، وتنائي الديار .. سأعود قريبا إلى مصر ، وستضمنا زيارات وجلسات ، أفضي فيها لك بما تدخره نفسي ، ويضمه وجداني ، فعندي أشياء كثيرة سأقولها لك .. وأنا أجد فيك الإنسان الذي أراه أهلا للثقة به والاعتماد عليه.. "

وكانت أديبتنا تضع في رسائلها إلى الأستاذ العقاد بعضا من خطراتها ، مما يناسب عاطفة الحب التي ربطت في ذلك الحين بين قلبيهما ، وكان العقاد يضع كذلك ضمن رسائله بعض كلماته العاطفية نثرا وشعرا .. وكثيرا ما نظم في ميّ القصائد دون أن يصرح باسمها ، فكان يسميها هند أو ليلى أو غيرهم من الأسماء المستعارة .

وانتهت رحلة ميّ في ألمانيا وعادت إلى مصر ، فعلمت أن العقاد سافر إلى أسوان لوفاة شقيق له ، وأرسلت إليه تلغرافا ، ورد عليها برسالة يشكرها على مشاركتها الوجدانية له في مصابه، ومن تأثير رسالة العقاد الحزينة ترجمت له فصلا كتبته بالفرنسية في كتابها" زهرات حلم " بعنوان " كآبة " ولما حضر العقاد من أسوان طلب منها أن يلتقي بها في" غير الثلاثاء"- موعد صالونها – فوافقت وفي أول لقاء ضمهما بعد غيبة . جلسا معا في غرفة المكتب وقدم لها العقاد ثمانية أبيات جعلها بعنوان "مولد الحب"فتناولتها فإذا فيها :

ولد الحب لما عاش الوليد وحماه الله من كيد الحسود
وبدا في مهده ، بل عرشه ضاحكا يأمر فينا ويسود
"ميّ " ما نرضعه ؟.. نرضعه بأفاويق حياة لا تبيد

ولندلله ونشئه على غبطة العزة والعيش السعيد
وليعش طفلا على طول المدى هكذا يخلد أطفال الخلود
نتولاه بعطف دائم وأناشيد حسان ووعود
وغذاء من يذقه يبتعد أبدا عن كبرة العمر المديد
إنه من روحنا ان نحيه يحينا فى غده هذا الوليد

قرأت ميّ هذه الأبيات ، فسرتّ سرورا كبيرا وأثنت على شعر الأستاذ العقاد وقالت تداعبه : "إن من يقول هذا الشعر جدير بأن يغار منه جبران لا أن يغار من جبران" ؟ .

وفى صيف ذلك العام سافر العقاد إلى لبنان ، فما كادت أن تمضى عليه بضعة أيام في ربوع لبنان حتى أرسل إلى مىّ رسالة يعبر عن غربته ووحدته قائلا: « لقد أصبحنا بديلين : أنت فى مصر وأنا فى لبنان ، ولكننا شريكان في وطن كبير واحد هو الوطن العربى . وإذا كان كل منا نازح عن داره إلى دار صاحبه ، فإن حبنا قد ربط ما بين الدارين برباط وثيق » .

وكتب إليها قائلا شعرا :

غريب الدار عند الليل تذكره من وامق في ربي لبنان مغترب
تبنا بديلين والدنيا تبدلنا فيالنا من شريكى موطن عجب
كلاهما نازح في دار صاحبه وداره في الهوى موصولة السبب
يابنت لبنان أُقرءك التحية من هضاب لبنان .. بين البحر والشهب
أمسيت ضيفك في أرض لبست بها وضي الصبا وبرود الحسن والطرب
أرى مثالك فيها حيثما طمحت عيني..وأخلو له في كل مرتقب
فأنت لبنان في زهر وفى ثمر وأنت لبنان في ماء وفى عشب

وفي نقيضيه من وعر ومن دمث وفى مزيجيه من نور ومن سحب

وكانت أكثر رسائل العقاد إلى ميّ مملوءة بالشعر ، بل إن بعضها كان شعرا خالصا (وقد نشر العقاد هذه القصائد في الجزء الرابع من ديوانه عام ١٩٢٨). وعن علاقة العقاد بمي يقول الأستاذ عبد الفتاح الديدي: (❖) يبدو أن هذه الفتاة لعبت أخطر دور فى حياة العقاد ، لأنها أعطته السعادة وما لم يكن يخطر له على بال ولكنها وقفت أمامه ندا لند وناوأت رجولته وسطوته وكبرياءه، وصدمت أحلام العقاد بفرديتها واستقلالها وشبابها المتأنق المدرك لأصول العلاقات ، فقال فيها :

لا أنا أعمى فأستريح ولا أنت من الحسن والصبا عاطل ..
بأي معنى عليك لا تعلق العين وأنت المبرأ الكامل ..
بوجهك الغض أم بقامتك الهيفاء .. ويحي أم خصرك الناحل ..
أم بسهام العيون تكسرها في حبة القلب أيها القاتل ..

وكان العقاد على علاقة حب بـ « سارة » بطلة روايته و « سارة » هو اسمها المستعار، وكانت ميّ لا تعلم من شأن « سارة » شيئا ، وكانت « سارة» لا تعلم من شأن « ميّ » إلا أن « العقاد » يعرفها معرفة أدبية ، ولكنها كانت تتبرم عندما يزور العقاد « ميا» وكانت تجتهد في أن تشغله عن اللقاء بها.

وهنا نسأل العقاد كيف جمع بين هذين الحبين « حب ميّ » و « حب سارة » ويجيب عن هذا السؤال ، فيقول :

«إذا ميز الرجل المرأة بين جميع النساء ، فذلك هو الحب !.. واذا أصبح النساء جميعاً لا يغنين الرجل ما تغنيه امراة واحدة فذلك هو الحب! .. وقد يميز الرجل امرأتين في وقت واحد، لكن لابد من اختلاف بين الحبين فى النوع،

(❖) عبدالفتاح الديدى : عبقرية العقاد، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، د.ت، ص ١٠٢ .

أو في الدرجة أو في الرجاء ، فيكون أحد الحبين خالصاً للروح والوجدان ، ويكون الحب الآخر ، مستغرقاً شاملاً للروحين والجسدين . أو يكون أحد الحبين مقبلاً صاعداً ، والحب الآخر آخذا في الإدبار والهبوط .. أما أن يجتمع حبان قويان من نوع واحد في وقت واحد ، فذلك ازدواج غير معهود في الطباع ، لأن العاطفة لا تقف ولا تعرف الحدود ، وإذا بلغت العاطفة مداها جبت ما سواها..»

ثم يعترف واصفا ما كان بينهما بصيغة المتكلم:

«وقد كنت أحب ميّ حين التقيت بسارة لأول مرة .. أحببتها الحب الذى جعلنى أنتظر الرسالة ، أو حديث التليفون كما ينتظر العاشق موعد اللقاء ، وكنا كثيرا ما نتراسل ونتحادث ، وكثيراً ما نتباعد ونلتزم الصمت الطويل إيثاراً للتقية، واجتناباً للقيل والقال ولكننا في جميع ذلك كنا أشبه بالشجرتين منهما بالإنسان تتلاقيان ، وكلاهما على جذوره وتتلامسان بأهداب الأغصان ، أو بنفحات النسيم العابر من هذه الأوراق ، وكنت أغازلها فتوميء إليّ بأصابعها كالمنذرة المتوعدة ، فإذا نظرت إلى عينيها لم تنهني ، ولكننى أدري أن الزيادة ترتفع بالنغمة إلى مقام النشوز!..

وكنا أشبه بالنجمين السيارين في المنظومة الواحدة ، لا يزالان يحومان في نطاق واحد، ويتجاذبان حول محور واحد ، ولكنهما يحذران التقارب .. لأنه اصطدام » (❖) ولم تكن ميّ ، لتعتقد الرهبانية في العقاد ولا لتزعم بينها وبين وجدانها أنه معزول عن عالم النساء ، غير أنها لم تكن تحفل اتصاله بالنساء

(❖) الطناحى : مرجع سابق ، ص ١٠٩، ١١٠ .

مادمن اسمهن نساء لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة ، وشبح غرام واحد، ..

« فلما شعرت بأن النساء تحولن عنده إلى امرأة ، لها شأن غير شئون أخواتها من بنات حواء .. زارته على حيث غرة فى مكتب عمله وهى الزيارة الأولي و الأخيرة من قبيلها ، ولم يكن لها مسوغ من طول الغيبة ، ولا امتناع حديث التليفون ، فما شك لحظة في غرض الزيارة ولا في باعثها ، وتوقع منها عتبا عنيفا على أسلوبها في التعبير الصامت المبين ولكنه علم سلفا أنها غير منصفة في عتبها ، لأنه لم يختلس منها شيئاً هو من حقها عليه . فرحب بها وأبدي لها استغرابه لزيارتها وابتهاجه بسؤالها عنه ، وأنصت مترقبا .. فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج : - لست زائرة ولا سائلة قال : - إذن .. ولم يتمها لأنها نظرت إليه كمن يستحلفه ألا يتكلم، وانحدرت من عينيها دمعتان فما تهالك نفسه ، أن تناول يدها ورفعها إلى فمه يقبلها ويعيد تقبيلها نهته ولم تكف النظر إليه . ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة وهى تتمتم هامسة : دع يدي . ودعني ! ثم انصرفت بعد أن سكن جأشها وزال عن صفحة وجهها أثر الدموع..» (❖).

وقد سجل العقاد هذا المشهد في أكثر من قصيدة شعرية ، يقول في قصيدة «تبكين » :

تبكين ! وألهف الفؤاد يذيبه	ذاك الحنين يذوب في خديك
أيراك باكية وأنت ضياؤه	ونعيم عيشى كله بيديك
وعزيزة تلك الدموع فليتها	يقنو قطيرتها نظيم سليك
لملأت ثم يدي بأكرم جوهر	من عطف قلبك فاض من عينيك

(❖) عباس محمود العقاد : سارة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥، ص ١٤٧ .

ويقول فى قصيدة أخرى :

صافحيني! ألا مصافحة اليوم ولا قبلة على الكف عجلي
أغضابا تحمينها أم دلالاً أم حذار الرقيب تنأين خجلى

ومع مرور الزمن وتولى عهد الشباب بالنسبة لميّ والعقاد تواري حبهما ، وقد شيع العقاد هذا الحب الراحل بقصيدة طويلة بعنوان « موت الحب » جاء فيها :

ولد الحب لنا وافرحتاه وقضى فى مهده وأسفاه
مات لم يدرج ، ولم يلعب ولم يشهد الدنيا ، ولم يعرف أباه
ليته عاش فأما إذ قضى فليكن برداً على القلب جواه
أشكر الموت وأشكوه معا غال حبى قبل ما تنمو قواه
غاله وهو صغير قبلما تكبر البلوى به يوم نواه
فتولى رحمة الله على أمل لاح ولم يبلغ مداه
آه لو تغنى من اللوعة آه ليتنى أسمع فى القبر صداه

أحمد لطفى السيد

كان لطفى السيد شغوفاً بالأدب العربى – لا سيما الشعر منذ أن كان طالباً في كلية الحقوق ، وقد اهتم بالأدب بعد تخرجه – وهو في الوظائف المختلفة التى تولاها ، وهو في النيابة ، وهو في المحاماة . وتولى لطفي السيد تحرير صحيفة « الجريدة» سنوات عدة، وكانت بداية تعرفه بميّ زيادة أنه كان يصطاف في لبنان عام ١٩٩١. وبينما هو يتناول عشاءه فى فندق « يسو » ببيروت ، لاحظ بالقرب منه فتاة تجلس إلى مائدة مجاورة ، وهى تتحدث بالفرنسية حديثاً

فصيحاً مع قنصل فرنسا فى مصر ، وكانت تدافع عن المرأة الشرقية دفاعاً حاراً قوياً ، فسأل لطفى السيد صديقه خليل سركيس: من تكون هذه المتحمسة للمرأة الشرقية ؟ فأجابه : إنها ماري زيادة ابنه الصحفى المعروف إلياس زيادة صاحب جريدة « المحروسة » وكانت «المحروسة» تصدر في مصر وقتذاك ، وبعد أن انتهت من حديثها مع القنصل قدمها سركيس إليه .

ولما رجع لطفى السيد ، ورجعت ميّ من مصيفها إلى مصر ، أهدته كتابها «ابتسامات ودموع » وهذا الكتاب رواية عاطفية ترجمتها إلى العربية عن اللغة الألمانية ، وكانت قد أصدرت ميّ قبل هذا الكتاب كتابين ، وكانت الفرنسية تغلب عليها في اطلاعها وكتاباتها وهذا يؤثر بالطبع على أسلوبها العربى . وكانت وقتذاك تنشر في جريدة والدها « المحروسة » مقالات بعنوان « يوميات فتاة»، وقد لاحظ الأستاذ لطفى السيد في هذه المقالات أن كاتبتها في حاجة إلى العناية باللغة العربية ، فنصحها بقراءة الأدب العربي ، وكان يقرأ مقالها كل يوم في اليوميات ، ويصحح أخطاء المقال ومآخذه عليه بالقلم الأخضر ، ويمضى هذا التصحيح بإمضاء «لطفى» ويرسله إليها .. وكان هذا بدافع إعجابه بنبوغ ميّ .

وذات يوم كان جالسا يتحدث معها فقال لها: «لابد لك يا آنسة من تلاوة القرآن الكريم ، لكى تستفيدى من بلاغة معانيه ، وفصاحة أسلوبه فقالت له ميّ: ليس عندي نسخة من القرآن . فقال لها : أنا أهدي إليك نسخة منه !.. وبعث إليها الأستاذ لطفى السيد في اليوم التالى نسخة من القرآن الكريم ، مع كتب أخرى في الادب العربى .

تقول " مي "عن فضل لطفي السيد عليها : «.. ابتدأت أفهم من لطفى السيد اتجاه الأسلوب العربي ، وما في القرآن من روعة جذابة ساعدتنى على تنسيق كتابتي ، ورقي أسلوبي » (❖) ، وكانت ميّ تحترم لطفي السيد لعلمه ومكانه وقلمه البليغ ، ثم تطور هذا الاحترام إلى إعزاز وتقدير ، فأخذت تثق به كل الثقة وتنزل له من نفسها منزلة عزيزة ، وتستشيره في الكثير من شئونها ، وتسر إليه بما تخفيه عن غيره من الأصدقاء والأقرباء ".

وبين عامي ١٩١١.. ١٩٢١، تبادل لطفي السيد معها الرسائل الأدبية ونكتفى بذكر مقتطفات منها: في يوليو عام ١٩١٣ سافر لطفى السيد إلى الإسكندرية للاصطياف، وكان قبل سفره مثابراً علي حضور صالونها كل أسبوع ، وما كاد يمضى أسبوع واحد على سفره حتى اشتاق إلي رؤيتها، فبعث إليها رسالة في ١٥ يوليو من ذلك العام جاء فيها: «كتابى يلقي إليك في صحة وسلامة وصبر علي هذا الحر، الذى ربما شبهه بعض أصحابنا الشعراء بشوق المحبين، يقص عليك إننى أذكرك دائماً كلما هبت نسمات البحر، وقابلت بينها وبين لوافح القاهرة، وكلما تجلى علينا البدر يضىء البر والبحر علي السواء، ويملأ العيون قرة، والقلوب رضا ، وكلما جلست على شط البحر أتعشى وسط أصحابي، كما كانت حالي وقت أن رأيتك لأول مرة، وسمعنا حديثك وأعجبت بك أذكرك كلما خطر ببالي النظر إلى حال المرأة الشرقية ومستقبلها وعلى من نستطيع أن نعتمد في المساعدة على انتقالها إلى الأفق الذى نرجوه. وكلما قرأت من الشعر ومن النثر أفكارا تتناسب أفكارك أو تختلف عنها. أذكرك كلما هاج البحر، وألفت عقلى

(❖) الطناحى : مرجع سابق، انظر القسم الثانى « أدباء أحبوا ميّ » .

إلى مظهر الغضب في وجه الطبيعة الباسم ، وآثار الغضب في نفوس بني آدم حتي في نفس فتاة أرحبهم صدرا وأحسنهم خلقا، وألطفهم مجاملة، وأسرعهم معاملة، وأرقهم قلبا.. أذكرك في كل وقت ، ولا أجرأ أن أكتب إليك إلا في ميعاد الزيارة ، لكيلا أضطرك مكرهة بتقاليد الأدب أن تردى عليّ بالكتابة كلما كتبت إليك. على أني أعرف أن كثيراً غيرى لهم تراسل قد يضيق وقتك عن العطف عليهم .. فاعذري قلما حساساً، غيوراً طماعاً يجرى إلى ما يحب كالسيل المتدفق.».

وبعد أن قضى لطفى السيد في مصيف الإسكندرية نحو شهرين سافر إلى بلدته « برقين » فكتبت إليه ميّ خطاباً يتضمن عواطفها النبيلة ، وقد سطرت فيه جانباً من أفكارها الأدبية والاجتماعية ، فرد عليها بخطاب في أول سبتمبر ١٩١٣ جاء فيه :

«لست في حاجة إلى العنوان ، لأني لا أريد أن يقرأ كتابى من عنوانه ، ولست في حاجة إلى ندائك من بعيد، أو قريب ، فأنت من نفسى أقرب من أن تناديك جاءنى كتابك ، فشممته مليا ، وقرأته هنيئاً مريئا، وإنى ممتنع نهائيا عن أن أشرح لك العواطف حقيقة بكل معنى الكلمة . وكل ما يأذن لي تهيبك أن أبوح به هو أني من الصباح إلى هذا المساء وأنا وحدى ، فلم أستطع أن أمسك القلم ، لأجيب عنه بصراحتى العادية، فما وجدت بدا من الركون إلى أسلم الطرق ، وهو أن أحفظ لنفسى وصف الاغتباط الذى نالنى من هذا الكتاب» .. « .. اعترفى بأنك كنت في ساعة من ساعات تجلياتك حين كتبت لى هذه الرسالة، إن فيها أفكاراً ومرامي ذات وزن كبير وفيها مقاصد ومعان تكاد تطير من خفتها، أو تذوب

من رقتها.. أجناية أن أتحدث بهذه السابغة . إلا أن للأرواح أيضاً غذاء يتنزل عليها من مكان أسمى من مكانها العادى ، وهزة تأخذها حين تتقابل جاذبيتها ، لعل ذلك هو سر السعادة الإنسانية التي يلتمسها الناس ، فلا يعرفون طريقها..».

وعلى الرغم مما في رسائل لطفى السيد من عاطفة مشبوهة ، فإنها تتخللها المعاني الإنسانية والخواطر الفلسفية ، ففي ٢٩ أبريل عام ١٩١٤ بعث إليها خطاباً يتضمن العديد من الخطرات الإنسانية ، التى لا يصرح بها المرء إلا لعزيزعليه ، يقول فى هذا الخطاب « .. أكتب إليك تحت سلطان شعور أقرب ما يكون من مشاعر الحزن الصامت ، حزن لا يعترف به لأنه غير معروف المصدر ، ولا محدد الجهات .. ولكنه مع ذلك حزن !.

الطيور تغرد حولى من كل ناحية ، وما هي إلا حمامتان وعصافير شتى أدفعها عن الدخول في « أودتى » وهى لا تندفع ولا تخافنى كأنها علمت بأنى أنا شجى بها .. تنتقل الحمامتان من فوق ستارة إلى ستارة أخرى ، كأنهما تقولان لى: نحن أليفان سعيدان ، وصديقان مجتمعان ، فأين صديقك أنت ؟!

والواقع أن العصافير الصغيرة ترى بيتنا أفسح من أن يكون لنا وحدنا ، فتريد أن تبنى أعشاشها في الشبابيك ، ونحن نطردها ، وما أقلنا كرما .. ونحن مع ذلك ندعى من زمان أننا نحب الاشتراكية، ونحب المساواة ونتواصى ببر الضعفاء!.

أنا لا أطرد العصافير إكراماً لخاطر كنارك الصغير ، ولا أهيج الحمام إكراماً لما اشتهر به من معني الوفاء فى الصداقة وحسن العشرة ..

إني لا أجد بأساً من أن أكتب إلى صديقة تفهمنى جد الفهم ، وأنا غير جذل القلب ولقد ظفرت فعلاً ببغيتي ، فإنى ما زلت أحدثك حتى شعرت اللحظة بسعة الصدر بعد شقيه ، وانبساط في حال النفس بعد تقبضها ، ورغبة في إطالة هذا الحديث ، وقد اطمأننت وأنت أمامى أخاطبك.. » .

ويقول فى رسالة أخرى بعثها من باريس ١٥ أكتوبر ١٩٢٠: « أف لهذا الإنسان ، ولكنه لا يستحي ، وأنا أيضاً إنسان ، ومع ذلك أستحي من إبداء الشوق المبرح إلى لقائك ، وأرجوك ألا يخدعك قولى ، فتظنين أنى فوق الإنسان العادى كلا ، فلطالما أصليت صغار الطير ناراً حامية من بندقيتى ، لا لآكل بل لألعب بالنفوس البريئة ، التى هى مثلى لها حق في الحياة !.

من الحمق أن أطيل القول في هذه المعاني إليك، إليك أنت التي قد لا تلعبين بالنفوس الصغيرة ، ولكنك تلعبين بالنفس الكبيرة .. ».

وكانت ميّ سعيدة باهتمام أستاذ الجيل ، فحافظت على صداقته ومودته ، واستقبلته مع الصفوة من زوارها في غير أوقات الصالون .. يقول لطفى السيد في إحدى رسائله إليها : « .. ولشد ما أرجو أن أراك فى كل الأوقات إلا يوم الثلاثاء يوم زيارتك إذ يجب على كل إنسان أن يقول لى شيئا إلا رأيه الحقيقي في الأشخاص وفي الأشياء ! .. لا تظني أني أغار من الذين يمدحونك أمامي وأمامك ولو كانوا كلهم الدكتور شميل » ، والدكتور شبلى شميل الذى يشير إليه لطفى السيد فى رسالته كان من أصدقائها ومن رواد صالونها ، وكان متيماً بحبها وكثيراً ما نظم قصائد الحب والإعجاب فيها .

وبعد أن استعرضنا مقتطفات من الرسائل الأدبية المتبادلة بين لطفى

السيد ميّ فإننا نرى، إذا كانت العلاقة بينهما من أقوى العلاقات الإنسانية فى تاريخهما فإنه مما يجدر الإشارة إليه أن لطفى السيد فقد زوجته عام ١٩١٠ وبقى حتى وافته المنية عام ١٩٦٣ أعزب.

وأرجح أن العلاقة بينهما لم تتعد كونها علاقة طالبة بأستاذ تجله وتحترمه، وإعجابها بعلمه وشخصيته لا يعنى عشقها له .. كما أننا لا يجب أن نغفل فارق السن بينهما .

إسماعيل صبرى

كان الشاعر إسماعيل صبرى يكبر ميّ بنحو ثلاثين عاما ، وكان أول اجتماع لصالونها الأدبى عقد تحت رئاسته ، وكان "صبري " رجلاً مهذباً شديد التهذيب ، ورغم فارق السن بينه وبين ميّ إلا أنه أغرم بها وفضح هذا الهوى شعره ونثره .. وكان أول لقاء بها حين بعث إلى والدها « إلياس زيادة » صاحب جريدة «المحروسة» يطلب أن يزوره ليتعرف إلى فتاته التى أعجبه القاؤها وخطبتهافي حفلة تكريم خليل مطران . وكانت « ميّ » وقتئذ قد بدأت تكتب فى هذه الجريدة «يوميات فتاة » فأجابه الأستاذ إلياس بالترحيب وحدد له موعد الزيارة ، فنظم إسماعيل صبرى هذه الأبيات ..

خبرونى اليوم إنى فى غد مالئ عيني منها ويدي
كيف يبقى من قضى الليل على جرف هار إلى ذا الموعد
رب كن عونى وأخرنى إلى أن أرى شمس الضحى من موعدى

يـا أسـاة الحـى لـــو أجـلـتـم   رأيـكـم فـــي إلـــى يـــوم غـــد
رب داء لا يـــرجـــى بـــرؤه   قـد شـفـتـه زورة مـــن مـسـعـد

وزارها إسماعيل صبري ، وكان من أكثر زوارها تردداً هو والشاعر ولى الدين يكن إلى أن توفى عام ١٩٢٣ وتوفي ولى الدين عام ١٩٢١، وقد نشر بعض ما قالاه في الآنسة «ميّ» فى ديوان كل منهما ، ونسى أو فقد البعض الآخر (❖).

ويذكر أنهما اجتمعا عندها ذات ليلة من لياليها الأدبية العامرة ، فأطلعتهما على صورة لها نقلها أحد المصورين حديثاً ، فارتجل الشاعر اسماعيل صبري هذين البيتين :

أرسلى الشعر خلف ظهرك ليلا
واعقديه من فوق رأسك تاجاً
أنت فى الحالتين بدر نراه
صادعاً آية الدجى وهاجاً

أما الشاعر ولي الدين ، فنظر فوجدها متكئة – فى الصورة – بيدها على المقعد ومسندة عليها خدها كمن يفكر ويستمع لوحى فكرة ، ثم انتحى ناحية من المجلس ، ومكث برهة يكتب ، ثم عاد إلى الحاضرين فأنشد فى وصف هذه الصورة .

أوحى إليها ربها وحيه
ألا تراها وهى تستمع
رقت معانيها وألفاظها
كأنما ألفاظها أدمع
ياميّ ما في الكون من بهجة
إلا ومن عينيك لى تسطع

(❖) المرجع السابق : ص ٣٤ ، ٣٥ .

وذات مرة اضطر اسماعيل صبرى للتخلف عن حضور صالونها الذى ينعقد فى الثلاثاء من كل أسبوع فبعث إليها بهذين البيتين يوم الاثنين ، وهما :

روحى على بعض دور الحي حائمة

كظامئ الطير حواما على الماء

إن لم أمتع « بميّ » ناظرى غداً

أنكرت صبحك يايوم الثلاثاء

وقال أيضاً فى ازدحام نوابغ الأدب فى صالونها :

يا من أقام فؤادي إذ تملكه

ما بين نارين من شوق ومن شجن ..

تفديك أعين مَنّ مِن حولك ازدحمت

عطشى إلى نهلة من وجهك الحسن ..

وتستعيذ إذا ألفتك مبتسما

على لؤلؤ بالنهى حرزاً من الفتن ..

جردت كل مليح من ملاحته

لم تتق الله في ظبى ولا غصن ..

فاستبق للبدر بين الشهب رتبته

تملكه فى أوجه عبداً بلا ثمن ..

وكتب إسماعيل صبرى تحت بيتين نُسبا إلى ميّ (أو كتبهما أحد رواد صالونها على لسانها .. وهذا ما نرجحه) وهما :

فديتك يا هاجرى فهل ترتضي بالفدا

سهرت عليك الدجى وبحتُ ولكن سدا

فرد عليها قائلاً :

أهاجرتى أطفئي لواعج لا تنتهى

مضت فى هواك السنون وما نلت ما اشتهى

إذا قيل مات الأديب بفاتنة ... أنت هى

ويقال إنها كتبت تحت هذه الأبيات السابقة :

زمانك قبلى انتهى ولا يرجع المنتهى

فحسبى أن ازدهى وحسبك أن تشتهى

ونرى أن الأبيات التى نسبت إلى ميّ ، نظمها أحد الشعراء المعجبين بها أو نظمها اسماعيل صبرى نفسه ، لأن أديبتنا لم تنظم فى حياتها بيتاً واحداً من الشعر العربى لكنها كانت متيمة بالشعر ، تطرب نفسها بسماعه ، وتعتز بشعر «إسماعيل صبرى » فى وصفها وتقول إن اسماعيل صبرى يتميز عن شعراء عصره بلطف ذوقه ورقة حسه ، وحلاوة جرسه ، كتب إليها اسماعيل صبرى تهنئة بالعام الجديد ، ببيتين من الشعر بعثهما إليها ، فقال :

ياغرة العام جوزى الأفق صاعدة إلى السماء بآمال المحبينا

إني سألت لك الأيام صافة يا « ميّ » قولى معى بالله آمينا

وإذا كانت قد أعجبت بأحاديث وأشعار إسماعيل صبرى فإنه إعجاب القارئة الأديبة المتذوقة لشعر جيد تعتز به ، وأظن أن إسماعيل صبرى نفسه كان يلمح تقدير ميّ لشعره وتقديرها لأستاذيته من خلال ندوتها .

مصطفى صادق الرافعى

كان مصطفى الرافعى يقيم فى طنطا ، حيث تعيش زوجته وأولاده

العشرة ، وكان يكبر ميا بأكثر من ثلاثين عاما ، وقد كان دائما يبكر في الحضور إلى صالونها الأسبوعى ، وهو فى كامل أناقته ، وكانت ميّ تستقبله بحفاوة تليق بشاعر ينافس أحمد شوقى على إمارة الشعر ، وكانت توليه عناية خاصة ، وربما ذلك يرجع إلى أن الرافعى كان مصابا بالصمم مما جعل مشاركته فى الأحاديث الدائرة فى الصالون قليلة ، وقد شعر الرافعى بهذه العناية ، فكتب إلى ميّ رسائل «أوراق الورد – ١٩٢٣» فلما لم يجد لرسائله صدى كتب رسائله الثانية «رسائل الأحزان – ١٩٢٤ » وفى نفس العام كتب رسائله الثالثة « السحاب الأحمر» وعرضت ميّ رسائل الرافعى الأولى فى صالونها ، وكان تصرفها هذا من الأسباب التى أشعلت المعركة الفكرية بين العقاد والرافعي ، يقول الرافعى فى إحدى رسائله ، التى كتبها فى ٧ يوليو ١٩٢٣: «لم أتطفل على أحد قبلك ، ولن أتطفل عليك مرتين» .. و كتب إليها أبياتا فى إحدى المناسبات العزيزة لديها قائلاً:

يعز علينا أن تكونى بموسم ولا نلتقى فيه سلاما ولا رداً

فإن كان هذا الغصن أنبت شوكة فما ذاك إلا أنه أنبت الوردا

أنطون الجميل

فى جريدة " المحروسة " التي كان صاحبها « إلياس زيادة » والد ميّ التقى أنطون الجميل بميّ لأول مرة ، فقد كان يتابع مقالاتها المعنونة « يوميات فتاة» ، وكان أنطون الجميل وقتذاك أديباً ذائع الصيت ، هاجر إلى مصر من لبنان عام ١٩٠٩ وكان قبل هجرته يشتغل بالتدريس فى مدارس بيروت ، ثم أنشأ فى مصر مجلة الزهور ، وكانت مجلة أدبية راقية ، ثم

هجر الأدب إلى وظائف الحكومة ، فتولى منصباً رفيعاً فى وزارة المالية إلى أن أحيل إلى المعاش ، فتولى رئاسة تحرير جريدة الأهرام إلى أن توفى .

وقيل إن أنطون الجميل كان متيما بحب ميّ، وإنه رفض الزواج – حتى وفاته – من أجلها وأنه ظل ينتظر فى سنوات عزوبته انفضاض المعجبين من حولها وإقبالها عليه ، ولو جاوز الشباب ، وكان يلقبها باسم « بيبى » أى الرضيع ويلقب نفسه « بالرضيع الآخر » وكان يسمح لنفسه – لعلاقته القوية بأسرتها – أن يزورها في غير أوقات صالونها ، وأن يتحدث إليها تليفونيا ، وأن يكتب إليها خطابات خاصة ، سجلت حبه وإعجابه بها الذى دام طويلاً ومن هذه الخطابات التى تمتلئ بالشعور الفياض نحو ميّ ، ذلك الخطاب الذى كتبه بتاريخ ١٣ يونيه عام ١٩٢٦ يقول فيه: « ..يلذ لى يا ميّ أن أخاطبك باسمك مجرداً من الوصف واللقب ، لأن كل وصف قليل إذا ما قيس بصفاتك ، وكل لقب ضئيل إذا ما اقترن باسمك فاسم «ميّ» وكفاك به من وصف ولقب قد أصبح فى هذا الجيل يرادف حسن البيان وفصاحة اللسان ، ونبوغ العقل ، وكبر القلب ! .. وبعد ، فقد طلع عليّ كتابك مساء أمس فى ليلة العيد مع هلال الشهر ، محوطا بهالة من نور ، هو نور نفسك الفياض ، لا عجب إذا تقبلت ما فيه من عواطف سامية ، وما معه من هدية ثمينة شاكراً ممتنا ، فإن مادون ذلك يستوجب الشكر والامتنان ، فكيف بذلك كله محلى بماشرفتنى به من صداقة غالية !.

على إأى ما أتيت إلى آخر كتابك الكريم حتى مازج شعورى هذا شئ من الاحتجاج الشديد على ما نسبته إلىّ من النقمة على خطك ، والضحك من حروفك ووالله ما رسم خطك إلا كل بديع طريف ، ولا عبرت حروفك إلا عن كل سام

شريف ».. وسافر أنطون الجميل للإسكندرية في ذلك الحين ، فكتب إلى ميّ رسالة من الإسكندرية جاء فيها « .. بلغت إلى البحر مازودتنى له من سلام وتحيات .. الساعة الآن متأخرة من الليل .. ولا يسعنى إلا الانتقال بالفكر إلى تلك الشرفة الشاهقة (يعني شرفة منزلها) ذات الفضل العميم علىّ فى مثل هذه الساعة .. فأقف طويلاً عن الكتابة ضائعاً فى بحار الذكريات .. بل إن الكلمات تعصانى ، فأبحث عنها ولا أجدها. استودعك الله يا بيبى على أمل لقائك بخير وعافية وقد أصبحت أنا «لوتر بيبي».

ومن الشعر الذي نظمه أنطون الجميل في ميّ هذين البيتين:

ميّ وما مي سوى قبس للحسن فوق نوره الشهبا ..

إنى أحيي فيك نابغة حسد الأعاجم عندها العربا ..

عشاق ومعجبون آخرون

كذلك أعجب بميّ أمين الريحانى والدكتور شبلى شميل الطبيب الفيلسوف والدكتور يعقوب صروف والشاعر الأديب ولي الدين يكن ، وغيرهم وغيرهم ..

وأكرر ما قلته فى بداية هذا الفصل «إننى أتناول أبرز العلاقات العاطفية فى حياة كاتبتنا ولا داعى لأن أبرز علاقات هامشية ..كما أن المجال لا يتسع للإفاضة والاسهاب في هذا الموضوع ".

ونتساءل: من الرجل الذى أحبته ميّ زيادة ؟

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال ، يجدر بنا أن نعلم أن مفهوم « ميّ زيادة » للحب يختلف عن مفهوم أية فتاة أخرى .

« الحب عـارض في حيـاة الـرجل ، ولكنه حكاية حيـاة المرأة » هذه المقـولة الشهيرة قالتها امرأة من أنبغ نساء العالم ، ألا وهي مدام « دي ستيل» الفرنسية التى نالت شهرة عالمية ورغم إيمان « دي ستيل » و « ميّ زيادة » بالمقولة السابقة ، فإن كلتيهما عاشت عمرها وعواطفها تذوب جوعاً وظمأ إلى الحب الحقيقي الهانئ ، تقول ميّ زيادة عن الحب: « المفروض أن تسير عاطفة الحب عند المرأة سيرها الطبيعي ابتداء بحب الوالدين ، إلى حب الأخوة والأخوات ، إلى حب الأقارب والأصدقاء ثم يتجه الحب في حينه إلى الخطيب الذى تطلب فيه المرأة طبعاً الحبيب ، ثم حب الزوج والولد والعائلة الجديدة بشتى فروعها وبرغم أن هذا الحب نسيج حياة المرأة ، فإن الرجل الذى اعتاد إذلالها باسم القوة والحضانة ، سد فى وجهها منفذ الانتباه لعواطفها المشروعة ، وأنكر عليها الإفصاح عما ينبئ بأنها ذات يقظة مستقلة ، وكل ما اقتحمته في عالم التعبير خلال العصور المظلمة يكاد يتلخص في وصف النبات والحيوان فى حكايات قصيرة ، ولم تنظم إلا الأناشيد الدينية والصلوات الروحانية ، فإذا خرجت من ذلك فلتصوير حياة الرعاة وعاداتهم ومرحهم في عيشة الخلاء ، أما النساء العربيات فى الجاهلية وفى صدر الإسلام فلم ينظمن على ما أعلم إلا فى المدح وفى الرثاء وما إليهما وقليل ما ينسبونه من شعر الغزل والنسيب إلى بعض الشاعرات.. » .

إن ما ذكرناه من كلام ميّ يمثل رأيها في الحب بالنسبة للمرأة.. وفى رأيى أن هذه النظرة نظرة جزئية وليست كلية فاحصة مدققة ، فالحب إذا كان نسيج حياة المرأة فهو كذلك بالنسبة للرجل نسيج حياته ، فالحب عاطفة إنسانية سامية

بين الرجل والمرأة ،وليس صحيحاً أن الرجل اعتاد إذلال المرأة باسم القوة والحضانة ، وليس أدل على ذلك من أن الأديان أعطيت للمرأة حقوقها وأعادت إليها كرامتها واستقلاليتها . ولعل هذا ظهر جلياً فى تعاليم الدين الإسلامى ، ومن مظاهر ذلك قول الرسول ﷺ عن السيدة عائشة رضى الله عنها: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » . وفى العصر الحديث برعت المرأة في تحرير فكرها وإطلاق براعتها واستقلالها ، فلها الحق فى حرية عواطفها ومشروعيتها ليس في الغرب فقط بل في الشرق أيضاً .. وإن قلة نظم المرأة للشعر الغزلى والنسيب فى العصرين الجاهلى والإسلامى يرجع إلى أن الرجل ينكر على المرأة الإفصاح عن عواطفها ، زعم تنقصه الحجة ، ربما لأن المرأة الشرقية لا تبوح بمشاعرها بسهولة ، ولا تفضح عواطفها فى قصيدة ، فالقلب عند المرأة العربية فطرة والعاطفة مزاج خاص بها وحدها وسر من أسرارها والشعور لديها طبع ، أما التعقل فاكتساب والبوح بالمشاعر تطبع.

إن « ميا » ظلمت الحب وظلمت عواطفها بهذا المفهوم المحدد للحب، الذى طبقته فى حياتها ، فكانت علاقات الحب فى حياتها صداقة جميلة ، فهى القائلة « إن الصداقة تزرع الحياة أزهاراً» ، ولو حللنا محنتها التي ألمت بها فى أواخر أيامها لوجدنا أن من أسبابها خلو حياتها من الحبيب .. لقد شعرت ميّ أن كل من حولها قد حاصرها حصاراً لا مفر منه .. كذلك إن حب الأدباء لميّ ، لم يكن إلا إعجاباً بنبوغها وثقافتها المبكرة وشخصيتها الجذابة ، وما تمتاز به من صفات ساحرة .. ولقد رأينا أن علاقاتها العاطفية بأدباء عصرها - الذين أشرنا إلى بعضهم - لا نستطيع

أن نجزم في كون إعجابهم بشخصية ميّ ، وإعجابها بهم أيضاً قد وصل إلى حد الغرام أو الحب الحقيقى الجاد ! وإلا لكانت إحدى هذه العلاقات تطورت إلى حد قد يكون الزواج أو على الأقل التلميح به ، وإما الرفض أو القبول ، ولا يغير من رأينا ما ورد فى رسائل الأدباء إلى ميّ من كلمات الإعجاب والحب التى كانوا يرسلونها إليها فهى رسائل أدبية من أدباء صناعتهم الكلمة ، أفلا يحسنونها! .. ولعل أطرف تصوير وأذكى وصف لأوضاع الأدباء العاطفية من ميّ ما ورد فى قصيدة للشاعر البيروتى عبد الرحيم قليلات (❖) ألقاها مخاطبا إياها فى حفلة أقامتها – تكريما لها – جمعية تهذيب الشبيبة السورية بمنتدى هول فى الجامعة الأمريكية فى بيروت :

عتبى على الشعراء نزق شعورهم ما شاهدوا حسناء إلا عيثوا
تلقاهم والعثة اشتغلت بما فى الرأس،إن لحظوا المليحة «برغثوا»
كل خفيف الروح كلّ مغرمُ كل بأذيال الهوى متشبث
كل مناجاة وكل دقة كلُ يقول عن القلوب ويلهث
شفاف ظرف .. وارتقاء عواطف وتأنق ، وترفق ، وتريث
سيان لطف هزيلهم ، وسمينهم لا فرق ، أمرد جمعهم والأشعث
أما أنا ، فوحق « ميّ » والنهى عمرى بغير مهمتى لا أبحث
وإذا هم عبثوا بنور رشادهم وسدادهم ، فأنا الذى لا يعبث

وإنى أؤيد الأستاذ العقاد (❖❖) فى أن الرسائل المتبادلة بين ميّ وأدباء عصرها ورواد ندوتها الخاطر العاجل الذى يسبق إلى الوهم فى أذهاننا رسائل عشق وهيام

(❖) فاروق سعد: مرجع سابق، ص ١١٤.
(❖❖) عباس محمود العقا: رجال حول ميّ ، مجلة الهلال، القاهرة، ع مارس، ١٩٦٢.

وهذا الخاطر يجب أن تصححه لمحة سريعة إلى ندوة ميّ ، وطبيعة التحية « العرفية التى تناسبها » بل تستوجبها بقانون الشعر والفن ، وإن لم نقل الجنتلمانية والفروسية ! فتاة جميلة أديبة ، يزورها أدباء وشعراء وكتاب قصة وأصحاب ذوق فى جمال العصمة وجمال الطلعة ، إن فات أحدا من هؤلاء واجب التحية المناسبة للمقام ، فما هو بزائر صالح لمثل هذه الزيارة ، ولو لم تكن زيارة عشق ومناجاة ، وإن فات مياً أن تتقبل هذه التحيات ، أو وجب عليها – كما يخطر على بال الأقدمين – أن تصدها بالعبوس والغضب فليست هى زيارة ندوة إذن .. ولكنها زيارة واحدة قد تنتهى كما تبتدئ عند باب الدار .. وهذا هو تأويل الرسائل على أسلوب الفن العاطفى ، أو العاطفة الفنية ، بين صاحبة الندوة وأكثر من زائر من نخبة هؤلاء الزوار ، ولكل منهم أسلوبه فى تعبيره داخل هذا الإطار من التحية . لطفى السيد وأسلوب الجنتلمان وعبد العزيز فهمى وأسلوب الصمت والخجل وكأنه الصبى فى مجلس الفتيات القريبات . وأنطون الجميل وأسلوب بائع الجواهر فى معرض الهوانهم ، وشبلى الشميل وأسلوب المصارع فى حلبة الفكر والشعور . وخليل مطران وأسلوب موليير على غير التمثيل . وسليم سركيس وأسلوب الدعاية للبيوتات فى صالون من أشهر صالون البيوت ، ومصطفى صادق الرافعى وأسلوب المفاجأة بالكتابة ، التى يغنى الاطلاع عليها من السماع، وإسماعيل صبرى وأسلوب الشاعر الذى يعلم أن حق الغزل الصريح أولى بالرعاية من حق الكتابة والتصحيح .. وأحمد شوقى وأسلوب الإيحاء من بعيد. وعليه تعليق الفليسوف المعجب بالطرفين .. ».

وخلاصة القول إن ميا ظلمت نفسها وظلمها المعجبون بها الذين ادّعوا حبها.

محنة " ميّ "

شاءت الأقدار أن تكتوي ميّ بلهيب حياتها ، وأن تجعل من أيامها حزمة حطب يابسة، تلقى بها في أتون التجربة الأدبية.. فقد ألزمت حياتها أن تسير على منهج لا تحيد عنه ،وهو منهج الكفاح وإثبات الذات ، ولم تلتفت إلى صوت والدتها، التي كانت توصيها وهى ابنة العشرين ، أن تتزوج لا سيما وهى شابة حسناء تستطيع أن تفاضل بين عشرات المعجبين، ولم تكن تعلم مي أن هنالك شيئا يجذب شبابها إلى التلاشى، إنه الزمن الذى هو أقوى من أى شىء آخر ، لم تشغل ميّ نفسها بالمستقبل ، فلم تدخر شيئا لمستقبلها ولم تختر لنفسها زوجا يشاركها رحلة عمرها .

وبدأ النسر المحلق الذى تعود على القمم يعصف به الزمن إلى السفوح ويجعله ينحدر ، وهو جريح لا يملك من أمر نفسه شيئا ، فالعمر أخذ يتقدم بمى وولى عهد الجمال والشباب ، وخلا من حولها المعجبون وفارقها الأصدقاء وتوالت عليها النكبات ، فقدت والديها واحدا بعد الآخر وتوفى جبران خليل جبران رفيق طموحاتها .

في ١٩٢٩/١٠/٢٤ توفي " إلياس زيادة " بعد داء عضال وصراع مع المرض ، زاد من لهيبه ما كابد من شركائه في قطعة أرض بلبنان لم يستطع أن يستخلصها لوحيدته فرحل وتركها مشكلة معقدة .. منغصة حياة ميّ. وفي ١٩٣١/٤/١٠

رحل جبران خليل جبران وقبل أن يودع الحياة تدهورت صحته حتى هزمه المرض ، وقد وعد ميّا بأنه سيعود إلى وطنه الأول لبنان ، لكن قد عاجلته المنية قبل الوفاء بوعده وتوفي فى أمريكا ونقل جثمانه إلى لبنان .

وفي ١٩٣٢/٣/٥ توفيت أمها وبوفاتها فقدت ميّ الحنان والعطف وفقدت كذلك السعادة ، وعادت إلى مشكلة الشركاء والصراع على الأرض الموروثة المعقدة بلبنان ، فعانت طمع المتربصين وأقاويل الشامتين .

وقد حاولت ، بعد وفاة والدتها أن تزيد نفسها انشغالا بالكتابة الأدبية ، فحققت أفضل إنجازاتها ، ولكن صراعها الداخلى ازداد ، وعجزت ميّ عن أن توفق بين أن تكون امرأة جميلة وأديبة عظيمة .. وكما أن الأولى لم تدم لها ، فقد أعجزها أن تقنع بالثانية .

وكأن ما كتبته يوم ترجمت" ابتسامات ودموع "عادت سطوره ماثلة تترى في مخيلتها: " كنت قبلئذ أسير لا ألوى على شيء، إن وقعت عينى على شخص أو طرق سمعي موضوع نظرت في هذا وذاك نظرة استخبار سطحى، أما هناك فطفقت ألقي على نفسى أسئلة منطلقة من جهلى المتعطش إلى الارتواء، من أنا؟ ما هو موقفى في الدنيا؟ لماذا تزعجنى بعض الأحاديث، وتسخطنى بعض الوجوه في حين أرتاح لأحاديث أخرى وتجذبنى وجوه غيرها؟ لماذا أحب هذا ولا أحب تلك ؟ لماذا ينفث هذا في روعى وجوب احترامه فأسعد بتوجيه عاطفة جليلة إلي موضوع يليق بها، بينما ذاك الآخر لا يلهمنى غير الهزء والامتهان؟ لماذا يفرحنى الناس وأفرحهم؟ لماذا يؤلمنى الناس وأولمهم؟ ومن أين لي ولهم هذه القدرة العميقة النافذة؟ أسئلة نقضى العمر ناشدين عنها أجوبة، ولا نفوز قبل الموت بالجواب

الشافي، وهكذا صار كوخى الأخضر سجنا اختياريا ، وشرفته نافذة مفتوحة على ميدان العجائب والغرائب ، وقد تسنى لى أن أستعرضها وأتفحصها بفكرى سائلة عن ماهيتها دون أن يكون ثمة سامع أو مجيب.

الفكر ! ما أجذب الفكر إذا هو مزج بطلاوة العاطفة ، وخيمت عليه أوشحة الخيال ! عشت السنوات الأولى من حياتي دون تفكير ، وهاقد غدا الجناح الملون بألوان قوس السحاب يضرب جبهتى ليفسح له فيها وكرا فصار كل موضوع ، وكل شخص ، وكل مشهد طبيعى ينفحنى بتأملات زرقاء ، وردية ، ذهبية ، فضية، رمادية تحوم حولي تارة وطورا تجثم في متعاونة مع ما في الكتاب على إيصالى إلى الإنسانية، فأكاد أسمع دقات قلبها وصدى أنينها ، فأدرك أنها شقية بجهلها واضطرابها وهمومها ، وأنه قدر على المختارين من بنيها أن يتألموا أضعافا ، لأنهم السابقون إلى مقاتلة المجهول وكجميع الطلائع يتلقون ضربات المصادرة والمقاومة ، فلا تضعف عزائمهم ، ولا تكل أقدامهم ويثابرون على تلمس السبيل في حالك الظلمات ، ويسيرون إلي الأمام حاملين غنيمة الجهود الانسانية والثقة بتحقيق الآمال" (❖).

ويأتي الربيع وأنى للربيع أن يجدى لميّ وهى في معتقل الخريف: " وتتوالى الساعات فلا يتفيأ شجرتى الهجير ، ومرآتي المتثنية لا ترسم وجه المرتوى الشكور .. ليس من عابر ، غير ذاك الذى أخذ منى ما أخذ ليقذفنى بالأحجار ، ويترك منه تذكارا اللعنة والأقذار .

اليأس خالط صفائى والكآبة حلت في مياهي !

ولا مستني مؤاسية في الظلام الأفنان ، فاستحالت مياهى عبرات وغدا نشيدى شهيقا وانتخابا .

(❖) المؤلفات الكاملة : جـ ٢ ، ص ٦١٨ ، ٦١٩ .

الربيع الحزين الحزين ، هو ذا الربيع !

ربيع الجحود والهجران ... كيف أحتمل الربيع ؟

أنا الصحراء القحطاء ، وهو ذا الربيع ؟

الصحراء الواجمة الكتوم ، كذلك كنت وكذلك أكون "(❖).

وفي رأيى أن هناك أسبابا رئيسية هامة أدت إلى محنة ميّ أهمها فقدها والدتها، فلم يؤثر والدها كما أثر فقد والدتها فيها.. فعندما توفى والدها وجدت حولها عشرات الأيدي تمتد إليها ، لتساعدها ، كما وجدت بجوارها والدتها فكانت خير عون لها .. وبموت والدتها أصبحت ميّ وحيدة بلا حنان ولا أمل ، وكانت تلك الليلة التي فقدت فيها أمها .. ليلة كأنها انفصلت عن الأيام والليالي والساعات ، فلا بعد ولا قبل ، وإنما ليلة علقت وحدها ، بين الأرض والسماء .. تدور على نفسها .. الجبين الأسمر في زجاج النافذة ، كأنه قطعة من الزجاج مجلدة ، وعينا الصبية تتيهان في الليل ، وأشجار النخيل تصفر صفيرا مأتميا .. ولم ترد الصبية عينيها عن الليل ، وطفحت أهدابها بالدموع.

وفي الظلمة الممتدة على الأرض وفي السماء ، في دموعها ، تراءت لها، مقبرة الغرباء من وراء أشجار النخيل ، مشبحة الأطياف، وفيها القبور، تتقلص وتطول.. قبور من رخام، وقبور ممسوحة في الأرض مسحا، وإذا قبر من بينها، جديد، ينهض من التراب ويمشى في الليل.. دبيبا دبيبا.. ويظل القبر يدب، يحمل في رأسه صليبا من حجر ، وفي الصليب ، رأسا ، رجل وامرأة .. ويقترب

(❖) فاروق سعد : مرجع سابق ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

القبر من الصبية الملصق جبينها البارد بالزجاج البارد ، ويضمها إليه ضمة عنيفة فتشهق الصبية ويغمى عليها .. في تلك الليلة كانت " ميّ " قد دفنت أمها(❖).

" مشت الصبية في صباح اليوم التالي في غرف المنزل القاهرى ، تلتمس الأحياء في غرفهم الدافئة فلم تجد إلا خيال القبر الجديد ، يطل عليها من وراء الجدران والنوافذ .. وجناحا خفاش أسود كبير يضربان جبينها وقلبها ويختبطان في بيتها ، وكادت تنهد وتنهار ، لماذا يلازمها ظل هذا القبر المخيف ؟ الموت .. ولكنها لم تكن تخشاه قبل اليوم ، وكانت تقدر أنها لابد فاقدة أبويها في ساعة من الزمن ؟

إذن لماذا ؟

لم تكن تدري .. وظلت تروح ، وتجىء كأنها شبح يدب دبيبا ، والظلمة العميقة تلفها لفا ، وفجأة استتار فى ذهنها .. ذاك الذى يعيش في الألوان والأنغام ، في المحبة والحنان ، ألا يمكن أن يكون لها أما وأبا وأخا وابنا .. ؟ لم لا ؟ ذاك يفهمها، وفي فهمه لها حلاوة لم تعرفها في غيره من الرجال .. في قلبه عطر لم تعرفه في أجواء الرجال ! .. شذاه يملأ غرفتها وكتابها وقلمها . جبهته العالية تنحني على أوراقها في الليل .. أهدابه السوداء الطويلة ، تنعس على كتابها وتلامس في بعض الليالي أهداب عينها .!! لم لا .. سيكون لها كل شىء بعد ذاك وستحبه .. ستحبه في مرضه وستكون له الأم والأخت والزوجة .. وأشرق قلبها .. لم لا ؟!

(❖) فؤاد سليمان: المأساة ، مجلة صوت المرأة ، القاهرة، ٩ أكتوبر ١٩٤٩، ص ١٠ .

وأكبت الفتاة في حزنها العميق تكتب لذاك الغائب ، الذى خلف البحار تنعي له أمها ، آخر خيال حبيب من أهلها ، هوم على حياتها ، وكانت تبكي .. ومن خلال دموعها ، عاودتها الرؤيا المظلمة .. في الضباب والأمواج ، من آخر البحر ، تراءى لها قبر آخر ، يمشى على الأمواج وفي الضباب .. ويقترب ويظل يقترب ، فيصب حدود القهر..

ها هو في طريقه في الأحياء .

ها هو يدخل فناء الدار .

ها هو في غرفتها .. ها هو

❖ ❖ ❖

وبعد أيام جاءها من وراء البحر ، نعنى ذاك الذي حسبته أبا وأخا وأما وأختا وزوجا جاءها نعي جبران .."ماذا فعلت يا ميّ ".. قال لها الفراغ المخيف الذى بقى لها ، يلفها .. كانا وحدهما ، " هي " و " الفراغ ".. انتشلتك من رحم أمك لأعتصر إثمار شبابك ، وأهز شجرة كهولتك ، حتى لا تبقى فيك ورقة أو ثمرة .. ملأت بيتك بالمجد والشهرة ، يجيئان إليك من كل صوب .. تركت الرجال من شعراء ، ومن أدباء .. على رجليك يا "ميّ " كرات تتدحرج في فناء الدار .. عقدت على رأسك مخملا وحريرا ، وعقدت على قلبك شريطا أسودا.. فتحت لك مقاصير الذهب ، وأبواب القلوب ، فنفذت إليها يا " ميّ " وأنسيتك قلبك، فأغلقته على الفراغ الذى هوأنا ، ألهيتك بالحبر والورق ، فسودت الألوف من الصفحات المشرقة وسودت قلبك، فما هتفت فيه غير الوحشة، التي هي أختي.. أنا الفراغ والوحشة أختى.. أنا الفراغ والوحشة أختى.. قلب من ذهب، من صفاء الذهب تحول إلي حطبة لاتباع ولا تشرى، أنوثة من أجمل الأنوثات،

شوّهها الكبرياء .

من أنت الآن يا ميّ .. ؟

وتر مقطوع لا يرن فيه نغم ..

امرأة ساذجة مسكينة .. (❖)

وهل نستطيع أن نغفل الندم والألم في وجدانها لخيبتها في حبها أو توهمها حب جبران خليل جبران وإيثارها هو دون سائر الرجال .. فكان أملا وحلما لها .. ولكن وآسفاه ، ضاع الأمل واندثر الحلم ، فكان طعنة أصابتها في مقتل !" إن علاقة ميّ بجبران تكاد توجز جميع أنواع الصراع الوجداني الذى عانته ، وفي كثير من الأحيان يلوح للباحث أن موت جبران كان السبب الأهم في سقوط ميّ إلى درك اليأس وبلوغها أقصى حالات الضياع والهذيان ، ولكن هذا الحكم يحتاج إلى كثير من الأناة والتروي ، قبل إطلاقه واعتماده ، فقد كادت ميّ تيأس من عودة جبران إلى الشرق قبل وفاته، وبذلك لا يكون موت جبران ضياعا لأملها في لقائه ، ولكن ميّا ظلت تحب جبران على الرغم من ذلك ، وهكذا يكون موت جبران صدمة صدعت نفسها لأنها رزئت بفقدان عزيز حبيب ، ولكنها مع ذلك تلقت رزءها ، أو جهدت ، على الأقل، في أن تتلقاه بحكمة ورباط جأش حتي أنها اعتبرت موته ابتعادا عن عالم زرى هو أسمى من أن ينتسب إليه ، وانتقالا إلى عالم أبهى وأجمل هو أحرى بالانتساب إليه .

ويمكن القول إن موقفها من هذا محاولة لبلسمة جرح أو سعى إلى الحد من وقع المصيبة باستدرار العزاء واجتلاب السلوان ،ولكن ما يجب النظر فيه طويلا وعميقا هو أن ميأً تمكنت من تحصين النفس وضبط الأعصاب طوال

(❖) المرجع السابق : ص ١١ .

ستة أعوام فقدت بعدها السيطرة على نفسها ، فانطلقت هواجسها ، واضطربت أعصابها ، وإذ ذاك لجأ الباحثون إلى تفسير عصاب ميّ تفسيرا رجعيا ارتكاسيا ، فقالوا إن موت جبران ، بعد وفاة أبيها وأمها كان الضربة القاضية التي أتت على البقية الباقية من تجلدها ومقاومتها .. إذ إن ميّ أحبت، وصدمت وقاومت ، ثم انهارت ، ومثل هذا التصور يجعل موت جبران نقطة انطلاق وسببا أدى إلى عصاب ميّ واختلالها النفسى .

ولئن صح القول إن موت جبران أودى بمقاومة ميّ ، فإنه لمن الأصح القول إن عدم اتزانها النفسى ، هو الذى قادها إلى حب جبران ، إن عصاب ميّ هو نتيجة لموت جبران ، في رأى الباحثين ، ولكن السؤال الأول والأهم الذي يجب أن يطرح هوكيف تحب امرأة سوية النفس سليمة الأعصاب رجلا مالقيته وما عرفته ؟

إن هواجسها هى السبب الذي أدي بها إلى حب جبران ،والتصدع نفسيا بعد موته"" (❖)

إن علاقتها بجبران أنشأت بداخلها صراعا رهيبا مريرا بين العاطفة والعقل .. والخيال والواقع ، وكانت ميّ دائماً تتطلع إلى المثل الأعلى ، وحاولت هى نفسها أن تكون مثالية .

تقول عن نفسها :" أنا امرأة قضيت حياتى بين قلمى ودولتى وكتبى ودراساتى ، وقد انصرفت بكل تفكيرى إلى المثل الأعلى وهذه الحياة "الأيديالزم " التي حييتها جعلتني أجهل ما في هذا البشر من دسائس .. "

ورغم اصطدام ميّ بالواقع ، فإنها لم تتنازل عن مثاليتها وتطلعها إلى عالم

(❖) د. مترى بولص : سبق الإشارة اليه ، ص ٩٠ .

المثل فلم تستطع أن توفق بين الواقع والمثال ، وليس أدل على ذلك من علاقة ميّ بجبران ، إن ميا لم تعرف جبران ، إلا بوسيلتين الأولى مؤلفاته فأبحرت فيها لمعرفة جبران الأديب والفنان والطريقة الثانية هى الرسائل – التي تبادلتها معه – وعن طريقها توهمت أنها عرفت جبران الرجل .. الإنسان .. وتوهمت ميّ أن جبران إنسان مثالي .. رغم علمها بنزعة الأنانية التي تعجزه عن الخروج من ذاته كإنسان وفنان بحيث يرى الآخرون أنفسهم فيه .. لأنه كان رومانسيا جانحا إلى العاطفة والخيال .. وبالتأكيد ليست الحياة كلها عاطفة وخيالاً .

لقد أحبت في جبران مثاليتها هي ، ومثالية جبران في مؤلفاته ورسائله ومع ذلك قاومت ، أرادت ميّ تحكيم عقلها في علاقتها معه ، ولكن عاطفتها غلبت العقل والتعقل ، وأرادت أن تواجه الواقع ، ولكن الغلبة كانت للمثل الأعلى.. وجدت في طلب الحقيقة ، ولكن الخيال قادها إلى حيث يلغى المنطق ويفرض اللامعقول . وعصاب ميّ هو النتيجة التي آل إليها صراعها مع ذاتها ومع الناس والكون ، وهذا العصاب يتضمن من ظواهر الصراع مازاده حدة وألما ، فميّ ، حتى بعد مرضها ، لم تستسلم فظلت تصارع ا لمرض وتقاومه حتى صرعها في نهاية الأمر .. "(❖)

إن حالة ميّ النفسية كانت ثنائية قوامها طرفان متضادان أنها وحيدة في هذه الحياة ، وكان بإمكانها ألا تكون وحيدة .. نعم عاشت وحيدة فمنذ الصغر اختطف الموت أخاها .. فترك في نفسها – وهي ما تزال طفلة ـ شعورا بالحزن والحسرة ، ولكن موت شقيقها لم يصبح ذكرى أو ماضايً ، وإذا رجعنا إلى كتابها "ابتسامات ودموع " الذي ترجمته لـ " ف . مكس مولر " يطالعنا هذا الإهداء:

(❖) المرجع السابق: ص٩١ .

" إلى العينين اللتين أطبقهما الموت قبل أن ألثمهما إلي الابتسامة التي لا أعرف منها إلا خيالها،إلى الاسم العذب الذي لا تهمس به شفتاى دون أن تملأ عينى الدموع،إلى الطفل الذى رحل إلى خالقه ويتّم في عاطفة الحب الأخوي ، فحرمنى من حنو الأخ وقبلته وابتسامته ودمعته.. إلى أخى الوحيد الذى تقاسمه الأثير والثرى "(❖) وأثر هذه الحادثة لازم ميا ، تقول في " ابتسامات ودموع " : والوعتاه عليك يا قلب الإنسان ! إن أوراقك لتجف في ربيع أيامك والريش يتساقط عن جناحيك قبل الأوان ! عندما يبزغ فجر الحياة في أفق النفس ينتشر فيه عبير الحب ، نحن نتعلم السير والوقوف والكلام والقراءة لكننا لا نتعلم الحب ، لأن الحب جوهر الروح وجميع قوى الروح تناديه بأصواتها المختلفة .

وقوة الحب أهم أصل غرسته الطبيعة في أعماق الكيان ، فكما تجذب الأجرام السماوية بعضها بالجاذبية الأبدية .. كذلك تجذب الأرواح المتآلفة بعضها بعضا وترتبط الواحدة بالأخرى برباط الحب الأبدي ..هيهات للزهرة أن تعيش بلا شمس ، وللإنسان أن يحيا حياة عظيمة بلا حب .

حنين الطفل أطهر أنواع الحب وأبعدها غورا وأشملها طبيعة ، لأنه يحتضن العالم بأسره منسكبا على كل نظرة ودودة ، ويهتز لسماع كل نغمة عذبة، وهو بحر عميق زاخر لا قرار له ، وهو ربيع كنوز لا تقدر وخيرات لا تحصى ، وكل من اختبر الحب عرف أنه لا يقاس ولا يكال ولا يوزن ولا زيادة فيه ولا نقصان ، وإن الذى يحب صادقا يحب بمجموع قواه وأفكاره .

وقد رثت ميّ أخاها الذي مات طفلا بقصيدة بالفرنسية – نشرت في ديوانها زهرات حلم – عنوانها " نحيب " تقول في أحد مقاطعها :

(❖) المؤلفات الكاملة : جـ ٢ ، ص ٦١٨ ، ٦١٩ .

أيها الطفل الذي رحل منذ زمن بعيد .
أيها الأخ الذي صار ملاكا جميلا .
اغفر لي صوتي المزعج الحزين .
آه ، كم أتمنى أن ترجع إليّ ، دون إبطاء .
وتسترد ذلك الثوب النضير .
ثوب الطفولة والحياة .
لتنظر إلى ، بضع لحظات (❖) ! .

وأشار الشاعر " خليل مطران " في قصيدة له بعنوان " إلى ميّ " إلي حزنها العميق على فقد أخيها .. قائلا :

ذكرى . وأية ذكرى لمن تولِّي فقّرا
ولم يزل يبكيك
ذكرى شقيق رثيت فعاش ، ما كل ميت
بالراحل المتروك
كم استعدت سناه فراعنا أن نراه

وثمة سبب مهم أذكى عوامل الصراع النفسى في نفس ميّ .. هو نشأتها الدينية ، فقد انتزعت من "الناصرة " مسقط رأسها ، لتتعلم في مدرسة الراهبات بعينطورة .. وإذا كان لتلك النشأة وجه مشرق تجلي في تعليم وتثقيف ميّ وإحرازها نجاحا ما كانت تحرزه إن لم تلتحق بمدرسة الراهبات - إلا أن هناك وجها معتما مردة ابتعاد ميّ عن أسرتها، فشعرت بالألم نتيجة هذا الإقصاء وزاد من هذا الألم أنها لم تجد في مدرسة الراهبات ما يغنيها عن البعد عن الأهل ، فعاشت تلك المرحلة مع زميلاتها متجاورة جسديا معهم ، متفرقة روحا عنهم .. لقد وجدت نفسها بين جدران صماء صفيقة في حبس

(❖) الترجمة من إعداد سلمى الكزبري ، انظر مقدمة المؤلفات الكاملة لميّ ، ص ١٨

حبس النساء المتبتلات ، ولو أنها أخذت في صباها بضرب من الحرية والمرح لأمكنها أن تقاوم محنتها وتقهرها .. إن تلك الفترة التي قضتها في مدرسة الراهبات قد كونت شخصيتها الوجدانية ونلمح هذا من خلال مذكراتها في تلك الفترة وذكرياتها عنها .. فعاشت حياتها ميالة للحزن والكآبة والابتعاد عن الجماعة وطلب الوحدة والانسياق وراء التأمل والخيال والتطلع إلى عالم مثالي نقي .. وشغف بالأدب والقراءة والموسيقى .. لقد صدقت حين قالت : "ما مر بي يوم إلا زدت اعتقادا أن ما نراه ونشعر به ، ونختبره في الحداثة إنما هو ، هو ما نشهده متتابعا من عالم إلي عالم ولكن بصورة أكبر .. في ميدان العالم الوسيع" .

وخرجت من مدرسة الراهبات وقد ترسب في أعماقها أثر ما تعلمته .. تقول : " لست بمدافعة عن مدارس الراهبات لمجرد الدفاع ولكني تربيت فيها سنوات أربعا فاختبرتها بنفسي ، لم أجد فيها العيوب .. بل ما يناقضها على خط مستقيم ، منها الترفع الكثير عن الدنايا ، والجرى وراء أعلى .. قلما يتراءى في سبل الحياة العادية ورفع النفس إلى ما وراء المرئيات أو الإكثار من الصلاة والتطرف في العبادة مما يؤهل الفتاة لاعتناق الحياة الرهبانية ، فتظل مدة بعد رجوعها إلى البيت حائرة في دوائر الهيئة الاجتماعية ، غريبة بين هؤلاء البشر الذين يجهلونها ولا تفهمهم.."(❖)

وهذه الغربة رافقتها طوال حياتها .. وهذا مالفت نظر الأستاذ عباس محمود العقاد .. يقول: " .. وقد كنت – كلما ازددت معرفة بميّ وبحياتها في

(❖) د. بولص : مرجع سابق ، ص ٨٦ .

بيتها – أشعر بحنان هؤلاء الأفاضل الأبويين نحوها فإنهم ولا ريب كانوا يقصدون التسرية عنها ويدركون من بواكير صباها أن فرط التزمت في طويتها يجاوز حدة المأمور ، وأنها يوشك أن تعانى كثيرا من عادة العزلة النفسية التي جنت عليها في أخريات أيامها وأنها تغالب شجناً كمينا لانطوائها الشديد على ذاتها ، تميل إلي أنه مزيج من الصدمة العاطفية وشعور التبتل العميق في سليقتها الدينية " (❖).

يقول الأستاذ حافظ محمود: " هناك سر لم يتعرض له الذين كتبوا الكتب والمقالات عن "ميّ " وهو أن رحلة أبيها إلى مصر ، كانت تخفي سببا صحفيا يتصل بابنته "ميّ " وهذا السر يتلخص في أن شابا من شباب بلدتها قد أخلف وعده لها بالزواج ويبدو أنها كانت تحبه حب الطفولة التي لا تحمل مثل هذه الصدمة .. فجاء بها أبوها إلى مصر ليباعد بينها وبين جو هذه النكسة كله ، وشجعها على أن تمارس في القاهرة كل هواياتها الأدبية ، وهو لايدرى أنها كانت تطوى في هذه الأعماق على العقدة النفسية ، التي كانت تجعلها كلما اقتربت من الرجال تبتعد بأعماقها عنهم" (❖❖) !

وإني لا أتفق مع الأستاذ حافظ في ما ذهب إليه لعدة أسباب منها : أن ميا قد خطبت لابن عمها " نهوم زيادة " وهى خطبة شكلية ، ويبدو أنها كانت رافضة لهذه الخطبة والدليل على ذلك أنها فسختها .. ومما ذكره الأستاذ حافظ أن الشاب " ابن عمها " هو الذي أخلف وعده لها بالزواج وفسخت الخطبة قبل نزوح أسرة ميّ إلي القاهرة .. وهذا غير صحيح ، لأن فسخ الخطبة من ابن عمها جاء بعد فترة وجيزة من إقامتها في مصر مع والديها .. ويبدو أن فسخ هذه الخطبة كان من بوادر خلاف ميّ مع والدتها ، فوالديها رغبا في أن تتزوج ابن عمها

(❖) مجلة الهلال : القاهرة، مارس ١٩٦٤ .

(❖❖) عمالقة الصحافة : سبق الإشارة إليه ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

ضمانا للأرض التي يشاركهم فيها أبوها ، فلا يأخذها منهم غريب .

ولم ينته صراعها بغية حريتها في اختيار شريك حياتها ، فاستمر إلى ما بعد ذلك، تقول في احدى رسائلها إلي يعقوب صروف : " يزعجني الكلام في مسألة الزواج إذا كنت أنا السبب والموضوع ، ولكنى على رغم ذلك أقول لك إني أري الأمر على عكس ما تراه والدتى فلا نتفق فى ذلك مطلقا، شروطها أن يكون غنيا صحيحا ذا مركز حسن .. وأنا .. لا يهمنى الغني ولا المركز الاجتماعي حتى ولا العائلة .. أنا أقدس الحياة العائلية وأحترم الزواج ، وأود إيجاد السعادة في بيت أدخله ، وزيادة أسباب رغده وعظمته وإيقاد شعلة الفكر فيه لأن في ذلك حياتي وسعادتي .. فالشرط الأول عندي هو التفاهم لأن به السعادة ، وبدونه الشقاء ، لكن والدتي تظن أني مع الزمن سأغير أفكارى ، وهذا ما نراه في المستقبل ، لكني أعتقد عكس ما تظن .. لن أتزوج قط على غير رضى والدي . ولكنى أحفظ لنفسى حق الرفض ، فقد ترى والدتي رجلا جامعا في نظرها لجميع الصفات من جمال وغنى وصحة ومركز اجتماعي ، وأنا لا أشعر نحوه إلا بقليل من الاشفاق الباسم ، وكل ما أطلبه ساعة ألا يرضينى من يعجبها هو أن أترك وشأنى سعيدة وسط كتبى وأوراقي " .

لقد عاشت كقمة الجبل الأشم .. ضاربة بعيدا إلى عنان السماء . . فعاشت في عالمها الخاص منفردة .. في عالم صنعته من مواهبها وطموحها وذكائها .. ورغم تفردها وميلها للوحدة ، لكنها لم تحتقر الآخرين بل كانت ترتاح إلى أحاديثهم، وتطمئن نفسها إلى نفوسهم ، وتجد متعة في مجالستهم.

وترى السيدة أيمى خير أن الناحية العاطفية الجنسية كانت سببا من أسباب شقاء ميّ ، فلقد كانت فتاة تأمل أمل الفتيات ، وتحلم أحلام البنات ، ولكن الأقدار باعدت بينها وبين الزوج الذي يسعدها ، والبيت الذي يؤنسها ، أى بيت الزوجية والأطفال الذين يجعلون للحياة قيمة من حولها نعم حرمتها الأقدار ذلك كله وهو شاق على كل امرأة ،عسير على كل فتاة سألتها مرة عن صحة أبيها وأمها فقالت في لهجة فهمت كل شيء وأدركت كل معنى : " ليس لهما غيري وليس لي غيرهما .. " آه كانت كلمات قصيرة تحمل معانى كبيرة .. ولم تكن هانئة حتى على المجد الذي أحرزته ، والعرش الذي احتلته ، إن في الحياة معانى عميقة ، وكلما بعد الإنسان عن فهم هذه المعانى وأدركها على وجهها الصحيح زادت متاعبة ونغصت أيامه وساعاته .

لقد ضحت ميّ بكثير من حياتها وما أعظم ما ضحت به !.. ضحت بشبابها اللامع الوضىء وذكائها المتوقد الملتهب ، وقدمتهما إلي الحياة قربانا خالصا .. فكانت حياتها أشبه بالأسطورة الرومانية القديمة عن الربة فستا vesta والبنات اللائى كن معها ضحية الشباب واسمهن فى الأسطورة فستال vestais ، "لقد كن ضحية الشباب النضير فلم يتزوجن ولم يتعلق قلب واحدة منهن بهوى ، وقضين حياتهن منشغلات بإشعال نار مقدسة سماوية وإمدادها بالحطب الجزل حتى لا تنطفىء فإن في انطفائها خرابا لمدينة روما ".. وكذلك كانت ميّ ، كواحدة من هؤلاء الفستال .. كانت تجد في الأدب تسلية وملهاة ، ولم تجد فيه تعزية ، وفرق كبير بين التسلية والتعزية .. أى شيء كان يعزى ميا

عن آلامها المشتعلة ؟ وأى وسيلة كانت تجد فيها ميّ العزاء عن آلام الزمان والمكان ؟! (❖) .

وقبل تدهور صحتها زارها صديقها الأستاذ طاهر الطناحي – وكان من المقربين إليها – فلمح من حديثها التشاؤم والحزن ، ثم سألته هل تعرف تفسير الأحلام ؟ فقال ولماذا ؟ هل رأيت حلما ؟ قالت : إني رأيت حلما مؤلما ، وقد نهضت من نومي حزينة خائفة .. رأيت ليلة أمس سيدة مقبلة علىّ ملتحفة بالسواد ، فلم أتبين من هي ، حتي إذا اقتربت منى صرخت قائلة : أمي .. ! فبكت ، ثم أقبلت نحوي تضمنى إلي صدرها وتبكي ، فبكيت لبكائها ، وقلت : مالك يا أمي ؟ فأجابت : آه يا عزيزتي ميّ ! فقلت : هل سأموت يا أمي ؟ فلم تجبني واستيقظت من نومي فازعة من هذه الرؤيا ، فهى أول مرة أرى فيها والدتي بعد موتها ، وتشاءمت ، واعتقدت إما أني سأموت قريبا ، أو يصيبني مرض شديد ، وتقاطرت الدموع من عينها .. وقالت : " إني لا أخاف الموت ولا أخشاه ، إن وراء الموت وجودا غير ملموس يدعي السعادة ، وإني أشعر باحتياج محرق إلي التعرف إليها والتمتع بها " .

غير أن ميا لم تقطع الصلة بالناس فجأة ، وإنما قطعت حبال وصالها تدريجيا ، فكانت تحدد لقاء الأصدقاء ، وأحيانا تمتنع عن لقاء آخرين ، كذلك لم تنقطع عن التأليف من عام ١٩٣٠م – ١٩٣٥ (كما أشار الأستاذ محمد عبد الغني حسن في كتابه " مي أديبة الشرق والعروبة ") .. فقد ظلت تكتب وتنشر ما تكتبه ، ولكن بصورة قليلة فنشرت بمجلة " المقتطف " عام ١٩٣٤ مقالا بعنوان " فضل المرأة "، وفي مجلة " الرسالة " عام ١٩٣٥ نشرت مقالا بعنوان " كلمات في الصداقة " وفي العام نفسه نشرت في مجلة " الرسالة " قصيدة عاطفية

(❖) محمد عبد الغني حسن : مرجع سابق ، ص ٢٠٠ .

بالفرنسية بعنوان " ارتياب " ونقلتها إلي العربية.. وخصصت جائزة للشاعر الذي ينقلها نظما ..

ونتيجة لاضطرابها ويأسها لجأت إلى التدخين علها تجد فيه تسرية عن همومها واكتئابها ، وحاولت الخروج من عزلتها ومغالبة الأسى ، فقامت برحلتين إلى أوروبا الأولى في صيف ١٩٣٢ ، والثانية في صيف ١٩٣٣، ولكن الحزن الذي استبد بنفسها كان أكبر من محاولاتها للتخلص منه ، فانهارت أعصابها ، وكان لتدخل ورثة أسرتها في شئونها الخاصة وإلحاحهم في مقاسمتها التركة أبلغ الأثر في تردي صحتها ، وقد وجدت نفسها أمام جشعهم وتدخلهم في شئون حياتها وحيدة .. لا سند يحميها ولا قانون ، لأن البنت عند المسيحيين لم تكن تحجب العصبات آنذاك ، لا في مصر ولا في لبنان واستنجدت ميّ بأبناء عمومتها المقيمين في لبنان ، فكتبت إلى ابن عمها فؤاد زيادة في شهر حزيران عام ١٩٣٥ تبدى رغبتها في العودة إلى لبنان وتكلفه بأن يبحث لها عن منزل هادىء تقيم فيه بلبنان .. وفي الثامن والعشرين من شهر أيلول من العام نفسه كتبت رسالة مطولة إلى دكتور جوزيف زيادة تصور له مرضها ويأسها من الحياة ، وباحت بلواعج نفسها له فقد كانت تثق فيه لكونه غير وارث لأبيها تقول ميّ في تلك الرسالة :

" عزيزي جوزيف.. منذ مدة طويلة لم أعد أكتب.. وكلما حاولت ذلك شعرت بشيء غريب يخمد حركة يدى ويشل الفكر لدى، إنى أتعذب أشد العذاب يا جوزيف، ولا أدرى السبب فأنا أكثر من مريضة، إني لم أتألم أبدا في حياتي كما أتألم اليوم، ولم أقرأ في كتاب أن في طاقة بشر أن يتحمل ما أتحمل.. إن هناك

أمرا يمزق أحشائى ويميتنى في كل يوم بل في كل دقيقة .. لقد تراكمت علىّ المصائب في السنوات الأخيرة ، وانقضت على وحدتي الرهيبة ، والتي هى معنوية أكثر منها جسدية ، فجعلتنى أتساءل كيف يمكن لعقلي أن يقاوم عذابا كهذا ؟ وكان عزائى الأوحد في محنتي هذه مكتبتي ووحدتي الشعرية ، فكنت أعمل كالمحكومة بالأشغال الشاقة لعلي أنسى فراغ سكني ، أنسى غضبة نفسى ، بل أنسى كل ذاتى .. إنه ليدهشنى حقا كيف أني استطعت أن أكتب هذه الرقيمة، ولعل الفضل في هذا يعود جزئيا إلي " اللفائف " التي أدخنها ليل نهار – أنا التي لا عهد لي بذلك – أدخنها لتضعف قلبى ، هذا القلب السليم المتين الذي لا يزال يقاوم وأسلم لابنة عمك .. مارى "..

فهل تعد تلك الرسالة اعترافا نفسيا من ميّ بما تعاني في حياتها ؟

وهل غالت في التعبير عن محنتها بقولها: " لم أقرأ في كتاب أن في طاقة بشر أن يتحمل ما أتحمل ؟ لقد سمت " ميّ " حزنها واكتئابها " بالمحنة " ويالها من تسمية فضفاضة جعلت الناس يفسرونها كيفما شاءوا حسب أهوائهم .

ونتساءل .. هل كانت تلك " المحنة " من تأثير الوهم الذي أوحي إليها أنها مريضة ؟.. لا أظن هذا .. فمي ليست من ذلك النوع الذي يقع ضحية وهم مرض أو محنة .. فبوادر تلك " المحنة " بوادر حقيقية ملموسة .. لقد وجدت أقرب الناس إليها وهم أهلها يطمعون في مالها الذي يعتبر عصب حياتها في تلك المرحلة من حياتها التي ذبل فيها كل شىء .

إن رسالتها السابقة لم تؤثر في قريبها، ولم تحثه على الحضور إليها.. وفي مطلع عام ١٩٣٦، حضر إلى القاهرة الدكتور زيادة ، فوجدها في حالة سيئة.

مفرطة في التدخين ، متدهورة الصحة ، تقول ميّ عن هذا القريب : " أجاء ليساعدنى ويخفف من مصيبتى ؟ هذا ما يزعجه ، على أن الحقيقة هي أنه هرع ليستكشف أعمالى وماليتى ، ويقف على سرائر مصالحي وشئوني فيستولى على كل شىء في حياتي ، وكان أن خاطبنى برقته المألوفة في تعيينه وكيلا عني ، ليخدمنى ويطمئن بالي ، فأجبت بألا أملاك لي في مصر وأن أعمالى المالية منظمة تنظيما لا يحرجنى إلى مساعدة أحد فألح وقال : فكري بهذا إكراما لى، قلت سأفعل وإن لم يكن هناك ما يدعو إلي التفكير ، وبعد هذا بيومين جاءنى مع رجلين من أنسبائى كانا يلازمانه في بيتى وفي الخارج طول مدة إقامته في مصر يتبعهم " باشكاتب محكمة عابدين " ووكيله – على ما قيل – وفتح " الباشكاتب " دفترا كبيرا جدا على سريرى، وسحب الدكتور زيادة قلم الحبر وقدمه لي طالبا منى أن أوقع في الدفاتر، أى تأثير سيطر علىّ في تلك الساعة؟ كيف لم أعجب لمجىء الباشكاتب دون أن أستدعيه وكيف لم أرفض التوقيع ؟ لست أدرى .. بحركة ميكانيكية تناولت القلم ورفعت نظرى إلي الباشكاتب أستفهم عن المكان في الدفتر حيث أكتب اسمي ، فنظر إلى نظرة طويلة كأنما هو عالم بما سيجره علىّ هذا التوقيع من المصائب ، ثم أشار إلي مكانين اثنين فوضعت توقيعى مكررا : مي زيادة وتحته : " مارى زيادة (❖).

هذا ما روته ميّ لأمين الريحاني باللفظ والحرف ، أواخر كانون الأول عام ١٩٣٧ ودعاها قريبها الدكتور زيادة لتغيير الهواء في لبنان والمكوث فيها لمدة أسبوع ، ولكن هذا الأسبوع امتد .. وألحت عليه ميّ بالعودة إلي القاهرة فلم يرض .. وفجعت أديبتنا في ذلك الإنسان الذي وثقت فيه ، فكان من المتربصين بها .. فبعد أن أخذ منها توكيلا عاما لإدارة ممتلكاتها أخرجها من بيتها .. لا

(❖) ملحق جريدة النهار ، بيروت ، ١٩٦٥/١٠/٢٤ ، وأنظر رسائل ميّ ، دار بيروت ، ١٩٥١.

لتعود إلى مصر . بل لتذهب إلي مستشفى الأمراض العقلية والعصبية ، المعروف باسم " العصفورية " .

وقد ثبت للباحثة " سلمى الحفار الكزبري " في بحثها عن مأساة ميّ أن الدكتور زيادة استضافها عنده من الرابع من شهر آذار عام ١٩٣٦ (وهو تاريخ دخولها مركز النافورة استنادا إلى الختم الظاهر في جواز سفرها) (*) حتى السادس عشر من شهر أيار من العام نفسه .

أما ما حدث بعد ذلك فقد روته ميّ لصديقها أمين الريحاني في أواخر كانون الأول ١٩٣٧م بعد أن نقلت من مستشفى العصفورية . " سألها الريحانى :

– وكيف رضيت بالذهاب إلى العصفورية ؟

– أأنا رضيت ؟ إنهم جاءوا بى إلي هنا لهذا الغرض (تقصد أنهم أتوا بها إلى بيروت لإدخالها مستشفى العصفورية) .. والدليل أنهم منذ الأسبوع الأول أحضروا مدير العصفورية زاعمين أنه مستشرق إنجليزى وظل المستشرق المزعوم يعود المرة بعد المرة وتكلم في الشعر والأدب الانكليزي غالبا طيلة الفترة التي استبعدوني فيها عندهم ،لالتحيطنى العائلة بمحبتها كما يقولون بل لغايات يعرفونها هم، ولما كنت قد أضربت عن الطعام أياما في مصر إحتجاجا على الدسائس التي أخذوا يحيطونها حولى وخوفا من أن يدس لي في الطعام الدواء المؤذى (وخوفي هذا لم يكن في غير محله) كذلك عدت وأضربت عن الطعام احتجاجا على الفظائع ، التي ترتكب في معاملتي واحتجاجا على سرقة قطعا من المصوغات القليلة التي جئت بها معى من مصر واحتجاجا على تشريدى من بيتى والحجز على مالى وعلى حريتى ، وجاء الطبيب المعالج في العصفورية ، تصحبه

(*) مقدمة المؤلفات الكاملة : جـ١، ص ١٥ .

ممرضة وكانت هى أول مرة خرج فيها طبيب إلى بيت مريض ، ليحمله إلى المارستان وعندئذ حنان أقاربى ووفاؤهم وحرصهم على صحتى وكرامتى ، كلها ظهرت في أجلى المظاهر إذ كتفنى طبيب العصفورية بجاكيت المجانين تساعده الممرضة ونفحنى بإبرة مورفين بساقى وأنا أصيح من فرط الوجع وأستغيث .

وآه يا بيروت ؟ كيف احتملت أن أجتاز شوارعك في ذلك الموكب المشين الأليم ؟ كيف احتملت الدموع التي سكبتها في تلك السيارة ، وأنا بين الطبيب ، وتلك الممرضة أشعر بوحدة رهيبة في الدنيا ، وأرى القدر المروع المعد لي دون أن أدرى لماذا؟

بحجة التغذية وباسم الحياة ألقانى أولئك الأقارب في دار المجانين أحتضر على مهل وأموت شيئا فشيئا .. لست أدرى إذا ما كان الموت السريع هينا أم الموت البطىء طيلة عشرة شهور وأسبوع مع التغذية القهرية تارة من الفم بتقطيع لحمة الأسنان وطورا من الأنف بواسطة التبريج ليصب من الداخل، نزولا إلى الحلق فالصدر ، فذلك موت لا أظن أن إنسانا يحتمل الإصغاء برباطة جأش إلى وصفه ، ومع ذلك فكان أقاربى في زياراتهم النادرة يستمعون إلىّ بسرور ، وأنا أصف نكالى وشقائى راجية منهم عبثا أن يرحموني ويخرجوني من العصفورية "

وسألها أمين الريحاني : وكيف مصر ؟

تأوهت ميّ ومضت تقص عليه قصتها من أولها ، فذكرت ما عراها من الهم والوحشة بعد وفاة والديها وسياحتها في أوروبا وبعد ذلك :

وعندما ذكرت زيارتها لأ كسفورد ، ذلك المعهد العلمي الشهير ، تذكرت مقالاتها في " الأهرام" ، وصفت فيه تلك الزيارة ، فاستجلت ذكراها ، إلا أنها

لم تقف عندها فقد تنبهت إلي ألم المهنة المهجورة .. وذكرها (الأستاذ أمين) بمكتبتها النفيسة التي كانت السبب في كثير مما أصابها ذلك أنها عزمت على إهدائها الى الأمة المصرية بعد وفاتها (على أن تتمتع بها طول حياتها) اعترافا بفضل مصر عليها كما أرادت أن تهدي النسخ المزدوجة من كل كتاب (وعندها منها عدد غير قليل) إلي الأمة اللبنانية ، ففاوضت بعض رجال القانون ، مستعملة الإجراءات اللازمة ، لإتمام هذه الوقفية . فوصل الخبر إلى أقاربها في مصر وفى بيروت ، فقامت الدسائس من كل صوب ، إلا أنهم أوفدوا لها رهطا من الرجال والنساء يحيطونها بمظاهر الصداقة ويقسمون على الأمانة والإخلاص وهم في الواقع يضربون نطاقا عليها ويشيعون عنها بين الناس ما يتناسب ومصالحهم ، وبعض ذلك الرهط يطمع في التوكل عنها (❖) .

وظلت في مستشفى العصفورية سبعة أشهر ، عذبت وضربت حتى نقص وزنها إلى ٢٨ كيلو جراما وأضربت عن الطعام ، فغذيت عن طريق الحقن والأنابيب، وأشاع أهلها وأصدقاؤها أنها جنت فلم يتقدم أحد من أصدقائها لمساعدتها، رغم أن الصحف كانت تنشر أخبار الإشاعات التي تصدر بشأنها.. وقد أحست من خلال نكبتها بخيانة أقربائها وأصدقائها لها، فلم يكن رفضها الطعام إلا رفضا واحتجاجا لخيانة لم تتوقعها وواقع مؤلم بغيض فرض سطوته عليها بالقوة على حين غفلة .

إن المأساة التي عاشتها ميّ في الحقيقة كان سببها الطعن في عقليتها واضطهادها، دون علم أولي الأمر في الحكومة اللبنانية ، حتي علمت الصحافة

(❖) ملحق جريدة النهار ، بيروت ، ١٠/٢٤/ ١٩٦٥.

الأدبية ، وشنت حملة عنيفة غرضها إنصاف ميّ .. وفي العدد ١٣٥ من جريدة " المكشوف" الصادرة في ٧ شباط ١٩٣٨ نجد صورة حية للدفاع عن ميّ ، فنقرأ في باب " من حقول الصحف " عنوانا رئيسيا كبيرا "الأديبة ميّ تتهم ! من هو المجرم ؟" .. تقول الجريدة :

" .. وأخيرا استطاع " المكشوف " أن يلفت أنظار الأدباء ورجال القضاء إلى المؤامرة التي وقعت الأديبة "مي" في شباكها ، بفضل حملة قام بها في هذا السبيل دامت أربعة شهور .. وقد لاقى " المكشوف " من أجل الكشف عن هذه الدسيسة ما تلاقيه كل صحيفة حرة من تهديد ووعيد .. ولكن الوعيد والتهديد لم يتبطأ عزيمتنا فمضينا عن طريق الحق فقد اتصل أمر الدسيسة بالنيابة العامة .. فأجرت تحقيقا في الحجر على حرية الأديبة الكبيرة ، وأمرت بنقلها إلي المستشفى الأمريكي حيث تعيش في جو مشبع بالعطف ، بعيداً عن أى ضغط، وحيث زارتها لجنة من الأطباء لتقرير مصيرها ، فكان تقريرهم في غير مصلحة المغرضين .. وقد لفتت هذه الضجة التي أثرناها حول مأساة "ميّ " الصحف اليومية الكبرى ، فراحت

تتحدث عن تطورها حديثا سيكون له أثره الطيب في إنقاذها من محنتها ، ولو أنه جاء متأخرا .

وفي مقدمة هذه الصحف " الحديث " و " صوت الأحرار " اللتان ننقل عنهما بعض ما نشرتاه في هذا الصدد :

الصحافيون كرهي لهؤلاء أشد ، يوم نشروا خبر جنوني ، وأوجدوا عند الناس في الشرق وفي الغرب فكرة بل اعتقادا بأن " ميّ " مجذوبة ، ولو أن إساءاتهم لي

اقتصرت على ذلك لهان الأمر ، ولكن هناك ما هو أمر وأفظع .. أنا صحافية ، وبنت صحافي ، ولقد كان على الصحافيين في لبنان ، إن لم يكن اكراما لي بل إكراما لوالدى ، أن يبدوا شيئا من الاهتمام ، أو شيئا نحو زميلهم وابنة زميلهم ، أن يسألوا عنها أو يقوموا بزيارتها عندما سمعوا بخبر عنها لمعرفة مبلغ ما في هذا الخبر من الصحة .

إنكم معشر الصحافيين تتحرون الحقيقة في كل مكان ! انكم تهتمون بالرجال ، وما يقولون والنساء وما يلبسن ، إنكم تبحثون أحيانا عن أتفه المواضيع وتخرجونها إلى قرائكم أنتم يا زملائى وزملاء والدى لم يوجد واحد يسأل عن " ميّ" ويتحرى حقيقة جنونها لم يوجد أحد بينكم يفكرفي زيارة هذه الأديبة ، الصحافية النابغة ، التي تخنق الأطفال وتكسر الحديد!! وقد تقولون إن هذا الذي أشيع عنى كان كحقيقة راهنة عندكم ، فلم تشأوا زيارتي حتي لا تحزنوا على مصيرى .. قد يكون ذلك صحيحا ولكن هذا " الاعتقاد " وتلك " الشفقة " لا ينبغى أن تضعا حجابا من الإهمال والنسيان بين الصحافيين والأدباء وبين زميلتهم "ميّ " .

إن " ميّ " لا أهل لها ، إن ربى وأهلى هم الصحافيون ، هم الأدباء

هم رجال القلم ، أفما كان يجدر بكم أن تحيطونى ببعض العناية عسى أن تخففوا عنى وطأة الجنون ! أنا التي أكسر الحديد ، وأخنق الأطفال .

أين رجال الأدب في لبنان ؟ أين رجال القانون ؟ أين الجمعيات النسائية ؟ أين نصيرات المرأة ؟ ألم توجد بينهن واحدة تدافع عنى أنا التي قضيت السنين الطوال أدافع عن حق المرأة ، ووقفت قلمى على خدمة بنات جنسى ، ورفع مستواهن ورد الظلم عنهن ؟

أجل أين هؤلاء وأولئك ؟ بل أين لبنان ، لبنان الذي طويت ضلوعى

على حبه ، لبنان الذى تغنيب في الجرائد والكتب والمجلات ومن فوق المنابر، بجماله ، بجباله ، ببنيه ، لبنان الذي ما حلت به محنة إلا انهمر الدمع من عينى ، لبنان هذا لم يوجد فيه واحد يبكي على محنتي التي انطوت على محن كثيرة ..

تلك هى مكافأة لبنان لابنته ميّ : إهمال مفجع ، وتغاض مخجل عن أحط مؤامرة جاءت بي من مصر ، وألقتنى مدة سبعة شهور في العصفورية أتفرج في النهار على مواكب النساء العاريات ، وأسمع ألفاظا ما كنت أعلم أنها موجودة ، وأن في البشر من يتلفظ بها وأسمع في الليل عواء الذئاب .. أسمع وأرى كل هذا، وليس هناك من يسمع صوتي أو يرى محنتى فيبادر إلى إنقاذى .. سبعة أشهر قضيتها في العصفورية في لبنان ، على هذه الحال ، وفي تلك الغمرة من الألم واليأس والعذاب ، دون أن يهتز عرق بالشفقة أو لسان بالسؤال .. ولهذا اسمحوا لي أن أقول بكل ألم ، وبكل أسف وخجل أيضا أني كنت أردد ، وأنا على تلك الحال في كل يوم وفي كل ساعة : لعنة الله على لبنان ..

وهنا بكت ميّ بكاء ممزوجا بالألم والحقد ، ثم مدت يدها إلى تحت الوسادة فأخرجت منديلا ومسحت به دموعها ، وبعد أن سكنت آلامها قليلا استأنفت الكلام فقالت :

– نعم لقد كنت ألعن وطنى ، وعندما يلعن المرء من يحب يكون الألم واليأس قد برحا به ، ولكن هل يكفر عن إساءته إلي ميّ ؟ وهل يعيد إلى ضلوعها أقدس ما كانت تنطوى عليه وهو حبها للبنان ؟

أشد ما أثر في نفس ميّ هو تخلى أصدقائها من الأدباء عنها.. وكانت بالأمس القريب حديث الأدباء في المجالس وكانت الوحي والإلهام لهم، وكأن "ميّ "

بدخولها العصفورية أصبحت نسيا منسيا .. وتفاجأت الأوساط الأدبية ، بنبأ خطير نشر في الصحف ، وقتذاك مفادة أنها تتمتع بالصحة التامة ، وما الجنون المنسوب إليها سوى زعم باطل ومؤامرة خبيثة ، فقد تقدم المحامي وكيل ميّ بعريضة إلى وزارة الداخلية بلبنان يقول فيها : "إن ميّ زيادة صحيحة العقل وأن نسبة الجنون إليها عمل يخفى وراءه أشياء وأشياء وطلب المحامي تأليف لجنة طبية لفحص الكاتبة الأديبة توصلا إلى التثبيت من سلامة عقلها ومنحها الحرية التامة التي يتمتع بها الجميع."

ولم تفتر عن الإلحاح في طلب أطباء غير أطباء المستشفى ، لعلهم ينقذونها غير أن هناك رجلا شهما لبنانيا هو " مارون غانم " رفض تصديق تلك الإشاعات عن " مي" وكان يعمل تاجرا بفلسطين وكان من المعجبين بأدب ميّ .. فآلى على نفسه ألا يعود إلى عمله إلا بعد إنقاذها ، ونجحت مساعيه ، لكن ميا انتقلت من سجن إلى سجن وكان هذا السجن الجديد هو مستشفى الدكتور نقولا ربيز ومكثت فيه عدة أشهر.. رفضت خلالها أن تقابل أحدا من أصدقائها الذين سألوا عنها متأخرين ..

ولما عاد الأديب أمين الريحاني من أمريكا ، وعلم بما حدث لميّ ، سارع إلى زيارتها وقام هو والأستاذ غانم بحملة قضائية بمؤازرة آل الايوبي وآل الجزائرى الذين عرفوها في المستشفى ، وتطوعوا للتخفيف عنها مدفوعين بشهامتهم وحبهم للأدب والحق ..

هؤلاء جميعا جعلوا من قضية ميّ قضيتهم وقد آلت تلك الإجراءات القانونية.. إلى نقل ميّ من (مستشفى الدكتور ربيز) إلى (مستشفى الجامعة الأمريكية) في ١٩٣٨/١/٢٢ حيث قضت بها ثلاثة أسابيع انتقلت بعدها للإقامة

في بيت صغير في رأس بيروت " نزلة أبو طالب " استأجره لها هؤلاء المنقذين في ١٩٣٨/٢/١٤ .

وقد يتبادر إلي الذهن أن الأزمة التي عانت منها الكثير من المتاعب والآلام، قد انتهت ، ولكن أهلها صعدوها برفع دعوى حجر عليها في بيروت في ١٩٣٧/٢/١٧م ودعوى مماثلة في مصر أمام المجلس الحسبى ، لكونها تحمل الجنسية المصرية .

ومن عجب أن " الحجر " الذي أقيم عليها لحرمانها مالها وحريتها ، قد نفذ قبل أن يبت القضاء في الدعوى ، والقانون لا يطبق مثل هذا الحجر إلا على الذين فقدوا عقولهم أو كانوا قاصرين أو معتوهين ، فكيف سرى حكمه على ميّ التي لم تكن مجنونة ولا مسرفة ولا خرفة ؟ وكان من الطبيعى بعد أن ترادفت عليها الأحزان والأعوام ، وغدت وحيدة غريبة ، أن ترى الحياة مظلمة ، وأن تشعر بأن كرامتها مهددة بعد أن شاعت الأقاويل بشذوذها ، وكأن السويداء التي أصابتها لم تعرف عند غيرهم ممن يعيشون بيننا وفي مجتمعها ، فكم نرى من شذوذ الأدباء والحكام في المعاملة والسلوك ، وكم يبدو منهم في الصباح والمساء من مفارقات في الانحراف وفي انتفاض الأعصاب وجنوح الطباع والعادات ، فهل راح أهل هؤلاء من ورثتهم يقيمون عليهم الحجج الواهية لحجب أموالهم عنهم ؟

وكيف لا تغضب ميّ لحقها وكرامتها ، بعد أن حجزت حريتها التي كانت تؤثرها على الزواج ؟ ولقد ازداد غيظها بحجب مالها عنها فأخذت تستدين لتسد خصاصة العيش .. وعادت إلي هدوئها بين زوارها وقد عادت إليها طبيعتها في الحديث والانطلاق ولا يكاد زائر يأتي على الإشارة إلى هذه القضية حتي يتجهم وجهها وتثور آلامها وتقيمها الكلام بهذا الشأن ويقعدها ، ولو حللنا الطبيعة الانسانية لوجدنا أن لكل إنسان ثورة غضب وهياج أعصاب كلما أو ذي أو أسئ

إليـه ، وهل كـان ينتظر منهـا الاسـتكانة وقبـول المهـانة لكيـلا تتـهم بالشـذوذ والجنون؟ (*) .

وانتظرت أديبتنا بلهفة عودة حريتها التي اغتصبت منها ، لإمساك مالها عنها.. وتجددت محاولات منقذيها .. وصارت تلح على عودتها إلى ضفاف النيل.. علها تجد الهدوء والراحة .. وجاءها الجنرال " مارتان " كبير الأطباء بلبنان فى ذلك الحين.. جاءها زائراً وعاينها متفهما شكواها ، ولما رآها سليمة الفكر والإحاس وأن الذي تشكوه لم يكن إلا ظلما ووهما ، كتب وثيقة بما عاين وتأكد منه وهذا نصها :

" لقد تبينت أن الآنسة ميّ زيادة تعيش في منزلها حياة عادية فتهتم بالمسائل البيتية ، كشراء الأغراض التي تدون حسابها حسابا دقيقا وأن مصاريفها تتناسب مع مدخولها وهى تقوم بأعمال أدبية وتهييء مؤلفا عن الفينيقيين في قصائد هوميروس .. إن مستنداتها من هذا القبيل محبوكة بمهارة وهي تستقبل أصدقاءها ، والجو، الذي تسير فيه الأحاديث هو جو طبيعي هادىء بالنظر لشخصية الآنسة " ميّ ".

إن المحادثات تدور حول المواضيع المختلفة ، وتشترك فيها الآنسة ميّ بسرعة خاطر وبفرنسية أنيقة ، إن الآراء حسب التأثيرات والأحكام والتعاليل حسب استشهادات حسنة الاختيار دائما.

إن مزاجها يقظ ومرح ، ولكن الآنسة لا تشكو إلا من قلة مدخولها الناتج عن دعوى الحجر ، لأنها لا تستطيع سحب مالها من المصارف وتحس الآنسة ميّ بألم مبرح ، عندما تسمع كلمة تذكرها بالحجر عليها الذى لا ترى له مبرراً وهذه انعكاسات طبيعية بعد الشفاء .

وقد كان ألمها فظيعاً عند قراءتها المحاورات الصحفية الكثيرة التى دارت بفظاعة وبدون أدنى تحفظ حول شخصها .

(*) ودادا ساكيني : مرجع سابق، ص ١٩٢ .

صحة الآنسة ميّ الجسدية ممتازة ، والنشاط طبيعي ، والأعمال تتم بصورة حسنة إنى أرى أن الآنسة ميّ قادرة على حياة اجتماعية مستقرة وأرى أنها جديرة بأن تدير شئونها وأملاكها بنفسها . (*) .

وقد أحدثت قضية الحجر على ميّ ضجة كبيرة فى الأوساط الأدبية والسياسية يومئذ ، وانتهت في صالح الأديبة الكبيرة ، إذ صدر قرار محكمة بيروت برد دعوى إلقاء الحجر فى أول شهر حزيران عام ١٩٣٨ .وفى ٢٢مارس من نفس العام ألقت أديبتنا محاضرة قيمة فى الجامعة الأمريكية فى بيروت موضوعها (رسالة الأديب إلى المجتمع العربى) .. وكانت تلك المحاضرة هى البرهان القاطع على صحة قواها العقلية ، وعمق ثقافتها وحضور ذهنها ، تقول ميّ عن رسالة الأديب وكأنها تتحدث عن رسالتها فى الحياة .. « رسالة الأديب تعلمنا كيف نخلق حضارة أدبية، إذ بها لا بغيرها ، تقاس مواهبنا ، ويسبر غور طبيعتنا، وهى التى تثبت وجودنا وتنطق بلساننا مترجمة عن مبلغ الإنسانية فينا.. رسالة الأديب العربى تعلمنا حب العزلة والسكوت وترجعنا عن الفخفخة وهوس الظهور ، فنعتكف علي أنفسنا نعالج مكنوناتها بالظفر بجمود النتائج، فالسنبلة المتمايلة على صفحة المروج ، حاملة بشائر الحياة ، لا تولد حبتها ولا تنضج إلا في أحشاء الأرض ، في جو الوحدة والهدوء والكتمان .

رسالة الأديب تعلمنا أن لا نخشى كارثة، ولا نتهيب مغامرة، كل زمن خطير في التاريخ كان زمن اضطراب وكوارث ، وأعظم فوائد الإنسانية نجمت عن عصور العذاب والخطر مرهف ، ولا يعرف شأن ذى الشأن إلا يوم الكريهة، والعاصفة لا تقتلع إلا ضعيف الأغراس، أما الأشجار ذات الحيوية العصية،

(*) المرجع السابق : ص ١٩٣، ١٩٤ .

فالأعاصير تلح وتهزها هزاً عنيفاً فلا تزيدها إلا قوة ومناعة ..

رسالة الأديب تعملنا كيف نفهم كل شئ ، ونستفيد من كل شئ باحثين عن الصواب والكمال خلال كل نقص وكل زلل ، نازعين إلى الجمال الحسي والأدبي حيال كل دمامة خلقية وخلقية ، مساجلين النفوس والعناصر ، مناجين المنظور وغير المنظور لنجعل من حياة متناثرة متداعية ، حياة متناسقة متماسكة .أى شىء لا تعلمنا رسالة الأديب ؟

إنها قوة تستفز قوتنا وموهبة تحفز مواهبنا ، وصرامة تردنا عن الحقارة، وبسالة تدفعنا إلى البسالة ، وعذوبة تؤاسي أحزاننا ، وأغرودة تطرب أشجاننا ، وهى عالم مستقل متماسك يسوقنا إلى تكوين عالمنا المتآلف المستقل !.

نحتاج إلى الأديب يأخذ منا ويعطينا ، فيرسل صوته أديبا رصينا مسيطرا أخاذا حضانا !.

ونحتاج إلى رسالة الأديب قويمة غنية عنيدة ملهمة لتوقف قوميتنا في مكانها المشروع وفي معرض القوميات ميدان العمران العظيم ! » (❖) .

وخرج الصحافيون والكتاب من المحاضرة ، ليكتب كل منهم مقالا أو خاطرة يتحدث فيها عن انطباعه عن تلك المحاضرة التى سمعها المئات .. مئات بين الشك واليقين ، وقليل من المؤمنين أن ميّ هى التي تتكلم وقفواجميعاً بعد انتهاء المحاضرة يهتفون معجبين ويصفقون تحية لها ، لقد سجلت الصحف والمجلات وقتها تلك الانطباعات.. وأيضاً سجل « راجي الراعي » النائب العام الذى حضر المحاضرة انطباعه .. وهو يراقب ويدقق في أحوالها استكمالاً لتحقيقاته فى

(❖) المؤلفات الكاملة : جـ ٢ ، ص ٢٦١ ، ٢٦٢.

القضية المعروضة أمام محكمة البداية .. ويتكلم ممثل النيابة العامة (❖) :

« إن هذه القضية المبسوطة أمامكم هى قضية خطيرة جداً، تختلف عن غيرها من القضايا التي يتناولها اختصاصكم، فهي لا تدور حول سند يطلب الحكم بقيمته المعترف بقبضها نقداً وإثبات الحجز الملقى أو صك بيع بل هي قضية حجر ، والحجر هو حجر الدماغ والروح وموت أدبى ويد هائلة تضغط علي الإنسان الذى بلغ من العمر عتيا فتخلع عنه ثوب الأربعين أو الخمسين الذى ألبسته إياه السنون ، وتعيده غلاماً قاصراً ، وتقيم له وصيا.. ويزيد فى خطورة هذه القضية حيث موضوعها ونتائجها أن من يطلب منكم الحجر عليه فتاة ليست كسائر الفتيات ، وثبت بها العبقرية إلى قمم الأدب والعلم والفن الخالد ولمع نجمها في سماء العربية ورفع لواؤها الخفاق فوق كل قطر من الأقطار الناطقة بالضاد ، وتجاوبت بأصداء آياتها أرجاء النيل وجبال لبنان وسهول سوريا وصحارى العرب ، فهى حديث العرب فى كل صقع وواد، وهى بنفسها دولة في دولة الأدب، ونور من أنوار الشرق ، وقلم من أقلام الخلود، وعجيبة من أعاجيب الوحي والإلهام ، كانت دارها فى وادى النيل كعبة الأدباء ومحج العظماء، تكتب فيقال كتبت ميّ ، وتتحدث فترهف لها الأسماع وتنصت لها القلوب ، وتخرج الكتاب فتتلقفه الأيدى ، وهى تتكئ على مكتبة لها فيها الألوف من الكتب، وتسكب من عبقريتها في الأرواح ، وفى الكؤوس سحرا ومجدا وهياما وأملا ورحيقا ...أيها القضاة : فى سماء هذه القضية وطرأ على الأوراق طارئ قلبها بطنا لظهر وظهراً لبطن ، وطلح بكل شئ فى هذا الملف وأعاد الحق إلى نصابه والحقيقة إلى عرشها ، فقد أرسلت البطاقات تدعو إلى استماع

(❖) ملحق جريدة النهار ، بيروت، ١١ نيسان ١٩٧١ ص ١٢، ١٣ (عن فاروق سعد فى كتابه السابق الذكر ، ص ٣٥٤، ٣٥٨) .

محاضرة تلقيها الآنسة « ميّ » فى نادى « العروة الوثقى» فى « وست هول » من على منبر الجامعة الأمريكية ، وأخذ الناس يتساءلون:

أتقوى ميّ علي إلقاء محاضرة ؟ هي إذن تقرأ وتكتب فكيف قال عنها الأطباء فى تقاريرهم إنها لا تكتب ولا تقرأ ، وهى إذن تجمع فى القرطاس حكما وآيات ، فكيف قيل أنها لا تجمع إلا رماداً ؟! وهى إذن ذلك الطائر الغريد فكيف قيل إنها فقدت تغريدها وصوت إحساسها ؟!، وهي إذن ذات أوتار فكيف قيل إن قيثارتها تحطمت؟!.

وجاء موعد المحاضرة البارحة (٢٢ مارس آذار ١٩٣٨) فهرعت إلى قاعة الجامعة والواجب ، يستحثني والضمير يلح على بتلمس الحقيقة فى مصدرها وينبوعها ، فقد كان ظامئا إلى معرفة الحقيقة ، التى من أجلها نحن نرتدى هذه الأثواب والقلانس ونطبق القانون.

هرعت إلى قاعة الجامعة الأمريكية ، وكلى شوق إلي جس النبض الذي تنبض به هذه القضية ورؤية الوجه ، الذى قيل إنه مجنون وسماع الكلمة قيل التي أنها كلمة من اختل شعوره واضطرب عقله وفقد إرادته ، هرعت إلى قاعة الجامعة الأمريكية مساء البارحة ، فإذا هي تغص بالخلق يدفع بعضهم بعضاً ويشرئبون بالأعناق ليروا إذا كانت « ميّ » أميرة البيان ، وصناجة العرب ماتزال لدولتهم ولهم .

ودقت الساعة الثامنة فإذا ميّ تطل على المسرح ، وقد لعبت الأخوال فلعب الشيب برأسها وهى الفتاة اللعوب الطروب ، ووقفت على المنبر ، وأخذت تتدفق بذلك البيان الساحر الذى تعود العالم العربى أن يسمعها تنقر على أوتاره الخلابة بريشة لو رآها رفائيل وروبنس لادعيا أنها ريشتهما وأن ميّ اغتصبتها،

في حين أنها ريشتها التى وضعها الله فى يداها منذ كونها فى أحشاء عجيبة من عجائب الفن ، ومعجزة من معجزات الأدب .

وحديثها عن رسالة الأديب إلى الحياة العربية طيلة ساعة كاملة تامة بدقائقها وثوانيها حديثا خلع عليه الاتزان والاتساق والعقل والمنطق والفن والابداع حللا فضفاضة فاخرة .

وراحت تتلو لنا آياتها بلغة موسيقية رنانة ، وعذوبة ترقرقت فيها مياه النيل وعبقرية ينبطح الجبل أمامها خشوناً ويتقلب سهلّ ، ويعتز بها السهل ويشمخ فينقلب جبلاً .

وانقضت الساعة الثامنة ، الكاملة بدقائقها وثوانيها ، وهى تلقى الدرر والغرر ، وترصع جيد اللغة العربية بجواهر من الزمرد والياقوت والماس . فضج كل من فى القاعة ضجة الاكبار والتعظيم ووثبت القلوب واهتزت الجدران للتصفيق الداوي المستمر الذى لم تشا الأيدى أن تكف عنه وأخذ الناس يقول بعضهم لبعض : أتكون هذه الفتاة مجنونة وقد جننا بها ، وإذا كانت هى المجنونة فهل نحن العقلاء؟!

لقد زالت حيرتى وزال ترددى بعد تلك المحاضرة الساحقة ، وباقتناعي أن الآنسة ميٌ بعد تلك المحاضرة لا يحجر عليها ، وبهذا الاقتناع القاطع الحاسم الذى كونته فى عينى التى رأت وأذني التي سمعت .. أتقدم منكم الآن أيها القضاة ، وأطلب أن تقاسموني هذا الشعور الحي الصادق الذي انتابني ليلة البارحة ، فالفتاة التي ألقت تلك المحاضرة لا يحجر عليها ، ولا تحجر حريتها وعبقريتها ، فهى أسمى أن تطالها يد القصر ، من أن تمسها يد الحجر ..

ليتركها أنسباؤها وشأنها إن أنسباءها الحقيقيين هم أولئك الذين تربطهم بها الرابطة الروحية .. أولئك الذين سمعوا محاضرتها فصفقوا لها ، وخرجوا منها معجبين مذهولين .

إن الحجر على هذه النابغة هو حجر على الأدب العربى وعلى الأمة العربية وعلى العبقرية العربية ، فلا تعدموها بسطرين من قلمكم .. وهي عاقلة فلا تجعلوها بحكمكم مجنونة .

إن فى عنقها نيرا وهى السيدة الفريدة المبجلة فاخلعوه عنها ودعوها تتنشق الهواء الطلق ، فوراءها الملايين من الخلق ينتظرونها»

وهكذا خرجت ميّ من محاضرتها منتصرة على نفسها ، وعلى الذين يدبرون لها المكائد والمصائب . وبعد أن زال الحجر عنها فى لبنان .. قررت السفر إلى مصر .. وقبل أن تتوجه إلى مصر مكثت بضعة أسابيع فى ضيافة الأستاذ خليل الخوري ببيروت .. ويستقبل طاهر الطناحى ميّ وهي عائدة من لبنان بقصيدة جاء فيها :

عودي إلى مصر مثل الشمس ساطعة

تزجين ضيك آيات وعرفانا

كم قد حزنا لبعد طال موعده

وكم حسدنا على الأيام لبنانا

وبعد عودتها إلى مصر واجهت صعوبات قبل أن تسترد حرية التصرف فى ممتلكاتها ولكنها صمدت صمودا كبيرا .. كأنها ذلك الشاعر العربى الصامد للأحداث بقوله :

وتجلدى للشامتين أريهمو أني لريب الدهر لا أتضعضع

وتابعت نشاطها الأدبي ، فألقت محاضرة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٣٩م وكتبت عدة مقالات ومؤلفات لم تنشر.. منها:

- « ليالي العصفورية » وهو يحوي وصفاً لما رأته ، وعانته من آلام فى مستشفي العصفورية في بيروت .

- « فى بيتي اللبناني » وهو وصف لحياتها بعد خروجها من المستشفي وإقامتها لمدة شهور في لبنان .

- « المتقدمون » وهو رواية مترجمة عن اللغة الفرنسية .

- « مذكراتي » وهو مجموعة من الخواطر والمقالات والذكريات فى مصر ولبنان وأوروبا ، ويتعرض للكثير من حياة وأدب الأدباء الذين عرفتهم ميّ .. لكنها كانت دائماً تؤثر الوحدة وتشمئز من الناس .. وهذه العزلة جعلت صحتها ونفسيتها تتدهور ، وقد حاول بعض خلصائها فى القاهرة ، وفى مقدمتهم طه حسين وأنطون الجميل وغيرهما .. أن يزوراها ، فرفضت أن تراهم لإحساسها بأنهم تخلوا عنها ، فتخيلت كل المقربين إليها متآمرين عليها وغالت في شكها .

يقول العقاد: « زرت الآنسة ميّ ورأيتها ترتجف ، وهى تفتح الباب وتشير إلى المسكن الذى أمامها وتضع أصبعها على فمها تحذرني من الظلام ، قالت : ألا تري هذه الحجرات وما فيها من النور ؟ إنها خالية وخاوية فلم ينيرونها فى هذه الساعة ؟ فاتجهت إلى تلك الحجرات وسألت عاملاً وجدته عند بابها ، فعلمت منه أنهم يعدونها للتسليم فى اليوم التالى وهو أول الشهر وأول تاريخ الإيجار ، فلما أنبأتها بما علمت بدا عليها الخوف وخطر لها أننى أخفي عنها المؤامرة أو أشترك مع المتآمرين .

ويقول سلامة موسى : كانت صورة ميّ فى ذهنى (عندما ذهبنا لزيارتها) لا تزال صورة الفتاة الجميلة الحلوة التى تضحك في تدلل ، وتتحدث في تأنٍ عن النزعات والمذاهب الأدبية أو الفلسفية .. ودققنا الجرس ، فخرجت لنا امرأة مهدمة كأنها فى السبعين ، قد اكتسي رأسها بشعر أبيض مشعث وكان وجهها مغضنا قد تقاطعت فيه الخطوط وكان هندامها يبدو مهملاً .. وظننت لأول رؤيتها أنها الخادمة ، وانتظرت كي تنتحى وندخل ، ولكنها لم تنتح وغمزنى صديقي ، وهو يهمس بصوت أعتقد أنها سمعته : الآنسة ! وسلمت وأنا مثلج من الخجل ، ودخلت أجر قدمي وقعدت إزاءها وأنا أفكر فى هذه المأساة .. أين شبابها ؟ أين حلاوتها؟ .. وكان أعظم شيخوختها ولم أعرف أن ميّ الجميلة ، الرشيقة ، خالدة الشباب ، قد استحالت إلى عجوز ، ولم يبق لها من جمالها إلا الذكرى .. وقعدنا نتحدث وجعلت تلومنى لأني لم أسأل عنها وتدفقت دموعها كما لو كانت ميازيب .. وجرى بكاؤها فى تشنج كأنها تلتذه ، ثم هدأت وأشعلت سيجارة .. وجعلت تدخن وتنفخ دخانها على مداعبة ، لأني أكره الدخان وهنا استولى عليها الطرب فشرعت تضحك فى إسراف يزيد على إسرافها فى البكاء، وكانت تتشنج بالضحك كما تتشنج بالبكاء .. وتكرر هذا منها ضحك فبكاء .. مع إسراف فى الاثنين ..لقد وقفت ميّ على أطراف « مرقص الحياة » على حد تعبيرها فى كتابها « ظلمات وأشعة» قبل خمس وعشرين سنة .

« بقيت أنا .. تلك الصغيرة الضعيفة الحائرة وسط المعضلات والزرايا . ولم يفتأ ذلك الوحى المعذب يهمس فى سورته ، وذلك الاحتياج المتوهج يضرم فى ناره،

ففهمت أمراً آخر وهو أنه حيث تكون العاطفة متيقظة مرهفة فهناك النزاع الأليم والاستشهاد وإذا رافقتها الأنفة وشرف السكوت على فضض الحروق والكروب فهناك مأساة الصلب تتجدد مع الأيام» (*).

«.. وقفت عند كوة الحياة لا أدري لماذا أقف ومن ذا أوقفني هناك . وإذا بالناس فى السبيل يمرون ، فأخذت أتفحص الوجوه منهم والحركات ، لعلى أعثر على ما يجعلني مختلفة عنهم وهم مختلفين عنى ، ولعلى أدرك ما هذا الذى يطلب منى رغم حداثتى وحيرتي وجهلى وقلة اختبارى . فصرت أعجب بالناس ، وأغبطهم على ما لديهم وليس لى أن أفوز بمثله ، وأتعزى بمظاهر الكآبة عندهم ، لتكون تلك المظاهر صلة ولو واهية بينى وبينهم على أنى لم أزدد إلا شعوراً بحيرتى وعجزى ، لم أزدد إلا شعوراً بأنى خيال لا ضرورة له ، إزاء تلك الأقوام الفرحة الضاحكة ، مع أن هذا الخيال يطلب منه شئ كثير لا يدري ما هو . فظننت لحظة أنى وصلت إلى قرارة اليأس وأنى شربت كأس المرارة حتى الثمالة.

ثم أوحى إلى بأن هناك وجودا غير ملموس يدعي السعادة ، وشعرت باحتياج محرق إلى التعرف إليها والتمتع بها ، ففهمت أنه ليس أقسى على النفوس فى انفرادها وسكونها وعجزها من تلقى ذلك الوحى العنيف والشعور بذلك الاحتياج العميق ..» (**) .

« وها أنذا أسير فى أطراف مرقص الحياة معانية ما يعانيه مساجين الوجود جميعاً ، يبرح بى وإياهم الشوق إلى السعادة وأتلقى مثلهم ذلك الوحى المتجدد

(*) المؤلفات الكاملة : جـ٢ ، ص ٣١٢.
(**) المرجع السابق : ص ٢٨٧.

بوجودها وعند كل خطوة خيبة وكمد ، وعند كل خطوة أمل وجذل ، وعند كل خطوة روعة حيال هذا السيل الحيوى الذى يتدفق مرغياً مزبداً إلى حيث لا يدرى . وعند كل خطوة استفهام لا جواب له عن معنى الحياة وغايتها ، عن معنى الألم وغايته ، عن معنى الطرب وغايته ، وعند كل خطوة سؤال للكون لماذا وجدت النفس الإنسانية كالنحاس المجوف ترجع لكل صوت يقرعها صدى رناناً عميقاً وجيعاً ..» (❖) .

وانطوت مى على نفسها ، فلم تعد تستقبل أحداً من زوارها أو أصدقائها ولم تعد تخرج من منزلها وتاه الوعى عن الزمن والذات.. وفقدت راحة النوم وأعرضت عن الطعام والشراب ، فانهار جسدها الهزيل كما انهارت نفسيتها.. ونقلت إلى مستشفى المعادى بالقاهرة فى حالة إعياء وإغماء.. وفى منتصف ليلة السبت الثامن عشر من شهر أكتوبر عام ١٩٤١م . شعرت ميّ بضيق شديد في التنفس، وأخذت نبضات قلبها تسرع فى الخفقان فجعلت تتنهد كأنها طفل حالم.. سألتها الممرضة عما تشعر، فلم تقو على الكلام فرفعت يدها مشيرة إلى صدرها، أن «هذا »أن هنا.. وانقطع الأمل فى الحياة ولم يعد للطبيب البشرى حيلة فأمصاله وعقاقيره وقفت عاجزة أمام قضاء الله.. وفي الساعة العاشرة وخمس دقائق من صباح نهار الأحد، التاسع عشر من أكتوبر عام ١٩٤١م أسلمت ميّ الروح إلى بارئها.. وكانت وهى تسلمها مبتسمة فى غفوة تفكير وتأمل.. وكأنها كانت تشعر بمجئ تلك اللحظة فتهيأت لها «إن هناك وجوداً غير ملموس

(❖) المرجع السابق : ص ٣٤١ .

يدعى السعادة ، وشعرت باحتياج محرق إلى التعرف إليها والتمتع بتلك السعادة الأبدية!!».

ولم يعرف بخبر وفاتها ولم يمش فى جنازتها إلا قلة من الأوفياء منهم أحمد لطفى السيد وخليل مطران وانطوان الجميل .

وتكاد الطبيعة التى أحبتها ميّ شاركت في وداعها الوداع الأخير .. فحجبت الشمس بالضباب كأنها حزينة على فقد ميّ .

وكأنما عز عليها أن تغيب عن الدنيا ، إلا فى المدينة التى سطع منها نجمها «القاهرة».

«وهكذا تكسونا الحياة كرداء سحرى لا تبلى خيوطه وتحضنا السماء، فنحن فيها مقيمون قبل الحياة وبعد الموت ، والجحيم والفردوس فى نفوسنا يتناوبان . تغزونا الحياة فى الاندحار وفى الانتظار ، فنحن أبطالها ونحن ضحاياها سواء أشئنا أم لم نشأ.

ما الأرض والبحار وأبعاد الأفلاك ، سوى مدافن دهرية .. إنما هى فى الوقت نفسه معامل توليد وتكوين نحن نخلد الحياة بفنائنا وهى تفنينا بخلودها . ونحن أبدا كذلك حتى تثلج الشموس وتضمحل قوى العناصر وتتفكك عرى الأكوان سابحة فى الفناء الأنور فى البقاء الأوحد .. » (❖) .

وكأن القبر الذى وارى جسد ميّ يتحدث بلسانها قائلاً .. « هذا قبر فتاة لم ير الناس منها غير اللطف والبسمات وفى قلبها الآلام والغصات.. لقد عاشت وأحبت وتعذبت وجاهدت ثم – قضت » .

(❖) السابق : ص ٣٣٩ .

الفصل الثالث

مي فى ذاكرة الزمن.. القيمة الأدبية والفكرية

- الانتباه الثقافي
- من أجل المرأة
- أزاهير المبدعة
- موقف النقد
- الشعر في موكب الرثاء

الانتباه الثقافي

كلمة « ثقافة » مفردة من مفردات اللغات المتعددة .. وقد استخدمت هذه الكلمة منذ القدم وأريد بها معانٍ متعددة .. متباينة الاختلاف .

وما فتئ الباحثون عن مدلول كلمة « ثقافة » حين تذكر أمامهم يهرعون إلى معاجم وقواميس اللغة ، وينقلون لنا بكل بلادة ما يجدونه تحت هذه الكلمة .. وعلى هذا الغرار .. ثقف الرمح : قومه وسواه ، والثقاف ما تسوى به الرماح ، وتثقيفها أي تسويتها ثقف الولد فثقف ، أي هذبه وعلمه فتهذب ، وثقفه أي فهم صادفه ، والثقافة التمكن من العلوم والفنون والآداب.. إلخ وكأن الباحثين بهذا قد أدوا واجبهم .

ومن هنا فإن المعنى الدلالي لكلمة «ثقافة» لا يزال غامض الملامح في أذهان كثير من الناس، بل في أذهان المثقفين أنفسهم.. ويستخدم مصطلح «ثقافة» في غير معناها العلمي، فتستخدم على أنها التربية وتستخدم على أنها التعليم أو الحضارة.. إلخ فأصبحت كلمة «الثقافة» في حاجة إلى من يحررها من المفاهيم الخاطئة لها ولمدلولها.. إن هناك ارتباطا كبيرا بين هذه الكلمة "ثقافة " والفرد والمجتمع، فعند التمعن في علاقتها بالفرد، نجد أن الفرد له كيان يتمثل في سلوكه وقيمه ومعتقداته ومواهبه وسماته الاجتماعية والسياسية.. وغيرها هذا الكيان هو «الثقافة» .. إذن فهى مكتسبات ومعارف وخبرات يكتبسها الإنسان

وتنعكس على سلوكه ، ومادامت تنعكس على سلوكه، فهى تنعكس على مجتمعه، فهى لا تؤثر في السلوك الخاص فقط بل تؤثر في السلوك العام.. والثقافة ليس لها بعد معنوي فقط يتمثل في القيم والمباديء والمعارف ، بل لها بعد مادي أيضا، فالتقدم التكنولوجي مثلا هو بعد مادي للثقافة.. إن الاختلاف في مفهوم «الثقافة» ألا يدل على شيء ؟!

نعم : يدل على أنها قيمة نسبية تختلف من شخص إلى شخص ،ومن مجتمع إلى مجتمع ، ولكن جميع التعريفات لكلمة الثقافة تجمع على أنها الإلمام بجزئيات متعددة في مختلف العلوم والمعارف ، وأنها حصيلة النشاط الإنساني ، وهى متغيرة ومختلفة باختلاف الأفراد والمجتمعات .. وبعد أن تعرضنا لمفهوم الثقافة – ذلك المفهوم الواسع الفضفاض – أصبح الباب أمامنا مفتوحا ، لتناول ثقافة مي زيادة والعوامل التي أثرت فيها ..

تفتح وعي ميّ على دراسة «اللغة الفرنسية» في مدرسة الراهبات بعينطورة، فدرست تلك اللغة منذ طفولتها وقرأت أدبها وتعرفت على نوابغ الأدباء الفرنسيين وقرأت أعمالهم ، وتأثرت بهم ونظمت شعرا.. لكن بالفرنسية. كذلك كانت تكتب الخواطر والتأملات بالفرنسية ، وبالطبع أثر هذا على إجادتها وإتقانها للغة العربية ! وإن كان لها العذر في هذا البعد عن (العربية) بحكم النشأة والدراسة.. ولما انتقلت ميّ إلى مصر تحولت إلى الثقافة العربية، فقرأت القرآن الكريم وكتب الأدب والسير القديمة ودواوين الشعراء لتتعلم البيان العربي.. وساعدها على إجادتها للعربية أصالتها وشعورها العميق بالعجمة وهى في بلادها.. فكيف تكتفي بالثقافة الأجنبية فقط؟ وكان لالتحاقها

لالتحاقها بالجامعة المصرية وقتذاك واحتكاكها بالأساتذة العرب والطلاب أبلغ الأثر في تقديم لغتها وتوجيهها التوجيه الصحيح ، ولما اشتد قلمها في اللغة العربية ووعت أسرار اللغة . بدأت تنشر مقالات بالعربية في جريدة «المحروسة» وفي مجلة «الزهور» و «المقتطف» و «الهلال» .. وحاولت «ميّ» جاهدة أن تتخلص من تأثير الأسلوب الأجنبي على أسلوبها العربي ، ونجحت بالفعل في هذا .. وعن فضل اللغات الأجنبية تقول « مي » « أعترف بأن معرفتي اللغات الأخرى قبل العربية جعلتني أشبه جماعتنا بتلك المرأة التي لم تخرج في حياتها من قرية لا تزيد منازلها عن السبعة عدا .. وكانت تقول فيها إنها أجمل مدينة في العالم، وإنها أم الدنيا ، وتلك المعرفة جعلتني أسائل نفسي كلما قرأت مقالا لبعض من يدعون أعاظم الكتاب وفطاحل الشعراء قائلة : وماذا وضع هؤلاء الأقطاب من ذاتيتهم فيما كتبوا ، بل أين الذاتية التي لا أجد لها أثرا ؟ إنني أكره التقليد الذي يشوه المقلد ويمسخ المقلد وأنا أحب أن أكون في كتابتي » .

ومن العوامل التي كونت ثقافة مي إجادتها العديد من اللغات الأجنبية. «إن عبقرية اللغات عبقرية مستقلة. هى حذق عميق رشيق ينفذ في أرواح الشعوب ويأوي إليها، ثم يتحول اتساعا وعلوا فيشملها، كأن الفرد الموهوب يتقمص في كل شعب يدرس لغته فيتوحد وإياه حيا بحياته، ناطقا بلهجته، مدركا منها الخصائص والمستعصيات، ويفسر الروحانيون هذه الموهبة بما يفسرون به المواهب الأخرى والعبقريات أعني نظرية الأعماد المتكررة بالتناسخ والتجسيد بين شعوب مختلفة» (❖) وسنتعرض للغات الأجنبية التي أجادتها مي.. اللغة الفرنسية.

(❖) المؤلفات الكاملة : جـ١ ، ص ٣٢٤ .

في سن مبكرة بدأت مي تتعلم الفرنسية ، وتذكر لنا أنها قرأت للمرة الأولى وهى في « العاشرة » من عمرها قصة « إبرص بلدة أووستا » باللغة

الفرنسية تأليف كزافييه دي ميستر ، وأعجبت بهذه القصة إعجابا كبيرا، ودرست مي في مدرسة راهبات الزيارة في عينطورة بلبنان (١٨٩٩ – ١٩٠٣) وانتقلت بعدها إلى مدرسة الراهبات اللعازريات في بيروت ، وقضت بها عاما واحدا ، ثم عادت إلى الناصرة ، والتعليم في كلتا المدرستين كان باللغة الفرنسية لجميع المواد ما عدا اللغة العربية ، وكانت هذه المدارس أيضا تدرس اللاتينية والأسبانية والإيطالية ، ولكن اللغة الرسمية للمدارس هى اللغة الفرنسية لأن منطقة سوريا ولبنان كانت منطقة نفوذ فرنسية .. ولما جاءت « مي » إلى مصر ، كات تدرس الفرنسية لبعض بنات العائلات ، إذ كانت لغة الطبقات العليا في مصر وليس أدل على تمكن مي من اللغة الفرنسية من أن ديوانها الأول «زهرات حلم» .. كان باللغة الفرنسية ، قد نشر بمصر عام ١٩١١، أي وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، وكان بتوقيع إيزيس كوبيا ، فايزيس آلهة الخصب والأمومة عند القدماء المصريين وكوبيا كلمة لاتينية تعني الغزارة والخير والوفرة.. وغلب على هذا الديوان نزعة الحزن والتشاؤم ، وتجلي تأثرها الواضح بإثنين من كبار شعراء الرومانسية الفرنسية .

أولهما لامرتين (١٧٩٠ – ١٨٦٩) وكان ذا طبيعة مثالية رقيقة ونبيلة، صلب العود بعيدا عن العواطف المتدنية، محبا للخير والجمال، له عدة دواوين شعرية منها «الأنغام» ، «التأملات» ويتميز ابداعه بالغموض، هذا الغموض المغلف

بالضبابية، يتيح له أن يعبر عن نفسه بحرية أكثر ، « مي زيادة » أهدت ديوانها إليه..

وكان الثاني الذي تأثرت به مي : ألفرد دي موسيه (١٨١٠ – ١٨٥٧) وكان متقد الذكاء خياليا ساحرا سار في الاتجاه الرومانسي فترة قصيرة ، ثم فجع في غرامه فأخذ يكتب أشعارا حزينة .. رائعة ، وكان القانون الوحيد الذي يلتزمه في ابداعه أن يخلص لمشاعره ، ومن ثم يزدري الصنعة في الفن مهما كانت عالية ، وعاش طفلا مدللا قبل أن يكابد ألم العشق الذي جعله أكثر رزانه ، دون أن يغير طبعه ، ومرهف الحس محبا لنفسه ، وعلى استعداد للحب ، وشديد النهم أن يكون محبوبا متقلبا في هواه شديد الحماسة ، يطيب له أن يتمتع بالحياة ، ولا يرتوي من الملذات قط(❖).. ولم تنصرف « مي » عن القراءة الفرنسية ، رغم أنها اتخذت اللغة العربية أداة للتعبير عن آرائها وأفكارها ، كما أن القراء في مصر قلة منهم من يقرأون بالفرنسية ، والأغلبية تقرأ العربية ، وأعجبت مي أشد الإعجاب بالقصاص الفرنسي بييرلوتي (١٨٥٠ – ١٩٢٣) وطالما سعدت بالسباحة في اكتشاف أفكاره ولغته الرائعة الآسرة .

تقول مي : « طالما استسلمت لسحر بيانه ، وذات يوم حملت كتابه « موت أنس الوجود » وطالعت بعضا من فصوله في المتحف المصري ، على مقربة من قاعة المومياات بهدوء وتأمل، وهذا الكتاب كتبه لوتي عام ١٩٠٧ م وأهداه إلى مصطفى كامل ، وكان مثله ابنا روحيا لمدام جولييت آدم ، وحبذت الدعوة التي ارتآها على

(❖) د . الطاهر أحمد مكي : المصادر الأجنبية لأدب مي ، مجلة الهلال ، القاهرة، ع٢، فبراير، ١٩٨٦ م .

أيامها بعض الكتاب من تعريب الكتاب وبقية مؤلفات لوتي الأخرى عن الشرق الأدني ، ومع أنها تراه صديق الشرق ، لا ترى شبيبتنا في حاجة إليه ، وإنما هم أحوج إلى كتب أساتذة أقوياء يكيفونها ويستحثونها على الرجاء ، ويبثون في نفسها اليقين، فترجمة كتبه خطيرة لمن لا يعرف أن يتسلى بسحر لوتي تسلية، ويعجب ببيانه دون أن يحسب قوله درسا وأمثولة »(❖) ، ورغم إعجاب مي بكتاباته لكنها ترى لوتي كثير النواح والشكوى والتنعر يؤذي من لا إلمام له بأداب الغرب ، أو من كان قليل الإلمام بها كما كان قبله روسو .

اللغة الإنجليزية

بدأت مي تدرس الإنجليزية بعد وصولها مصر.. وقد ساعدها على ذلك الجو السائد في مصر ، فقد أعلن الإنجليز حمايتهم لمصر ، ومن هنا أصبحت اللغة الإنجليزية إحدى اللغات السائدة في مصر .. وقد أجادت الإنجليزية إجادة تامة ، ففي الحفل الذي أقامة طلبة قسم الأداب الإنجليزية في الجامعة المصرية، في فندق شبرد (إبريل ١٩١٨) أسهمت فيه - وكانت طالبة بالجامعة وقتها - فألقت كلمة باللغة الإنجليزية ، ونشرت ترجمتها إلى اللغة العربية فيما بعد .

وقرأت كثيرا من روائع الأدب الإنجليزي ، وتأثرت باثنين من كبار شعراء الرومانسية الإنجليزية، هما اللورد بايرون (١٧٨٨- ١٨٢٤) وشيلي (١٧٩٢ - ١٨٢٢) وأعجبت بالشاعر الإنجليزي تنيسون (١٨٠٩ - ١٨٢٢) الذي امتاز عن شعراء عصره بصفاء العبارة ، وقوة التركيب اللغوي بين مفردات اللغة ، وهيأه

(❖) المرجع السابق : ص ٩٤ .

نبوغه الشعري ليكون علما من أعلام الشعر الإنجليزي .

وكانت على وعي جيد بأن اللغة الإنجليزية لها آداب أربعة : الإنجليزية والاسكتلندية ، والأيرلندية ، والأمريكية .. وأن لكل واحد من هذه الآداب روحه الخاص ومزاياه ، ونقلت عن الإنجليزية رواية «اللاجئون» للكاتب الاسكتلندي أرثر كونن دويل (١٨٥٩ – ١٩٣٠) ، وكان طبيبا وكانت قصة بوليسية ، غيرت عنوانها فأسمتها « الحب في العذاب » وهي رواية أدبية تاريخية ، حدثت في عهد لويس الرابع عشر ونشرها عام ١٩١٧(❖) .

ولم يوفق أحد في جمع فصول رواية كتبتها بالإنجليزية ، ونشرتها في مجلة «سفانكس» التي كانت تصدر في القاهرة عام ١٩١٧، بعنوان «ظل على الصخر» وجاء ذلك في حديث أجراه معها نقولا باز ونشر في مجلة" الفجر" البيروتية عام ١٩٢٣ (❖❖).

اللغة الإيطالية

كانت بداية تعرف مي على اللغة الإيطالية في مدرسة الراهبات ، فكانت الإرساليات الكاثوليكية تدين بالولاء المباشر للفاتيكان في روما ، حيث كانت تعني بلغات كبريات البلاد الكاثوليكية في أوروبا مثل فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، فدرست الإيطالية إلى جانب الفرنسية ، فهي تقص علينا في مقال لها بعنوان "تكلموا لغتكم" أنها دخلت مكتبة صغيرة في القاهرة لبيع الكتب الإيطالية، لتشتري منها بعض أعمال « جبرائيل دانزنتريو » ، فإذا بصاحب المكتبة يقدم لها مؤلفاته بالفرنسية..

(❖) يقول د. مكي في مقاله السابق ص ٩٧ « لم يوفق أحد في العثور على نسخة من « الحب في العذاب» .. وهذا رأي غير دقيق فالرواية نشرت ضمن المؤلفات الكاملة لمي، انظر ص ٦٥٧ .

(❖❖) د . الطاهر مكي : مقاله السابق ، ص ٩٧ .

وكان يكتب بها إبداعه أحيانا ثم يترجمه إلى الإيطالية ، فردتها وطلبت منه مؤلفاته الإيطالية الأصلية المنقولة ، فسألها عما إذا كانت تريدها لنفسها أم لغيرها، فأجابته بل أريدها لنفسي فسألها : إذن تعرفين الإيطالية، فردت عليه: نعم. لم يكن جبرائيل دانزنتريو (١٨٦٣- ١٩٣٨) أديبا إيطاليا عاديا.. كان جنديا طيارا ومحاربا وشاعرا روائيا، وصاحب أسلوب لامع وجذاب ونال شهرة مستفيضة في النصف الأول من هذا القرن .

وتعرفت أديبتنا على شاعر ايطالي آخر كان معاصرا لجبرائيل، وهو كاردوتشي (١٨٣٦ - ١٩٠٧) تعمقت في أدبه، وتتبعت مراحل تطوره ووصفته في دقة بأنه صاحب موهبة شعرية ونقدية، وأنه كان يزدرى شاعرية المرأة، وله فيها رأي صار مضرب المثل «اثنان عليهما ألا يعالجا الشعر: الكاهن المسيحي والمرأة"(❖).. ولكننا نجده عدل عن رأيه عندما قرأ أشعار إليزابيث بروانتج الإنجليزية ومدام ديبور فالمور الفرنسية وآني فيفانتي الإيطالية .. ومن هنا تأتي عظمة المفكر أنه يتراجع عن رأيه الخاطيء إذ تبين له خطأ هذا الرأي .. والجدير بنا أن نشير أن « مي» لم تؤلف شيئا باللغة الإيطالية ، رغم إجادتها لها.

ولم يبين أحد من الباحثين سبب هذا .. حتي هي نفسها لم تذكر سبب هذا.. وهذا جعل البعض يتشكك في إجادة مي للإيطالية ، ولنا أن نقول ليس معني إجادة المرء للغة من اللغات .. وهو أديب أن نطالبه بالتأليف بنفس اللغة!.

اللغة الألمانية

بدأتْ تتعلم الألمانية عامى١٩١٠ ـ ١٩١١ على يد سيدة بروسية، وتذكر مي أنه في عام ١٩١١ ذهبت لتصطاف وحملت معها كتاب «الحب الألماني» للمستشرق

(❖) المرجع السابق : ص ٩٧ .

الألماني ماكس موللر ، وصادف هذا الكتاب إعجابا كبيرا في نفسها، فبدأت تتمرس على ترجمته إلى اللغة العربية، ولم يكن متوافرا معها معجم ألماني، فاستطاعت التغلب على هذه المشكلة بأن كانت تحيط بالمعني العام.. ونشرت هذه الترجمة تحت عنوان « ابتسامات ودموع » عام ١٩١٢، ولم تطبعه ثانيا، لأنها لم تكن راضية عن ترجمته الأولى ، فأعادت ترجمته ونشرتها في طبعة ثانية عن مطبعة الهلال عام ١٩٢١، وبلاشك إن إعجاب مي بالمستشرق الالماني « ماكس موللر » (١٨٢٣ – ١٩٠٠) لم يأت دفعة واحدة ، بل قد عرفته وقرأت له في سن مبكرة في مدرسة الراهبات ونشرت عنه مقالا بمجلة المقتطف – نوفمبر ١٩٠٠.

اللغة الإسبانية

كان إلمام «مي» بالإسبانية خفيفا، ولم يكن حظها من تعلم هذه اللغة كبيرا، وقليلا ما نقع في أعمالها على اسم كاتب أو شاعرأسباني باستثناء «استبيان منويل دي فييجاس» (١٥٩٥ –١٦٦٩) وتقارن خلال دراستها شعر عائشة التيمورية في الغزل والدين والأخلاق وبين «ماريه تيرسادي أبله» الإسبانية (١٥١٥ – ١٥٨٢) لأن كلتيهما كانت متصوفة، تقية في نظمها للشعر والابتهالات.. كذلك مي لم تؤلف شيئا بالأسبانية .

ويرى الدكتور الطاهر مكي (*) أن مي رغم اطلاعها على الكثير من إبداع الأوربيين والتأثر بهم، لكنها أهملت أوربيات معاصرات لها وكن على أيامها وبعدها ملء السمع والبصر، فلم تعرض لهن من قريب أوبعيد ومنهن أنادي نواي (١٨٧٦– ١٩٣٣) وكانت شاعرة رقيقة لها ديونان من الشعرهما «القلب لا حصار له»

(*) المرجع السابق.

و« الانبهارات » كذلك ماري بشخير تسيف (١٨٦٠ – ١٨٨٤) .. وكانت كاتبة ورسامة ، ودرست في باريس وبعد موتها نشرت أسرتها يومياتها العاطفية عام ١٨٩٠مفجاءت وثيقة انسانية بارزة.

وإنني لا أحسب ميا جهلتهن ، فهؤلاء الأوروبيات اللاتي ذكرهن الدكتور لهن شهرة واسعة يعلمها المطلع على الآداب الأوربية ولو عن طريق الترجمة .. ومابالنا بمي وهي « عالمية الثقافة » فهى بلا شك تعرفهن وقرأت لهن وعنهن ، أما كونها لم تكتب ولم تشر إليهن يرجع إلى الغيرة منهن فإنني أختلف مع هذا الرأي .. ألم يكن من الأولي أن تغار مي من أولئك الأديبات والشاعرات العربيات اللائي تحدثت عنهن في مؤلفاتها ، فنجدها وقفت جهدها على دراسة شاعرتين عربيتين هما « عائشة التيمورية» ، و«باحثة البادية – ملك حفني ناصف » وتناولت الكثير من النساء الأديبات في مقالاتها ،فإن كانت قد غارت بالفعل من هؤلاء الأوربيات أليس من الأجدر أولا أن تغار من بنات جنسها اللائي يتحدثن لغتها وينتمين إلى وطنها !!

وليس الأديب بأن يكتب عن كل شخصية قرأ لها أوبهر بها ، ولا يعد هذا – إطلاقا – نوعا من الإنكار أو الجحود أو التجاهل لهذه الشخصية ، فشأن كل شخصية عظيمة أن تفرض نفسها بإبداعاتها ، التي تكون في غنى عن التعريف لأنها تتحدث دائما عن مبدعها .. وتخلد ذكره.

من أجل المرأة

إن لكلمة « نهضة » التي نستعملها بمعنى (Renaissamce)، معنيتين اثنين: أحدهما تجدد الأمة في مجموع أحوالها بعامل أو عوامل استفزتها وتغلبت على العوامل الأخرى : كالنهضة الأدبية الفنية في أوروبا في القرن الخامس عشر ، والنهضة العلمية والآلية في أوروبا وأمريكا في القرن المنصرم وفي هذا القرن .. أما المعنى الآخر فهو الانتباه لوجوب إحداث التغير والشعور بابتداء وقوع ذلك التغير ، فالتجدد هنا هو اليقظة والرغبة في الأخذ بما أخذ به آخرون فوسع عندهم مجال الحياة ، فاستفادوا به وخسروا وتنعموا وتوجعوا .. هو تحفز ومباشرة جميعا .. وبمثل هذا تبدأ دوامات النهضات الحقيقية .. إذ لا طفرة في الحياة ، ولابد لكل نضوج أن يستكمل وقته ونظامه (❖) .

والنهضة دائما في حاجة إلى دوافع .. تحث خطاها وتحدوها .. وإن بدت أي نهضة في بواكيرها متعثرة .. بطيئة الخطى ، فذلك لأنها تفتقر إلى الدربة والتنسيق والنظام .. وهذا أمر طبيعي يلازم الخطوات الأولى في جميع أوجه النشاط الإنساني.

(❖) المؤلفات الكاملة : جـ١، ص ٣٢٤.

معزل عن تطور ونهضة المرأة العربية في الشرق ، ولكن الحقيقة التي لا يمكن جحودها أن ميا ونظيراتها هن رواد النهضة النسائية العربية الحديثة.. «لقد بدأت الحركات النسوية في التحفز بعد الدعوة التي ترددت في أرجاء العالم العربي لتحرير المرأة، فمن صوب لبنان ارتفع صوت المعلم بطرس البستاني قبل أن يدعو رفاعة الطهطاوي في أرجاء مصر لتعليم البنات، وكان أقوى أثرا وذكرا تأليف قاسم أمين من أجل النساء ومادار حول هذا التأليف من تأييد أو تنديد، حتى ارتفع صوت رائدة مصرية من الموهوبات هى «ملك حفني» المسماة «باحثة البادية» والتي نشرت مقالاتها الثورية والإصلاحية (*) في هذا الموضوع الخطير، وناقشت آراء قاسم أمين وخطأ الرجل في استبداده وخطأ المرأة فيما آل اليه أمرها، محللة كل علة نفسية واجتماعية بصراحة ولباقة وهيأت لرسالتها التقدير والصدى البعيد » (**) .

وقد أعجبت « مي زيادة » بمقالات « باحثة البادية » .. وحرصت على حضور المحاضرات التي تنظمها الجمعيات النسائية من أجل تطوير المرأة العربية ، وكان من زعيمات تلك الحركة الإصلاحية « لبيبة هاشم » و « لبيبة أحمد » و « كريمة السعيد » و « هدي شعراوي » وغيرهن .

وهذه الحركة النسائية الإصلاحية لم تكن على ضفاف النيل فقط، بل شهدتها أماكن أخرى متعددة في الوطن العربي، أبرز هذه الأماكن بلاد الشام التي كانت تموج بالرائدات المصلحات.. من أبرزهن.. سلمى صايغ وأميرة زين العابدين

(*) جمعت « باحثة البادية » مقالاتها في كتاب « النسائيات » وقدمه لها أحمد لطفي السيد .
(**) وداد سكاكيني : مرجع سابق، ص ١١٢ .

وماري عجمي .. وغيرهن .

وفي قاعة المحاضرات بالجامعة المصرية عام ١٩١٤.. استمعت مي إلى محاضرة ألقتها السيدة هدى شعراوي .. وبعد أن انتهت من المحاضرة وكادت تغادر القاعة تقدمت إليها مي ببشاشة وشجاعة واعتداد بالنفس وقالت: « سيدتي هدى : أنا معجبة بأفكارك ، مقدرة لما تبذلينه من جهد .. لذلك أضع نفسي تحت تصرفك ، ولا تظني يا سيدتي أنني صعيرة لا أستطيع المعاونة أو لا أقدر على المساعدة أنا كاتبة وشاعرة وأكتب في الصحف والمجلات ...

أنا « مي » ولا أظنك ياسيدتي إلا قرأت شيئا مما كتبته .. ألا تعرفينني"؟!

وكانت هذه الكلمات الشجاعة ، التي تدل على روح مفعمة بالنية الصادقة الحسنة والعمل الجاد المثمر ، باعثا لأن تضم هدى شعراوى هذه الفتاه إلى صدرها وتقبلها قبلة إعجاب ، وتضمها إلى حركتها النسائية الإصلاحية .

حقا حداثة السن لا تعوق عن العمل العظيم .. وصدق الشاعر العربي حين قال:

فما الحداثة من حلم بمانعة

قد يظهر الحلم في الشبان والشيب

وقال شاعر آخر :

ورب صغير لاحظته عناية

من الله ، فاحتاجت إليه الأكابر

وانتظمت مي في صفوف المصلحات، فكان قلمها أحد المصابيح المضيئة، وكان كلامها الفصيح المبين يجذب كل سامع ، فارتقت المنابر خطيبة، في الجمعيات

النسائية والخيرية في القاهرة ، وفي أقاليم مصر .. وخارج مصر أيضا .. ولم تتعصب للمرأة المسيحية دون المسلمة أو العكس ، فألفت كتابا عن السيدة « وردة اليازجي » يتناول حياتها وشعرها ونثرها ومنزلتها الأدبية ، وكان هذا الكتاب في الأصل محاضرة ألقتها مي عن هذه السيدة وكتبت مي عن « باحثة البادية » – ملك حفني ناصف الكاتبة المسلمة ، الأديبة والمصلحة الاجتماعية . وعقدت موازنة بين آراء باحثة البادية الإصلاحية وقاسم أمين ، وأصل هذا الكتاب مجموعة مقالات نشرتها مي لمجلة « المقتطف » كذلك كتبت دراسة مستفيضة عن « عائشة التيمورية» .. لقد أنصفت المرأة الشرقية حينما كتبت عن ثلاث من الأديبات الشرقيات المصلحات.

ونادت بتحرير المرأة من ظلم المجتمع لها ، تقول مي: « كم قالوا إنها لا تصلح إلا للخدمة البيتية والزينة الجسدية وها هى مصلحة كبيرة ومفكرة عاملة، وكم قالوا إنها حيوان جميل وشيطان لطيف وها هي ملك كريم يحاول إفهام الرجل أن في الحياة عنصرا ساميا هو كل الحياة . وكم قالوا إنها كاذبة خبيثة وأن الصدق والإخلاص بعيدان عنها بعد الشمال عن الجنوب ، ها هى آخذة في تهذيب نفسها وملاشاة العاهات التي شوهتها في أزمنة العبودية .. وكم قالوا إنها مترددة حائرة ذليلة لا تقوى على توليد فكرة ولا تحتمل المسئولية ، وها هي عزيزة النفس شديدة الحرص على الاستقلال ، منحنية بحرقة على معاني الحياة العميقة .. وكما قال فولتير إن فكرها سريع العطب ، وأنه يتحطم تحطيما إذا حاول استفهام ناموس علمي، غريب أن يقول فولتير هذا القول وهو الذى استعان

بامرأة على فهم كتابات نيوتن ، وهي صديقته مدام دي شاتليه ومترجمة كتاب « نيوتن في ناموس الجاذبية» (❖) .

وطالبت مي بالحقوق المهدرة للمرأة والتي نادت بها الأديان ، "المسيحية سوت بين الرجل والمرأة اذ جعلت لهما خطة واحدة تفضي إلى ثواب واحد . على أن النصرانية حرمتها من وظائف الكهنوت ، ورأى بعض النصرانيين أن المرأة قارورة الخطايا والآثام .

ثم جاء نبي الإسلام فرفع شأنها أي رفعة في بلاد العرب ، إذ حرم وأد الفتيات وسواها بالرجل في جميع الحقوق والواجبات ، إلا في الشهادة والميراث – فإن امرأتين تساويان رجلا – وفيما ماعدا ذلك هى والرجل سواء في جميع الحقوق المدنية ، ويقول العارفون إن لها الحقوق السياسية أيضا ، وللمسلمات أن يكن فقيهات ،وكانت أول فقيهة منهن عائشة زوجة صاحب الشريعة الإسلامية (❖❖) .

إن أهم حق من حقوق المرأة هو التعليم الذي يهذب طباعها وينمي ملكاتها ومواهبها .. وكم قالوا إن المعارف لم تخلق للمرأة وإن العلم يذهب بجمالها وتواضعها ولطفها وإنه يجعلها متكبرة جافية محتقرة العائلة هازئة بالرجل ، وها نحن نراها إذا تعلمت زادت جمالا وحنانا أكيدا واحتراما للعائلة وإجلالا للرجل ، إنها الآن تفهم معاني الحياة وتريد بكل قواها ترقية نفسها وإعلاء مداركها وتربية شخصيتها ، واستخدام ملكاتها في بث الخير والسعادة حولها وعلى كل ما يحيط بها ، المرأة الراقية وحدها تعرف أن لها فخرا رئيسيا واحدا وهو أن

(❖) المؤلفات الكاملة : جـ ٢ ، ص ٣٤.
(❖) المرجع السابق : ص ٣١ ، ٣٢ .

تكون أما بكل معنى الكلمة ، وبجميع المعاني التي تحملها هذه الكلمة (❖).

المتهكمون على المرأة كثيرون في هذا العصر الفوضوي ، ولكن أنصارها أكثر وهم من ذوي النفوس الكبيرة والرؤوس المفكرة ، بل هم أسمى وأشرف رجال زماننا ، إنهم يحترمون جهادها ، ويعترفون بحقوقها ، ويقرون بما تأتيه من الإصلاحات الباهرة ويعجبون بإقدامها وثباتها ويرون في نهضتها أيدي جديدة عاملة لخير الإنسانية وتخفيف الويلات عنها .

أليس فيكتور هيجو هو القائل إن تحرير المرأة ، أكثر المشاكل الاجتماعية وبعض المدنية ، وإنه ينتظر منها وحدها إلغاء الحرب في العالم؟ وهو القائل أيضا إن القرن العشرين هو عصر المرأة .. ولقد صدق في نبوءته! في كل مكان تفتح المرأة عينها لنور الحياة حتى في أطراف الشرق الأقصي ، في الصين واليابان ، وفي تركيا ، وها إني أرى شرارة الحياة تشتعل في مصر أيضا ، حيث الرجال يساعدوننا بأقلامهم وبألسنتهم وبمثلهم . وجل ما يتمنون هو أن تستحق النساء عنايتهم واهتمامهم بأمرهن ، أجل في مصر تتكسر القيود الدهرية التي طالما عذبت فكر المرأة ونحن اليوم عند عتبة مستقبل باهر ..

أتكلم الآن بحرقة كأني صوت المرأة الصامت منذ أجيال ، وتستمعون إلىّ باشفاق كأنكم نفس الرجل المشتتة منذ ابتداء الدهور . والنفس الكبيرة المبعثرة تستجمع قواها للاصغاء ، والصوت الخافت الذي لم يتعود إلا همس الطاعة وتمتمة التمرد المبهم ، يرتفع الآن آتيا من بعيد من عمق أعماق الدهور السوداء،

(❖) المرجع السابق : ص ٣٥ .

من أقصى أقاصي الخليقة العجيبة آتيا من القبور ، من البحار ، من عناصر الحياة جميعا صارخا .. أيها الرجل ! لقد أذللتني فكنت ذليلا ، حررني لتكن حرا، حررني لتحرر الإنسانية .. » (❖) .

تقول مي في أول رسالة بعثت بها إلى باحثة البادية ملك حفني ناصف : «قولى يا سيدتي .. تكلمي ! ضمي يدك البارة إلى الأيدي التي تحاول رفع هذا الجيل من هذه الحيرة والتردد بتعليمها واجباتها .. إن صوتك خارج من أعماق القلب ، بل من أعماق الجراح ، صوت كصوتك ، قد يفعل في النفوس ما تفعله أصوات الأفكار ، لا يهمنا أن تخفي تلك اليد النحيفة وراء جدران حذرك ، وأن تحجبي هيئتك الشرقية وراء نقابك الشعري، مادمنا نسمع صوتك مع صرير قلمك ونعرف منك الروح العالية .. فهنيئا لوطن يضم بين أبنائه مثيلاتك .. وهنيئا لصغار يشتقون وعود الهناء من ابتساماتك ، ويسكبون حياتهم في قالب حياتك » .

ولم تتوان مي عن مؤازرة المرأة العربية في أي مكان أو في أي أرض من بلاد الله أو بلاد العروبة . فقد ناصرت عائشة التيمورية وملك حفني ناصف ، وكانت مع زعيمة النهضة النسائية هدى شعراوي إلى نهاية الدرب .. وأيدت جوليا طعمة الدمشقية ، ووردة اليازجي وسلمي صائغ الأديبة اللبنانية ، وكان تأييدها لهؤلاء بالرسائل الخاصة أو الرسائل العامة ، أو الدراسات أو المشاركة العلمية لهن .. ومن رسائلها الخاصة إلى سلمى صائغ ، الرسالة الآتية بتاريخ ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٣ :

« أنت ربيع يا سلمي ! أنت ربيع بلادنا الملون ، المنشد، الشفاف، الخصيب،

(❖) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

في هذه النسمات رياح تهب وتعصف . إلا أن الربيع يتغلب عليها ويخرسها كما تخرس أصوات الأجراس – أجراس العيد – كل همهمة ، وتعلو فوق كل زئير وكل زفير ، أنت ربيع ! وفي سماء الربيع منك يحلق جناحا « الأمومة » .. أنت أم لبنانية صالحة في أفق لبناني جميل» (❖).

ولم تكن ترى تعليم المرأة مسوغا يجعلها تضرب بتقاليد مجتمعها عرض الحائط فهى تري أن المرأة تتعلم لتكون « زوجة » ناجحة وأماً بالروح لا بالجسد فقط .. وقد راعها أن ترى النساء منشغلات عن أطفالهن : منصرفات عن مسئولياتهن .. مقبلات على الزينة والاحاديث الفارغة .. فخاطبتها قائلة: «صغيرك يناديك فلماذا لا تجيبين ، يا أم الصغير ؟ لست بالعليلة لأني رأيتك منذ حين تميسين بقدك تحت قبعتك والجواهر تطوق العنق منك .. أنت صحيحة الجسم، فلماذا لا تسرعين ؟ ألا تحرقك دموع الطفل الذي لا ترين ؟ ألا يوجعك الشهيق الذي لا تسمعين ؟ عودي من نزهاتك الطويلة وزياراتك العديدة ، وأحاديثك السخيفة ، عودي واركعي أمام الصغير واستسمحيه عفوا .

لقد خلقت امرأة قبل أن تكونى حسناء ، وكيفتك الطبيعية أماً قبل أن يجعلك الاجتماع زائرة .. ناغى الصغير ! إن دموع الأطفال لأشد إيلاما من دموع الرجال " (❖❖) .. فليس بدعا أن نقول إن " ميّ زيادة " رائدة من رائدات النهضة النسائية العربية الحديثة .

(❖) محمد عبد الغني حسن : مرجع سابق ص ١٢٣.

(❖❖) المؤلفات الكاملة: جـ ٢، ص ٣٠٦.

أزاهير المبدعة

تنوعت الفنون الأدبية التي عالجتها ميّ على إختلاف موضوعاتها ، ولم تكتفِ بفن أدبي واحد كالشعر أو الترجمة مثلا . وربما يرجع هذا التنوع في الإنتاج الأدبي إلى مواهبها المتعددة وملكاتها المتفردة ، ويرى بعض الباحثين أن « ميا » لو تخصصت في فن أدبي واحد لتركت تأثيرا كبيرا في أدبنا العربي المعاصر ، ويبدو أن ميا لم تقتنع بهذا ، فنهلت من كل فن وأعطت في كل فرع من فروع الأدب.

وفي هذا المقام لسنا بصدد تحليل وتقييم مؤلفات مي ، لأن هذا يحتاج إلى بحوث منفردة ، لكننا نشير مجرد إشارة ، ونعرف القارئ بالفنون الأدبية التي عالجتها مي من خلال مؤلفاتها ، أما التحليل والنقد فنتركه لدراسة متخصصة، خاصة بذلك الغرض ورأيت أن أفضل السبل للتعريف بالفنون الأدبية التي عالجتها مي أن نرتكز على مؤلفاتها .

الشاعرة ..

درجت مي منذ نعومة أظافرها على نظم المقطوعات الشعرية – "باللغة الفرنسية – وشجعها علي ذلك والداها ، فكان والدها يحثها على القراءة والاطلاع، "كذلك كان لمدرسة عينطورة بلبنان أثر كبير ، ساعدها على إجادة

اللغة الفرنسية، فقرأت أدبها وتعرفت على شعرائها ، وأعجبت بالشعراء الرومانسيين أمثال لامرتين (١٧٩٠ -١٨٦٩) وألفرد دي موسيه (١٨١٠ - ١٨٥٧) وبعد أن انتقلت إلى مصر مع أسرتها ، أصدرت ديوانها الأول وباكورة انتاجها الأدبي " أزاهير حلم " Fleurs derere بتوقيع ايزيس كوبيا Isis Cobia وكان لهذا الديوان صدى كبير في الأوساط الأدبية وقتها ، ظل المفكرون ومتذوقو الأدب الفرنسى يتساءلون .. ترى من تكون .. " ايزيس كوبيا "(❖) !!

وتميز هذا الديوان بنزعته الرومانسية التي تجلت في الشغف بالطبيعة والكآبة والحزن والتأوهات ، وكانت أكثر قصائد الديوان في مخاطبة الطبيعة والاندماج معها ككائن حي ، والتحليق مع الخيال نحو آفاقه ، وتغنت فيه بجبال لبنان وأوديتها وغاباتها وبالمقطم والنيل .

وأهدت ديوانها إلى " لامرتين " وقدمت ديوانها إلى القراء بكلمة قصيرة تقول في المقدمة (التي كتبتها في أول مارس عام ١٩١١ كما نتبين من التاريخ بجانب توقيعها): " هذا الكتاب صغير الحجم ضئيل القيمة ، إلا أن لكل كائن في هذه الحياة خفقات ولكل نفس وثبات ، كل منا يعبر عنها حسب هواه ... ليست قيمة الأثر بأهميته قدر ما هي بإخلاصه .. فيا أيها القارىء اللبيب ! يامن تقرأني .. لا تحاول أن تحلل أو أن تنتقد بل ابتسم ، فالابتسامة الرحبة الغفور هى أجمل أزاهر النفس ، فلا تبخل علىّ بهذه الابتسامة " .

يقول أنطون جميل واصفاً مجموعتها الشعرية الأولى " الكتاب مجموعة

(❖) إيزيس إلهة مصرية قديمة كانت أما لحورس ، وهي تقابل ماري أو مريم ، وكوبيا كلمة لاتينية معناها الزيادة والكثرة .

أزهار عطرية نبتت في رياض الأحلام الجميلة .. الروح المتألمة ترف على كل صفحة من صفحاته وتجعل الكاتبة تقول في قصيدة "هل هي شاعرة " ؟ ما معناه البكاء والرأفة والحب والألم هذه هى صفات الشاعر ، وقد ظهر من الموضوعات التي طرقتها الكاتبة أنها لا تصف إلا ما ترى ، ولا تعبر إلا عما تشعر به ، فجاءت منظوماتها صورة حقيقية لما يشغل فكرها ويحرك قلبها، ولذلك أنت تشاركها عند تلاوة أشعارها في هذه العواطف ، أيا كان رأيك في القالب الذي سكبتها فيه ، فلا تتمالك من أن تصبو معها إلي مصر ونيلها وآثارها وسهولها ، وتحن معها إلى لبنان وجباله وأوديته ، وإذا كانت " إيزيس كوبيا " شاعرة في نظمها فقد وجدناها أشعر منها في تلك الصفحات النثرية التي ختمت بها " أزهار أحلامها " حيث لم تعد مقيدة بقيود القافية والوزن ، وكثيرا ما تكون الأزهار المنثورة أجمل من الأزهار المضفورة " (❖) .

أما الشاعر خليل مطران فإنه كتب عن تلك المحاولات قائلا: " قفص من الذهب يتحرك في داخله ، ويتنقل بين أسلاكه اللامعة عصفور صغير ملون الريش ، مرح كل المرح ، كأنه يضرب بأجنحته الصغيرة جوانب هذا القفص الذهبي ليفلت من قيود أسلاكه وينطلق فيه إلي الجو الفسيح لأنه لا يطيق الاحتباس ، ولا يقدر أن يكون سجينا في مكان ضائق بأمانيه في الحياة"(❖❖).

لقد تعالت أعماق ميّ مع رؤى الطبيعة وانعكس هذا على ديوانها، فها هى تهتف :

(❖) محمد عبد الغنى حسن : مرجع سابق ص ٢٠٧ ، ٢٠٨.

(❖❖) المرجع السابق: ص ٢٣٩

" دعـــونـي في هذا الملجـــأ الســـاحـــر
دعـــونـي وحـــيـــدة أحـــيـــا مطمـــئنة ،
بعـــيـــــدة عن ضـــــوضـــــاء المـــدن ،
دعـــوا لأنـظـــارى تـــلك الـــرؤى العـــذبـة ،
دعـــوا لأفـكـــارى أحـــلامـــهـا الـــرخـــيـــة ،
دعـــونـــي أنـــعـــم بـــالـــــرقـــاد ،
دعـــونـي أيـــامـــا فـإنـــى لا أود أن أسـمـــع ،
إلا الحـفـيـف ، الخـفـيف ، المـوسيـقى الحنـون .
الـــذي تتـنـفـس بـــه هـــذه الجـــبـــال .
ألا أبعـدوا عـنى ، ولـو حـينـا ، أصـوات البشـر .
التـي تتـــبطـن الجـسـد والحـقـد والـغـــل .
هـنـــا يـطـيـــب لـنـــا الحـــب .
أجـل يطيـب لنـا الحب : بين الأشـجـار المنعـزلة ،
والخـرائب البـائدة ، ومـا حملت من أخبـار الزمان.
وهـــذه الصـــخـــرة الكـئـيـبـــة .
كل مـا فـي هـذه الـربـوع يجـذبنـى ويسـحـــرنى .
الأوراق التي أحسها تنبض ، والعصافير التي تغرد.
كـــلـــمـــا رأتـــنـــي أدنـــو " (❖)

(❖) ميّ زيادة : أزاهير حلم ، ترجمة: جميل جبر، منشورات دار بيروت، ١٩٥٢، ص ٨ ، ٩ .

ويبدو أن ميا كانت متأثرة إلى حد كبير بالرومانسيين الأوروبيين الذين يتسم إبداعهم بعشق الطبيعة والإبحار في عالم الخيال والكآبة .. وتجلت الكآبة عندها في كثير من قصائد الديوان تقول في قصيدتها المعنونة " كآبة " : " حزينة اليوم روحي وحزنها القاتم مؤلمي ، فعلام الاكتئاب .. أترى الأوراق المتناثرة عن غصونها تدرى لأي غرض تقبلها الريح تتلاعب بها في تطايرها ؟ إنها لتتناثر تلك الوريقات المسكينة وتتهاوى أكواما ، هى التي كان يمضها إصر الالتصاق بشجرة أنالتها الحياة ، هى التي نزعت إلى الانعتاق والتحرر ، ها هي في نهاية الأمر فائزة بحريتها (❖).

تقول ميّ في (وداع لبنان) ..

" لياليك يا لبنان ! طبعت في إنسان عينى غورها السحيق .

وغياهبها الظلماء

ورسمت من أخيلة كواكبها في كياني أطياف البرق الخلب .

ونثرات الضياء .

وهدير شلالاتك المقتحمة الدافقة

كون بي شلالات ذات جبروت وعصيان ،

ورقرقة أنهارك أجرت في أنهار المحبة .. "(❖❖)

ولقد وجدنا في اعداد مجلتي " الهلال " و " المقتطف " التي صدرت ما بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٢٥ ترجمات لبعض قصائد " أزاهير حلم " بقلم ميّ، ضمها

(❖) المرجع السابق : ص ١٣ .

(❖❖) السابق : ص ٣٤ .

ضمها الدكتور جميل جبر إلى القصائد الست التي ترجمها إلي العربية في الكتاب الذي نشره ببيروت عام ١٩٥٢ بعنوان "أزاهير حلم " وقد ترجم فيه أكثر اللوحات النثرية ، وأعطاها عناوين من عنده ، وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن كتاب " أزاهير حلم " الذي قدمه الدكتور جبر لمحبى أدبها ، هو لا يمثل ديوان شعرها الفرنسى بكامله ، لأن عدد قصائده الموزونة بلغ ثلاثا وأربعين قصيدة"(❖).

ونجد أنها بعد أن أصدرت ديوانها بالفرنسية ، اتجهت للكتابة بالعربية لغة قومها وأجدادها وذاعت شهرتها بالأعمال الأدبية التي قدمتها .. والجدير بنا أن نذكر أن ميا لم تنظم الشعر العربي ، ولا يعرف الذين اتصلوا بها أنها شغلت بمعالجته .. رغم أنها كانت تطرب للشعر العربي ، وتحفظ منه ما استطاعت لكنها كانت القراءة للشعر العربي في مختلف عصوره ، وقد كانت شديدة الشاعرية في أسلوبها النثرى ، الذي لا يتقيد بوزن ولا قافية ، وكانت تتمنى أن تنظم الأبيات أو القصيدة ، فلم تنظم شعرا ، بل لم تنظم بيتا كاملا ، وفي ثنايا حديث لها مع الأستاذ طاهر الطناحى (❖❖) قالت إنها لم تنظم في حياتها إلا شطرا واحدا ، حين اقترح عليها والدها أن تخمس البيت الأول من هذين البيتين:

أرى آثارهم فأذوب شوقا

وأسكب في معاهدهم دموعي

وأسأل من بفرقتهم بلاني

يمن عليّ يوما بالرجوع

(❖) سلمى الكزبري: مقدمة المؤلفات الكاملة ، ص ١٩ .

(❖❖) طاهر الطناحي : مرجع سابق، ص ٣١ .

قالت : " ميّ " : فلم أستطع إلا أن أقول هذا الشطر الأعرج .

"عرفتهم فأضحى القلب رقا .. " .

ولهذا أؤكد أنه ليس صحيحا ما روى أنها بعثت إلى إسماعيل صبرى بيتين ، فأجابها عنهما بثلاثة أبيات ، فردت عليه ببيتين ، وأرجح أن يكون أحد أصدقائها هو الذي نظم ما نسب إليها في إحدى جلسات الصالون ، أو أن إسماعيل صبرى هو الذي نظمه، فقد جاء في ديوانه أنه كتب تحت بيتين قالتهما أديبة معروفة " ميّ " وهما:

فديتك يا هاجرى فهل ترتضى بالفدا

سهرت عليك الدجى وبحت ولكن سدى

فأجابها :

أهاجرتي أطفئى لواعج لا تنتهى

مضت في هواك السنون وما نلت ما أشتهى

إذا قيل مات الأديب بفاتنة.. أنت هى

فلما قرأت أبياته كتبت تحتها :

زمانك قبلي انتهى ولا يرجع المنتهى

فحسبى أن أزدهى وحسبك أن تشتهى

هذا ما ورد في الديوان ، وميّ لم تقل شعرا إلا شطرا واحدا في تلك المناسبة، لأن تربيتها المحافظة التي يعرفها الجميع، وأخلاقها التي يغلب فيها الوقار والحياء، تأبى عليها أن ترسل شعرا في الحب لأحد من الناس مهما كان

صديقا عزيزا.. وليس معنى عدم نظمها للشعر العربى أنها لم تكن لها آراء ومواقف فيه ، فقد اطلعت على الكثير من الشعر العربي من جاهليته حتى العصر الحديث ، وكانت تتذوق الشعر وتنقده ولها نقد للنشيدين القوميين اللذين وضعهما " أحمد شوقي " ومحمد الهراوى .

يقول الهراوي :

فيا وادى الكنانة لن تزولا وفيك النيل يجرى سلسبيلا

يطوف بمائه عرضا وطولا ويبسط فيضه عاما فعاما

فيابن النيل ، هزَّ لواء مصرا وهيىء في النجوم له مقرا

تعلق ميّ على الأبيات قائلة: " كيف يكون لواء مصر في النجوم " وهيىء في النجوم له مقرا " ثم يعيش " ابن النيل " في ظل ذلك اللواء وهو في مصر بالقارة الأفريقية .. هذا ما لا يستطيع تفسيره أحد ، وليس من تفسير ممكن سوى أن الشاعر وجد أمامه معنى قديما ذا طنين ، فاستعاره ضاربا صفحا عن مخالفته ، لأبسط أصول العلم والمنطق وهذا ما نفعله جميعا ومرات عديدة في الشعر والنثر والخطابة والمحادثة العادية وهذا " الغلو البديعي " هو من ألزم عيوب الآداب العربية " (❖)" إن نقد ميّ للشعر كان يدل على سلامة ذوقها وحسها المرهف .. وكانت ترى أن الوجهة المعنوية للشعر العربي الحديث ، لم تبرز بوضوح وترى أن الشعر الحديث لا يرمي إلى غرض مقرر يرمي إليه ، إلا كونه سائرا مع الجيل الجديد من الشعراء إلى التحرر يوما فيوما من الأسلوب القديم والتعبير القديم والقيود الصناعية.. التي يتمشى عليها أنصار القديم آمنين .. وعن المؤثرات التى

(❖) المؤلفات الكاملة: جـ ١، ص ٤٥٦ .

تؤثر في وجهة الشعر العربي القديم ، فأهمها الشعور بحاجة البلاد وآلامها والشعوركذلك بجمالها وخلودها يصحبه استفزاز العاطفة الوطنية والتغنى بحميد الصفات الشرقية ، وتعظيم الشرق وتمجيد الحرية ، ومؤشرات أخرى اكتسابية أتت عن طريق الدراسة والاطلاع على مبتكرات الغرب فلفتت الشعراء إلى ما هو جدير بعنايتهم وأغانيهم ، وشرحت لهم بعض ما يخالجهم ، ودلتهم على كيفية الإفصاح عنه ، وعندى أن أظهر ميزة في أبناء اليوم أنهم يعتلجهم القلق أمام مشاكل العالم ، أدركتهم حمى الحياة فهم يبحثون من المسائل ، ويعون من معاني المجتمع والطبيعة ، ويحسون من روح الوجود ما كان ولا يزال الجيل السابق غافلا عنه ، ومن الدلائل اعتقاده البادي في آثاره أن مشاكل العالم تحل "بالنصائح" وأن ما نراه من التشويش والضجيج راجع إلى " عناد " الناس وغرورهم (❖).

وكانت تؤمن بالدور الهام الذي تلعبه الجماعات الأدبية في الوطن العربي وترى أن الجماعات يجب أن تكون متخصصة كجماعة للشعر أو رابطة للنثر مثلا.. وكانت ترى أن الصلة بين شعراء مصر وشعراء العرب المحدثين من غير المصريين ليست قوية من حيث تفاعل الأفكار ، وإنما هى متشابهة من حيث الدوافع القومية والمناهج البيانية .

ورغم أنه يتعذر تحديد الشعراء العرب القدماء الذين أثروا في الشعر الحديث – رغم هذا التعذر – لكن ميا ترى أن المتنبى وأبا العلاء هما أكثر

(❖) السابق: ص ٥٠٩ .

تأثيرا، فالأول من ناحية المفاخرة والثاني من ناحية النزعة الفلسفية التي يغلب عليها التشاؤم والاستياء .

وما كانت تحب ميّ المفاضلة بين شاعر وشاعر سواء في القديم أو الحديث أو في الشرق أو في الغرب .. وترى ميّ أن كل واحد من هؤلاء الشعراء " الذين يفاضل بينهم " المختلفون مذاهب ومشارب ، وبيئات ومنازل – يعطينا صورة عصره وبيئته بل صورة الإنسانية في جميع العصور وجميع البيئات ملونة بلونه متكلمة بصوته .

الخطيبة والمحاضرة

لما كانت ميّ تلميذة في مدرسة الراهبات بعينطورة ، كانت المدرسة تكلف التلميذات بإلقاء خطب تعدها لهن المعلمات ، ويمثلن كذلك بعض القصص ، فكان هذا يستفزها إلى التأليف والخطابة ، حتي اشتهرت في المدرسة بجودة الإلقاء والإنشاء في اللغتين الفرنسية والعربية .

وظلت موهبة الخطابة تنمو معها ، حتى بعد أن انتقلت أسرتها إلى مصر، ولما عادت في صيف أحد الأعوام إلى لبنان – وهي ما تزال في مطلع شبابها – حاولت أن تتفرغ للقراءة والترجمة عن الألمانية التي كانت تعلمتها حديثا وقتذاك، لكنها تبرمت من إضاعة وقتها في التسلية ومجاملة الأهل والأصدقاء ، فأبدت رغبتها في عزلة تخلو فيها إلى نفسها ودرسها ، واستجاب لمطلبها في العزلة أحد جيرانها ، فبنى لها كوخا أخضر السقف والجدران وجلله بالغصون وورق الشجر ، ومن الداخل كساه بحرير أخضر ، فسعدت ميّ بهذه العزلة في " شهور الشوير " .

ولما اجتمع الجيران وأعيان المصيف لتكريمها في " أغسطس " عام ١٩١١، وقفت خطيبة بينهم قائلة " لا أجرؤ على رفع كأسى ، لأن من رفع كأسه في مثل هذا الموقف وجب عليه تأدية الثمن كاملا بليغا ، وأني لي البلاغة ، أنا التي يتعثر لساني في اللفظ العربي البسيط ؟ وكيف أجيء بالكلمة المحكمة أنا التي لا أعرف شيئا ، وقد فاجأتنى عنايتكم بقول جميل منظور ومنثور ، وبثناء قد يستحقه عالم قضى عشرات الأعوام في البحث والتنقيب والإنتاج ، ولكنه يدهش فتاة مازالت عاكفة على كتب التلمذة الأولي ، تستظهر من الدروس ما يستظهره طلبة المدارس الابتدائية تقريبا ..

لو علمت أن الاحتفاء بي وحدى مجردة لحبس الخجل كلمة الشكر على شفتى، ولاختلجت يدى وهي تحمل الكأس.. ولكنى أعلم أن الغاية من هذا التكريم أبعد من أن تحصر في فتاة ، وأعظم من أن توجه إلي فرد وإنما الغاية منه تشجيع الفتاة الشرقية عموما التي تقولون لها في شخصى إن الشرق روح جديدة تطلب نهضتها، وإن عيونكم ترقبها وقلوبكم ترعاها منتظرة ما يتم عن رغبتها في النهوض أو عن مجرد ميلها إليه، لتمدوها بالقوة والتنشيط الممكن (❖).

وفي مصر والوطن العربي شاعت الخطابة ، فكان الشيوع حافزا لتقف على المنابر أسوة بالخطباء والمصلحين ، وإن تكن دونهن سنا ، لقد ذاع صيت ميّ الخطيبة من يوم أن وقفت موقفها الأول الرائع في تكريم الشاعر خليل مطران عام ١٩١٣، على إثر الإنعام عليه بوسام ملكي ، وقد بعث الشاعر جبران خليل

(❖) السابق: جـ ١، ص ٩، ١٠ .

جبران صديق مطران كلمة تقرأ في الحفل ، فاختيرت " مي زيادة " لإلقائها وكان هذا في حفل رسمى حضره علية رجال القوم من وزراء وأدباء وصحفيين وقضاه وبعض المستشرقين ، وعقبت ميّ على كلمة جبران بكلمة من إعدادها .. وفوجىء الجمهور بها وبصوتها الخفيض الساحر الرقيق تنطق الفصحى بلغة خلابة تأسر السامع ، في نبراتها موسيقي تمنح الكلمات خلجات نفسها فتستنطق الأحاسيس المدفونة وتثير العواطف ، ومن الذين بهروا بميّ يومها طه حسين الذي كان بين المدعوين ، فقد سمع كثيرا من الشعر، وكثيرا من الخطب ، فلم يحفل بشىء مما سمع ، لم يعجبه حافظ إبراهيم في ذلك المقام ، ولم تعجبه قصيدة " مطران " لم يرض طه حسين عن شىء مما سمع إلا صوتا واحدا ، سمعه فاضطرب اضطرابا شديدا وأرق له ليلته تلك .. كان الصوت نحيلا ضئيلا، وكان عذبا رائعا ، لا يبلغ السمع، حتى ينفذ في خفة إلى القلب فيفعل به الأفاعيل .

وكان مما قالته يومها معقبة على كلمة الشاعر جبران خليل جبران" كل ما تشتاقه الأرواح تبلغه الأرواح .. صدى الكلمات الأخيرة التي تموجت في مسامعكم أيها السادة ما زال يرن على أبواب فؤادى ، مثيرا فيه ميلا إلى الكلام ، منبها في أعماقه شبه قوة اكتفت بالاصغاء حينا وهي تحاول الانقلاب إلى همس ، إلى نغمة إلى صوت إنسى ينقل إلى عالم السمع سرائر التأثيرات النفسية ، في هذا الاجتماع البهى لم نسمع إلا أصوات الرجال مادحة ، مقرظة ، معجبة ، شاكرة ، مفتخرة ، وصوتي الصوت الوحيد الغريب بين تلك الأصوات القوية الجميلة ، إنما ارتفع ليقوم مقام صوت رجل غائب .

والآن أريد أن أتكلم بنفسى وبصوت جنسى ..

أيها السادة ، من يريد إكرام النبوغ الذي نحييه اليوم وتربية عاطفة الشكر في صدور الرجال ، فليذهب إلى بيته ويعلم أبناءه ترتيل القصيدة الخليلية (❖)، ويضع بين شفتى صغاره رنات تلك الأسجاع الموسيقية.."(❖❖).

ومن يوم أن وقفت مىّ خطيبة في الحفل الذي أقيم لتكريم " مطران " والأدباء يترقبونها في المحافل والمنتديات الأدبية بصوتها الساحر .. فهي تعرف مجال التأثير في نفوس أحبت الخطبة الشاعرة ، وكرهت القصيدة الخطابية .. ولم تقتصر الخطابة لدي أديبتنا على نطاق الخطابة الأدبية فقط بل تعدتها إلى الخطابة الاجتماعية .

ومن أمثلة ذلك وقوفها على المنابر والجمعيات النسائية في مصر تدعو إلي إغاثة لبنان في محنته الأليمة – ففي خلال الحرب العالمية الأولي فتك الجوع بالشعب اللبناني وهاجر بعض اللبنانيين إلي مصر – فكان لها الدور العظيم في إنقاذ الجياع وإغاثة المشردين .

وفي ثورة عام ١٩١٩ التي قامت بمصر، كان للخطابة دور هام في إشعال حماس الشعب ، فوقفت مواقف مشهودة تندد بالاحتلال وتنادي بالحرية والاستقلال.. " وإذ أعد الخطباء في أيامها وقد أسهموا في الوعي الوطنى والثقافي أمثال سعد زغلول ومكرم عبيد والهلباوى، فإن ميا، ممن شاركوا في هذا الأمر بالخطابة ، حتي إن المستشرقين الذين شهدوا مواقفها وسمعوا خطبها

(❖) نسبة إلي خليل مطران .

(❖❖) المؤلفات الكاملة : جـ ١، ص ٩، ١٠ .

ذكروا في مؤلفاتهم أن مصر في هباتهم القومية كانت تعتز بخطيبين أديبين هما توفيق دياب وميّ زيادة "(❖) .

وقد وصفها الدكتور منصور فهمى بقوله: " لقد أعجبت بالآنسة مي محاضرة كما أعجبت بها كاتبة ، فقد كانت في ذلك المضمار مجلية ، ولا أعدو الحق إذا قلت إنها كانت محاضرة من أرقي طراز وأعلى غرار ، ولعل أسبابا كثيرة اصطلحت على تفوقها في ذلك الميدان فقد كان لها من عذوبة صوتها ، وحسن أدائها ، وحلاوة إلقائها ، ووسامتها وحسن سماتها معين على ذلك ، وكانت تميزها حين تقف للخطابة فى حفل أو المحاضرة فى جمع ثقة بنفسها واعتداد بشخصيتها ، فما عرفت أنها تهيب منبرا ، أوخشيت موقفا أو غشيتها سحابة من جبن ، أو جللتها غمامة من خوف ، بل كانت دائما الواثقة الشجاعة"(❖❖).

وكان لحديثها سحر يجذب المستمع ، حتي أن الأستاذ العقاد نفسه يقول: " إن ميا كانت فيما تتحدث به كالذي تكتبه بعد روية وتحضير ، فقد وهبت ملكة الحديث في طلاوة ورشاقة قادرة على إدارة الحديث بين جلسائها المختلفى المزاج والرأي والثقافة والمكانة" .

حتى عندما ابتليت بمحنة الاضطهاد في بيروت .. كانت تستقبل زوارها في منزل أجر لها في " رأس بيروت" وكتب الأستاذ القاضي خليل الخوري مقالا ذكر فيه جلساء ميّ في محنتها ، قال فيه: " .. يختلف إلي نزل النابغة ميّ

(❖) وداد سكاكينى: مرجع سابق، ص ٨٣ .
(❖) محمد عبد الغني حسن: مرجع سابق، ص ٢١٧ .

جماعة من الأصدقاء لمواساتها بل للاستمتاع بمجالسها والإصغاء إلي حديثها الذي لا ينضب معينه .. فقد ضربت بسهم وافر في كل معلوم ومجهول ، وإنك لتلمس في حديثها الروح الحي والظرف الذي به تجعل الموضوع الجاف الذي لا يحبه كل الناس كالتاريخ مثلا موضوعا يلذ لك سماعه من لسان ميّ ، وأظهر ما فيها مقدرتها علي إستهواء كل جليس ، فهى تستطيع التحدث إلى الساذج فتنزل اليه وتصبح كأنها شخص آخر ، ثم تصعد به قليلا حتي يرقى عن سواه " .

" عهدنا الناس على العموم ، المتعلم منهم والجاهل ، ينفرون من الإصغاء إلي الأحاديث الجدية التي في استيعابها كلال للذهن ، ولكنا رأينا ميّ تسيطر عليهم بما وهبها الله من قوة تستطيع بها جعل الإصغاء إليها لذيذا حتى في الموضوعات الحديثة فيستفيد منها العالم والجاهل والرجل والمرأة والطفل ، فهي تسلب الألباب جمعاء يزورها أصحابها ليمكثوا معها وقتذا فإذا بهم مكثوا أضعاف أضعافه وقد مرت كالبرق الخاطف .. " (❖)

ويرى الأستاذ سلامة موسى أن أحاديث أديبتنا أروع من كتاباتها ويرجع سبب هذا إلى كونها شرقية تخاف أن تبوح بالكتابة بكل ما تفكر فيه ، ولكن الخوف يزول عنها حينما تتحدث .. وكانت كذلك محاضرة بارعة ، لا تتكلف ولا تتصنع بل كانت على سجيتها في الأداء والالقاء وكانت أول محاضرة لها عام ١٩٢١م في الجامعة المصرية عنوانها " غاية الحياة " تقول ميّ عن غاية الحياة " لا أعرف كلمة خطيرة كهذه وأكثر تفلتا من حدود التعريف ، إن لفظة " الحياة "

(❖) جريدة "المكشوف ": ع ١٤٨، بيروت، ١٩٣٨ .

في معناها التام تشمل الكون بأسره مما يرى وما لا يرى ، وهي ذلك التيار الخفي النافذ في كل شيء ، المحيط بكل كائن ، وقد حوى من الاقتدار والجبروت ما ألقى في روعنا أنه من روح الله ، كأننا نحسب الحياة من نسمات نور وانعاش منطلقة من صدر تلك القوى الكبرى ، التي نسبح جميعا في بحار وجودها ونسميها الله.. فإذا شمل معنى الحياة جميع الموجودات فأني لنا تعيين غايتها ؟ من ذا الذي يجرؤ على تعيين غاية الفلك في دورته ، والنجوم في سيرها، والمذنبات في تكوينها ، والشموس في تشععها واحتراقها ، والنيازك في تساقطها على الأرض أحجارا سوداء؟ من ذا الذي استشف من البحار غاية المد والجزر ومن القمر غاية الاكتمال والانتقاص ، نحن نعرف بعض الأسباب الطبيعية في الخليقة وما ترتب عليها من النتائج . ولكن لماذا تعمل تلك الأسباب، وما غاية هذه النتائج ، وإلي أين يقودنا هذا الوجود وهذا الفناء؟ لغز رائع لا يحله الإنسان مهما ارتقي علما وفضلا وإخلاصا .. "(❖) وكانت ميّ في محاضرتها خصبة الرأي والفكر فياضة في بيانها ، واقعية في نزعتها الخطابية، ولما ألقت ميّ محاضرتها .. " فضل المرأة علي الحضارة الإنسانية " في الجامعة الأمريكية بالقاهرة تصدى لها الدكتور طه حسين في نقد دعابي نشره في مجلة " الرسالة " عام ١٩٣٢م.

"فقد كان صديقها الدكتور طه في طليعة المستمعين لمحاضرتها، فأحب أن يخالف عن رأيها في فضل المرأة علي الحضارة الإنسانية زاعما بأن الحضارة

(❖) المؤلفات الكاملة : جـ ١ ، ص ٦٤٥ ، ٦٤٦ .

نفسها هى صاحبة الفضل على المرأة والرجل ، ولو أن محاضرة ميّ كانت عن الحضارة العلمية لحق لناقدها الدكتور طه أن يتهكم على إدعاء ميّ فضلا للمرأة علي الحضارة ولا ينكر المنصف ما كان للمرأة قديما وحديثا من مشاركة قوية أو ضعيفة في الحضارة الإنسانية حتى في مجال العلم الذي أحب الدكتور طه أن ينفي فضل المرأة فيه وينسى مدام كوري وأمثالها .. " (❖) .

ولأديبتنا محاضرات وخطب عديدة في مختلف المجالات والمناسبات قد جمع معظمها في كتب والبعض الآخر لم ينشر ، فكتابها " كلمات وإشارات " يضم العديد من الخطب ، وقد جمعت الباحثة سلمى الحفار الكزبري بعض الخطب والمحاضرات لميّ وجمعتها في كتاب كان هو الجزء الثاني لـ"كلمات وإشارات"، ومن الكتب التي ضمت محاضرات ميّ أيضا كتابها " ظلمات وأشعة " و"الصحائف" و«بين الجزر والمد » بجانب محاضرات أخرى منشورة على صفحات المجلات .

وقيل إن آخر محاضرة ألقتها كانت بالجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٣٨ ولقد شاءت أن تثبت للملأ فداحة ما اتهمت به ، ولقد صمت صوتها لحظات وهى تلقي المحاضرة فخشى الحضور أن يسقط النسر المحلق .. لكن مي صمتت ليتكلم دمعها .

وقفت أديبتنا قرابة « ساعتين » تتحدث في قوة دافعة ، ومقدرة ساطية عن رسالة الأدب في الحياة ، وترى « أن رسالة الأديب تعلمنا أن العالم العربى على

(❖) وداد سكاكيني : مرجع سابق ، ص ٨٧ .

تعدد أقطاره وحدة واحدة تشغل مكانا فسيحا في القارتين الآسيوية والأفريقية .. وتعلمنا أن نفاخر بلغتنا العربية الممتازة على سائر اللغات بأنها ولدت لغات قديمة اندثرت منذ قرون ، ومازالت العربية تفيض حياة ، مجارية حتى أحدث اللغات بالقوة والمرونة والجزالة والرشاقة ، كل أمة تسعى الآن إلى نشر لغتها بين الأمم الأخرى ، باذلة في سبيل ذلك المال والإغراء والدعاية والجهود ، أما نحن فانتشار لغتنا شيءواقع وميزتها هذه تربط بين العربية برباط قوي جاعلة الفرد الواحد منا ملايين .

رسالة الأديب تعلمنا كيف نخلق حضارة أدبية ، إذ بها لابغيرها ، تقاس مواهبنا ويسبر غور طبيعتنا ، وهى التي تثبت وجودنا ، وتنطلق بلساننا مترجمة عن مبلغ الإنسانية فينا .. » (❖).. لقد كانت مي زيادة خطيبة ومحاضرة رقصت لذكرها المنابر وطربت بسحر بيانها أندية الخطابة ، ونطقت بآيات خلبت الألباب ، لقد كانت تتكلم وأجفان سامعيها مشدودة إليها بالأهداب .. وفي رأينا أن هناك عدة مقومات اجتمعت في شخص مي فجعلتها تتفوق كخطيبة ومحاضرة من هذه المقومات :

■ ثقافتها المتعددة والمتنوعة ، التي جمعت الشيء الكثير من العلوم والمعارف العصرية كالفلسفة القديمة والحديثة والمنطق والتاريخ والاقتصاد وفلسفة العمران والشرائع والأديان ، وكان لها معرفة بآداب اللغة العربية وبعض اللغات الأجنبية .

(❖) المؤلفات الكاملة : جـ ٢ ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

■ سلام الذوق في انتقاء موضوع " الخطبة " أو المحاضرة مما يجعل الكلام مطابقا لما تقتضيه الحال وذلك عين البلاغة ، فأسلوبها السهل الممتنع ، الذي كان غاية في السلاسة يدخل الآذان بلا استئذان والمعاني يأخذ بعضها برقاب بعض ، وكان كلاهما من اللحن الذي كثيرا ما يشوه الخطب ويذهب بطلاوتها وبهائها .

■ استخدام الإشارات .. فاشإرات الخطيب عامل هام من عوامل التأثير في السامع .. وتلك الاشارات التمثيلية كانت تبدر من مي رشقية .. طبيعية تأتى في موضعها بلا تصنع ولا كلفة .. ويرى بعض البلاغيين الخطباء أن ثلث تأثير الخطيب لعباراته وثلثاً لإشارات الخطيب وثلثاً لنظراته الساحرة .. وقد استتب لمي العناصر الثلاثة .. فكانت بليغة فصيحة البيان وإن مؤلفاتها لهي خير شاهد على هذا .. وعن إشاراتها فيذكر من أحد مواقفها أنها ذات مرة وقفت تنتقد في محاضراتها سلوك بعض السيدات الذي يتذبذب بين القديم والجديد ، وضربت لهذا مثلا بالسيدة التي تضع على وجهها برقعا شفافا ، بينما هي تسير عارية الساقين بلا جوارب .. وعندما كانت تلقى هذه العبارة مدت يدها إلى طرفي فستانها لتمثل هذه الواقعة .. فإذا بالقاعة كلها تضج بالتصفيق لهذه الحركة .

أما الناحية الثالثة وهي نظراتها ، فكان لعينيها سحر قوي تجتذب بهما وإليها الأبصار والأفكار .

■ تأثير صوتها.. الناس يتفاهمون بطرق متنوعة منها الكتابة والإشارات والعيون والأصوات ولكن أهم هذه الطرق الصوت، لأنه حي وله قوة عجيبة في

إثارة العواطف وإذابة حبات القلوب ، لاسيما إذا صحبته الحركات الرشيقة وصوت مي كان رخيما .. ليس بالأجش الخشن الذي يعافه السمع ولا هو بالضعيف الذي لا يكاد يسمع ولا بالحاد الذي يكاد يمزق طبلات الأذن .

الشخصية الجذابة .. فاللغة ليست الموصل الوحيد لأفكار الخطيب إلى عقول وقلوب سامعيه ، بل إن هناك موصلا آخر روحانيا ، لا يدرك بالحواس الظاهرة يساعد على ايصال أفكاره اليهم ، وقد رأى بعض المثقفين أن هذا الموصل هو « المغناطيسية الشخصية » ، فكل من أصغى إلى جماعة من الخطباء على التعاقب يدرك الفرق بين من كلامه يخدر الأعصاب،وينوم السامعين وبين من يثير الانتباه ويجذب السامعين ، ومي قد خصها الله سبحانه وتعالى بنصيب كبير من هذه المغناطيسية أو الجاذيبية ، حتى صح فيها قول الشاعر :

كأنما أوجد الرحمن صورتها

من « مغنطيس » لها الأبصار تجتذب

إخلاصها .. كانت مي مخلصة .. صادقة فيما تتفوه به ، لا تنطق إلا بما تعنيه لا تعني إلا ما تقوله ، والصلة بين قلبها ولسانها تامة ، فالكلام الذي ينبع من القلب يصل إلى القلوب بلا حواجز أو سدود ، والكلام يتفوه به اللسان ولا يقتنع به قلب قائله لا يتجاوز الأوزان .

قوة التصور .. يفتقر الخطيب إلى قوة التصور ليس فقط لتكون لكلامه صورة جلية في ذهنه ، بل ليتمكن من أن يتلاعب بالمعاني وصور التعابير على نسق شائق يأخذ بمجامع الأفئدة ، وقوة التصور للخطيب والمحاضر بمثابة

الريش للطائر يحلق به إلى سماء الخيال فيوحي إليه من سور الحكمة وآيات البلاغة ما لا يوحي إلى من كان عاجزا عن هذا التحليق ومي عرفت بسمو خيالها ، فلا عجب أن تجري آيات البلاغة على لسانها(❖).

في أدب المقال

كانت بداية رحلة أديبتنا مع أدب المقال وهى طالبة صغيرة في المدرسة ، حيث كانت تدون مذكراتها علي شكل مقالات باللغة العربية تارة وبالفرنسية تارة أخرى .. وقد نشرت مقالاتها الأولى في جريدة والدها « المحروسة » وفي مجلة « الزهور » وكانت توقع بعض مقالاتها - لاسيما في بواكير إنتاجها الأدبي - بأسماء مستعارة منها « عائدة » و « السندباد » و« خالد رأفت » وغيرها من الأسماء ... وبعد أن رسخت قدماها في عالم الأدب ، اعتمدت اسم "مي " في سائر أعمالها المنشورة وعرفت به .

ومن استعراضنا وقراءاتنا لأعمالها الأدبية ، نلاحظ أن كفة المقال لديها غلبت ورجحت على سائر الفنون الأخرى من أشعار ومحاضرات وترجمات وغيرها ولها أربعة كتب تضم ما نشرته من مقالات في الصحف والمجلات من عام ١٩١١ حتى عام ١٩٢٤ وهذه الكتب الأربعة هى :

سوانح فتاة ١٩٢٢.

ظلمات وأشعة ١٩٢٣.

الصحائف ١٩٢٤.

(❖) داود قربان: مىّ فى سوريا ولبنان، د. ن، بيروت، ١٩٢٤، ص ٢٤.

بين المد والجزر ١٩٢٤ .

وفي رأينا أن رجحة المقال في أدبها ، يرجع لأسباب عدة منها :

- أن المقال هو أقرب وسيلة فنية لمخاطبة جمهور القراء والمثقفين .

- تطور الصحافة العربية في النهضة الحديثة ، فارتبط أدب المقال بالصحافة، فاعتمدت الصحافة على المقال اعتمادا شبه كلى .

- تحرر المقال من رق الصنعة اللفظية والإطناب والتكرار ، وكان لأدباء المقال في مطلع هذا القرن فضل عظيم في هذا .

- المقال هو الوسيلة الأولى للأدباء والمصلحين والساسة ، للإصلاح والبناء.. ومن أبرز الأدباء الذين لمعت أسماؤهم في فن المقال العقاد وطه حسين والمازني وغيرهم .

والحقيقة أنها لم تتأثر في أدب المقال بأدباء مصر ولا أدباء الوطن العربي ، بل تأثرت في هذا الفن بالذات بأدباء المهجر كجبران وميخائيل نعيمة والريحاني .. وتعددت الموضوعات التي عالجتها في مقالاتها من السير والتأملات والخواطر والرحلات والمقال العلمي والفلسفي وغير ذلك .. وتميز أسلوبها بالشاعرية المرهفة والرومانسية المحلقة في خيال التصوير ، ومن هنا كانت لينة في معالجتها للموضوعات لا تميل إلى العنف ولا إلى التجريح أو الشدة .. فكان القاريء لا يسأم من مقالاتها سواء طالت أو قصرت .

ومنذ عام ١٩٢٢ لمع اسمها في جريدة « الأهرام » وكانت تكلف بكتابة المقال الافتتاحي من حين لآخر ، وظلت تواصل نشر مقالاتها في الأهرام حتي عام

١٩٣٥ وكانت تشرف مي على الصفحة النسوية في جريدة « السياسة الأسبوعية» وكانت تلك الصفحة تحفل بمختلف المقالات والسوانح والخواطر الثقافية والاجتماعية ، وكانت تكتب مي مقالا شهريا في مجلة « المرأة الجديدة » اللبنانية التي كانت تشرف عليها الأديبة اللبنانية « جوليا طعمة » .

غير أن هناك ملمحا مهماً من ملامح أدب المقال لدي « مي زيادة » ألا وهو اقتراب المقال لديها من فن القصة ، فلو طال عمرها لسايرت مسيرة تطوير القصة العربية الحديثة ولاسيما أنها نشرت ما يشبه القصة في مضمونها منها ما نشرته في مجلة "الهلال": «الحب في المدرسة» و « شمعة تحترق » .

ونبتت فكرة جمع « بواكير مقالاتها » المنشورة على صفحات الصحف والمجلات من يوم أن كتب لها الأديب الشاعر ولى الدين يكن عام ١٩١٤ متمنيا أن تجمع مقالاتها في كتاب لما فيها من أفكار تعلو بالمدارك وإشراق ينير جوانب النفوس، ولاقي اقتراحه قبولا في نفسها فجمعت مقالاتها وعنونتها بـ « سوانح فتاة» لكنها تريثت في نشرها حتى عام ١٩٢٢ ، وصدرت هذه المقالات ، وفي مقدمتها نشرت رسالة الأديب ولى الدين يكن التي بعث بها إليها قبل سبع سنوات مقترحا جمع مقالاتها ، وضم هذا الكتاب مجموعة كلمات وخطرات في موضوعات مختلفة لم تجمع بينها أواصر ولا علاقة ، ربما ذلك بسبب أنها نشرت متفرقة في الصحف والمجلات كل موضوع مستقل بناحية ما ..

وتبع هذا الكتاب كتابها الثاني في أدب المقال « ظلمات وأشعة » الذي يضم مجموعة مقالات مختلفة الموضوعات ، والكتاب مقسم إلى ثلاثة أقسام : من كوة

الحياة ، ونحو مرقص الحياة ، وفي مرقص الحياة ، ومقالات هذا الكتاب تدل على آراء مي ونظرتها إلى مختلف الموضوعات كالحياة والسعادة ووظيفة الأم وغير ذلك.

أما كتابها « الصحائف » فضم مجموعة من الدراسات النقدية والاجتماعية «القصيرة » تناولت فيه بعضا من كتاب الغرب أمثال « مدام دوسيفينيه» و«بييرلوتي» وكتابا من الشرق أمثال « جبران خليل جبران » والشاعر « إسماعيل صبري » والشاعر « ولى الدين يكن » وغيرهم ، وعنونت جزءا من كتابها بـ «رحلات السندباد البحري الثانى » سجلت فيه رحلاتها أيام صباها ورحلاتها بين فلسطين ولبنان ومصر .وفي العام نفسه الذي صدر فيه كتابها «الصحائف» عام ١٩٢٤ .. نشرت مطبعة الهلال كتابها « بين الجزر والمد » وهو أيضا يضم بين دفتيه مجموعة من مقالاتها ، التي نشرت قبل أن تجمع في كتاب على صفحات الصحف والمجلات .

وقد قدم الكتاب للقراء الأديب سلامة موسي ، متناولا أسلوب مي الجذاب، ومكانة أدبها ودورها في الحركة الأدبية العربية .. وكيف أنها ذات غيرة على لغتها العربية الفصحى ، فتحافظ عليها ولا تستعمل العامية ، وقال أيضا إنها تسعى إلى إجادة العديد من اللغات الأجنبية ، للاستفادة منها والاطلاع على ما يبدعه الغرب .

ولعل أبرز ما ميز هذا الكتاب الصفحات التي تتحدث فيها عن اللغة والأدب والحضارة ، فنجدها دافعت عن مقومات الأمة ونقدت معوقات النهضة

الحـديثـة .. وفي الكتـاب طـائفـة من البـحـوث القـومـيـة والأدبيـة القـصـيـرة والمناقشات، التي خاضتها بلباقة وكياسة .

في الدراسات الأدبية والنقدية

" مـا نفع النقـد " ؟ يتسـاءل شـارل بودليـر .. ثم يجيب: « الفنـان يلوم الناقـد في أنه لا يفلح في تعليم المتفرج الرسم والنظم ، وهو كذلك لا يعلم الفنان الذي لولا فنه مـا كـان النقـد ، ولكن هذا اللوم لا ينطبق إلا على النقـد الذي لا يرى ولا يشعر ولا يدرك » .

كيف يكون النقد إذن ؟

« أعتـقـد بإخـلاص أن خـيـر نقـد هو النقـد المنوع الشـعـري المبـهج ، لا ذلك النقـد البـارد الذي يسلك طريقـه علم الجبـر في حل المسـائل الريـاضيـة ، فيـزعم شـرح كل غامض وفض مغـالق الطبيعـة ، دون تحيـز ولا نفوز ، بل بتجـريد نفسـه اختيـارا مـن كل مـزاج وكل نزعـة.. » هذه بعض أقوال بودليـر في النقـد الفني .. وهو الذي كان ناقدا ممتازا كما كان شاعرا مطبوعا ، والكلام على النقد الفني.. ينطبق على النـقـد عـمـوما .. إذ إن النقـد كـالحـرية والعلم والفن لا يأتي بالطفـرة، بل هو تمـرين مـتـتـابـع طويل .. تحـديد الخطأ والصـواب أسـاس في نـقـد العلوم الرياضيـة والطبيـعية واللغوية ..أما النقـد الأدبي فلا إطلاق فيه .. وعمـل الناقد البصير هو التحليل لتقرير ماهية كتاب أو أثر فينبيء الناقد بذلك نفسه، وينبيء الجمهور معينا نزعة من نزعات العصر (❖).

(❖) وداد سكاكيني : مرجع سابق، ص ٩٢ .

ومن الظواهر التاريخية في حركات الفكر العربي المعاصر ، الذي كان تواقا في بوادر التطور والإصلاح للتحرر من قيود الصناعة اللفظية والطريقة التقليدية أن الذين برزوا نقادا موهوبين كانوا قلة من الرواد ، ثاروا على القديم الذي عوق التطور والانطلاق في حياة الأدب وثقافته . ولم تكن بينهم رائدة من أندادهم شاركت على طريقتها ، وطاقتها في النقمة على التخلف والجمود ، وفي الخصومات النقدية ، وإن لمعت في زمانهم صحافيات وموهوبات في الشعر والنثر أنشأن المقالات وألقين المحاضرات في صدد الأسرة والمجتمع وما ينبغي لهما من عناية خاصة وفي تحرير المرأة العربية من الضيم والجهل والاستبداد ، غير أن هؤلاء الكاتبات لم يتأثرن بالفكرة الثورية في النقد الأدبي ، وبالاقتباس من الثقافة الغربية في التعبير والاتجاه إلا بعد حين ، وما جربن الانطلاق في التأليف والتعبير على نسق مستحدث بل بذلن الجهود للتوجيه النسائي والجمعيات الخيرية والوطنية في مقالات ومجلات تولين بأنفسهن وأقلامهن إدارتها والتحرير فيها .. وعملهن على نشرها في مختلف البلاد العربية (❖) .

ولما كتبت الدراسة الأدبية والنقدية كانت مجددة في أسلوبها وفي طريقة تناولها للموضوع الذي تتعرض له . فمن أبرز مؤلفاتها في هذا المجال « باحثة البادية » عام ١٩٢٠، و«عائشة تيمور »عام ١٩٢٦، و« وردة اليازجي » عام ١٩٢٦، فحللت مي أدب هؤلاء النسوة الموهوبات تحليلا اجتماعيا ونفسيا وفنيا، وكانت تنفذ إلى أغوار الشخصية برفق ولين ، وإذا نقدت فهى أشبه بالطبيب الذى

(❖) أنظر « بين المد والجذر » ، ط دار الهلال ، القاهرة، ١٩٢٤.

يستخدم مبضعه برفق ودقة بالغتين ، ولا عجب أن تكون مي ناقدة جيدة ، فمنذ صغرها ، وهي مطبوعة على الملاحظة والتمعن والتأمل في الأشياء،وكانت تدون ملاحظاتها وخواطرها الأولى ، ولعل اسم مي لم يلمع بين نقاد عصرها ، لأنها لم تخض معارك الرأي والقلم ولم تتعصب لفكرة أو نظرية أو مبدأ ، فجاءت دراساتها النقدية معبرة عن طبعها ونزعاتها .. تميز كتابها الأول « باحثة البادية.. ملك حفني ناصف » بالتحليل الدقيق لهذه الشخصية وعصرها وبيئتها التي نشأت فيها ، وليس أدل على ذلك من عناوين فصول الكتاب: « المرأة – المسلمة – المصرية – الكاتبة – الناقدة المصلحة – .. إلخ ».

ويرى الأستاذ العقاد أن كتاب ميّ عن باحثة البادية يمثل أكبر جانب من تفكيرها وطبيعتها وأسلوبها .. يقول الدكتور منصور فهمي عن هذا المؤلف: « له عندي ثلاث ميزات ترفعه إلى أوج الكتب القيمة التي يستبقى لها تاريخ الأدب مكانته الأولى – إنه أول كتاب فيه نموذج للنقد العلمي المفيد ، الثانية – إنه على رأي صديق أديب أول كتاب من كتب النهضة الحديثة فيه صدق ووفاء علمي الثالثة – أنه أول كتاب في تاريخ سيدة عربية وضعته سيدة عربية » (❖) .. أما كتابها « عائشة تيمور .. شاعرة الطليعة » فإنه يتكون من سبعة فصول تتناول حياة وأدب عائشة تيمور .. وبإلقاء نظرة على عناوين الفصول يتضح لنا هذا: «عصر الشاعرة ، النشأة والزوج ، بيئة الشاعرة ، أشعارها ، نثرها .. إلخ » .. وأصل هذا الكتاب محاضرة ألقتها في جمعية «مصر الفتاة» بالجامعة المصرية

(❖) المرجع السابق : ص ١٨٢ .

ورأت مي أن حديثها عن شخصية « عائشة تيمور » حديث متفرد ، لأنه لا توجد دراسات أدبية عن هذه الشاعرة .. كما أن حياتها وأدبها جديران بالدراسة .. تقول مي (❖) : «فطالعت كل ما عثرت عليه من آثارها ، وجمعت من المعلومات عنها ما تيسر ، وفكرت في نشر بحوث عنها . وكان يدفعني إلى ذلك :

أولا : أن لعائشة فضل المتقدم بيننا وهي في طليعة اليقظة النسوية في هذه البلاد .

ثانيا: إن الجمهور يعرف أنها « شاعرة » دون أن يلم بما تتكون منه شاعريتها، ودون أن يقف على حال من أحوال حياتها أو يحلل ميلا من ميولها.

ثالثا: أن النظرة في مقدرتها ، إنما هي اكتناه للذات المصرية ، ليس من الجانب النسوي بل بوجه عام .. وسنرى بعد التحليل أن لعائشة مكانتها بين أدباء عصرها، وليس بين الأديبات الشرقيات وحدهن .

رابعا: أنها من عمال دولة القلم عاشت في وحدتها كثيرا .. وأعطتنا في شعرها ونثرها صورة مؤثرة .. أما رأيها في الحياة فجدير بالانتباه والتبصر ، لأنه رأي جمهور كبير من الشرقيين والشرقيات كان شائعا في زمانها وليس بالنادر في أيامنا هذه .

خامسا : إن هذا البحث يرافقه سرور متضاعف ، أليس أن جميع طبقات الناس تلذ لها الروايات ، وهي إنما تمثل حياة أشخاص وهميين ؟ فكيف بحياة

(❖) السابق: ص ٢٤٠ .

أشخاص عاشوا قبلنا وعانوا صامتين كل ما يعانيه أبطال الروايات ، وهم الذين توفرت لديهم شروط اليقظة أيام كان الجمهور منا في سبات واستكانة ! وكم من نابه قضى تاركا آثاره فاكتفينا بالثناء عليها وعليه ثناء النائحات على كل ميت ، فظلمناه في مماته بعد أن كان مظلوما في حياته ! فلم نستجل من آرائه رأيا ولم نحلل من العوامل التي كونته عاملا .

أما كتاب مي الثالث في مجال الدراسات الأدبية .. عن حياة الشاعرة "وردة اليازجى " فقد تناولت فيه حياتها وآثارها الأدبية ، وقد حثها على تناول هذا الموضوع الأستاذ « سليم سركيس » كما هو بين في تقديمها للبحث (الطبعة الأولى منه) .. وأصل هذا الكاتب محاضرة ألقتها مي في القاهرة (أيار ١٩٢٤) ثم نشرته تباعا في « المقتطف » وصدر عن البلاغ في القاهرة في طبعته الأولى عام ١٩٢٦ م .. وقد يتساءل النقاد والقراء عن الأسباب التي دعت مياً لاختصار سيرة « وردة اليازجي » بمحاضرة ، الجواب وجدناه في مقدمه الدراسة حيث قالت مي : « وأردت أن أقوم بالواجب نحو اليازجية مع علمي بصعوبة الكتابة عنها لتشابه المعاني التي تركتها في الشعر والنثر ، ولخلو آثارها مما قد كان يرسم صورة عن طبيعتها وميولها الصحيحة » .

والكتاب مقسم إلى أربعة فصول هى على التوالي : تعريف بوردة اليازجي – لمحة في حياتها – ديوان حديقة الورد – شعرها – نثرها .. ومنهج هذه الدراسة يتفق مع المنهج الذي سارت عليه مي في كتابها عن عائشة تيمور من حيث طريقة التناول والتحليل والنقد ..

إن أهم ما يميز الدراسات الأدبية والنقدية التي عالجتها أديبتنا ، أنها كانت مجددة لا مقلدة ، وتسعى للإحاطة بجميع جوانب « الموضوع » أو «الشخصية» التي تكتب عنها وتتمثلها في مراحل حياتها وبيئتها ، فتقدم لنا دراسة نابضة بالصدق والفهم الحقيقي لطبيعة الموضوع الذي تتناوله .

والملاحظ أن تلك الدراسات التي ألفتها كانت حول شخصيات نساء شهيرات وهذا يعني أنها كتبت الدراسة الأدبية عن طريق السير والتراجم .. وهذا لم يكن متبعا في فن كتابة السير في الأدب العربي .. ولا أبالغ إذا قلت إن ميا أول من أرسى الأصول الفنية لكتابة السير ، ولعل كتابها الأول في السير عن باحثة البادية هو خير ما يمثل المنهج الفني الذي اتبعته في الدراسات الأدبية والنقدية .

المترجمة

شاركت كاتبتنا في نقل بعض الآثار الغربية إلى اللغة العربية فترجمت ثلاث روايات أولهما: رواية الحب الألماني (Deuche Iiebe) وهي رواية رومانسية نشرها المستشرق الألماني (فريدريك ماكس مولور Frederich Max Muller)..

وقد صدرت الطبعة الأولى من الترجمة عام ١٩١٢م .. ولكن " ميـاً " لم تكن راضية عن ترجمتها وتنقيتها وطبعت ثانية ١٩٢١. والرواية كتبت على طريقة المذكرات .. الذكرى الأولى .. الذكرى الثانية .. الذكرى الثالثة .. وهكذا ، إلا أنها تميزت بتحليقها في عالم الخيال والأديب الرومانسي دائما يشعر بروابط قوية تشده إلى الطبيعة ، فيلجأ إليها هربا من المجتمع الصاخب الذي يقيد روحه ويسيء فهمه.

وهذا المجتمع الذي خلقته المدنية مجتمع زائف يصور له الفرق بين الخير والشر، والظلم والعدل والبغض والمحبة إلخ .. غير أن الطبيعة تلغي هذه الثنائية العرضية وتجسد حقيقة وحدة الوجود في أكمل مظاهرها .. ويأخذ الحب عند الرومانسي طابع الذاتية ، يؤكد الهوة التي تفصل بين عالمي الخيال والواقع إذ ينسلخ الحب عن الواقع ويصبح وهما يعذب صاحبه .. ولعل سبب ذلك يعود إلى قوة الخيال التي تسيطر على عاطفة الحب وتسكرها . إن الرومانسى لا يستطيع أن ينظر إلى الحياة إلا بعين خياله وأحلامه ، . لذلك نراه ينسج طيف محبوبته من أحلامه وأمانيه ومثله ، ويعشق عاطفة الحب لذاتها .. ، ولعل الكآبة التي تغمر الرومانسي هى نتيجة انهيار آماله الواسعة ، وعدم الظفر بالمال المنشود ، والجفوة بينه وبين المجتمع الذى يضن عليه بتقدير ما فيه من صدق العاطفة ونيل الإحساس. وربما يقترب في لحظات خاطفة من السعادة الحقيقية ، ولكنه يدرك في قرارة نفسه بأنها ستزول فيعاوده الأسى(❖) وكل هذا ينطبق تماما على رواية ماكس موللر التي ترجمتها مي وعنونتها بابتسامات ودموع .

أما ثاني الروايات التي ترجمتها رواية "رجوع الموجة" (Le RETQUR Ju Flot) للكاتب الفرنسي "برادا" Brada، وهي رواية رومانسية تتميز بالحزن والكآبة وتقع في نحو أربعة وثلاثين فصلا .

أما الرواية الثالثة فكان عنوانها "اللاجئون" (The Refugres) وهي من تأليف الكاتب الأسكتلندي "آرثر كونان دويل" (Doylesir Arthur Conan)، والرواية عربتها

(❖) أميه حمدان : الرمزية والرومانتيكية في الشعر اللبناني، دار الجاحظ للنشر ، بغداد ١٩٨١، ص٢١،٢٠.

ميّ عن الانجليزية وغيرت عنوانها إلى « الحب في العذاب » ونشرتها في عام ١٩١٧م .. ورغم أن أحدا من الباحثين لم يوفق في العثور على نسخة منها .. لكن الباحثة الأديبة سلمى الحفار الكزبرى .. وفقت في جمع فصول هذه الرواية ونشرت ضمن المؤلفات الكاملة لمي زيادة الصادرة عن مؤسسة نوفال ببيروت عام ١٩٨٢، وهذه الرواية تاريخية أدبية حدثت في عهد لويس الرابع عشر .

أيضا كتبت مي رواية بالإنجليزية ونشرتها في مجلة « سفانكس Sphinx » القاهرية عام ١٩١٧.. والرواية عنوانها "ظل على الصخر" (on the Rocshadow) ولكن لم يوفق أحد من الباحثين في جمع فصول هذه الرواية .

وقد عالجت مي زيادة فنونا أدبية أخرى لم نتعرض لها مثل أدب الرسائل ومقالاتها المتفرقة في الفنون التشكيلية والموسيقى والاجتماع والسياسة وبعض الأقاصيص التي ألفتها والمسرحيات القصيرة .. ولا أحسب أن عدم تعرضنا لمثل هذه المتفرقات يعد إهمالاً منا ، لأن هدفنا الإشارة إلى الخطوط الرئيسية في أدب مي .. كما أننا آثرنا ألا نكرر كلاماً معاداً فأدب الرسائل الذي اشتهرت به مي .. قد تعرضنا له في الباب الثاني من دراستنا (❖) .. أما متفرقات مي في مختلف الفنون ، فليس من شأن هذه المتفرقات أن تحدد قسمات أدب مي.. مادمنا قد تعرضنا للكليات .. ونترك هذا أيضا لموضع آخرأكتر اتساعا لدراسة أدب مي زيادة دراسة تحليل تفصيلية .

(❖) أنظر: الفصل الثاني من هذا الكتاب،" مي عاشقة ومعشوقة " .

لا شك أن ميّ زيادة تعتبر ظاهرة فذة في عصرها وفي نوعها، وسمات أدب تلك الرائدة في اعتقادنا يتمثل في الجوانب الآتية :

أولا: تنوع الفنون الأدبية التي عالجتها من شعر بالفرنسية أولا ثم الاتجاه إلى الترجمة وأدب المقال علي اختلاف أغراضه وموضوعاتها .. كذلك بالخطابة والدراسات الأدبية والنقدية والاجتماعية .

ثانيا: أنها قد استنت لنفسها أسلوبا خاصا ، له نكهته المتميزة في سلاسته وانطلاقه من أسر التكلف ، فهى لم تقلد أحدا ، والتجديد الذي ميز أسلوبها تركز في تحرره من الصنعة اللفظية واعتماد أسلوبها على الطابع الشاعري وقصر الجمل. واستخدام لغة تصويرية بطريقة الومضات، أو اللفتات السريعة وطرزت هذا الأسلوب بالحكمة والتدبر .

ثالثا: أنها قد اهتمت باللغات ، فقد أتقنت خمس لغات أجنبية ، واطلعت على روائع الآداب العالمية .. وبقدر ما تتنوع المناهل التى ينهل منها المفكر أو الأديب بقدرما يتنوع العطاء الفكري ويوصف بالدسامة.

رابعا: تأثرت بغير وعي منها بكتاب المهجر كما يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات « ولكن أدبها – يقصد أدب مي – على الرغم من نشوئه وبلوغه ونبوغه في القاهرة ، لم يتأثر بأدب مصر ، وإنما تأثر في شكله وموضوعه بأدب لبنان لأن الأدب اللبناني كان وحده في أواخر القرن الماضي ، وأوائل القرن الحاضر مظهر الحياة والجدة والتنوع في الأدب العربي » كذلك تأثرت دون وعي بالشعراء الرومانسيين أمثال لامرتين وألفرد دى موسيه وغيرهما.

خامسا: الحزن والكآبة سيطرا بشكل واضح على أدبها ، وذلك يرجع إلى

طبيعتها العاشقة للخلوة والتدبر وانطوائها الشديد .. وكبت مشاعرها الأنثوية الفياضة . فقد فرضت على نفسها التحفظ ، في حين أنها كانت تعيش بين اشتياقها إلى التحرر والانطلاق من ناحية أخرى القيم والمبادئ وحواجز المجتمع الذي يمنعها من ذلك من ناحية أخرى والحقيقة أن سائر الأديبات العربيات في النصف الأول من القرن العشرين وحتى بعد هذا الحين أيضا ، واجهن هذه الأزمة وبدت آثارها واضحة في آثارهن الأدبية ..

ومن أمثال هؤلاء الأديبات باحثة البادية وفدوى طوقان ونازك الملائكة وغيرهن .

سادسا: لا أحد يستطيع أن ينكر أن ميّ زيادة رائدة من رائدات الأدب النسائي العربي الحديث ، وليس هذا فحسب بل لها فضل الريادة الأولى في احتراف الصحافة والمحاضرة والدراسات الاجتماعية والمراسلات .. ولو لم تترك لنا من آثارها سوى مراسلاتها الأدبية مع كبار مفكري وأدباء عصرها لاستحقت الريادة في فن كتابة « الرسالة الأدبية » .

النقد بين تيارين

ميّ زيادة ظاهرة أدبية فريدة ، لفتت الأنظار إليها ، وهى بحق أهل لكل مظاهر التكريم والحفاوة التي لقيتها فى حياتها الأدبية ، وأهل للألقاب التى أطلقها عليها أعلام عصرها .. ومن هذه الألقاب « الأديبة النابغة » و «سيدة القلم العربى » كما سماها الأديب مصطفى صادق الرافعى فى إحدى رسائله لها عام ١٩٢٣ م و « أديبة العصر » كما دعاها الأمير شكيب أرسلان .

نعم .. كانت أهلا لكل تقدير لما قدمته للمكتبة العربية من مؤلفات ، وكانت من رواد التجديد فى عصرها ، وكانت فى طليعة كتاب جيلها الذين منهم العقاد وطه حسين والمازنى وعبد الرحمن شكرى وغيرهم .. إن مؤلفات ميّ زيادة حملت مواهبها وجسدت أسلوبها وأفكارها وحياتها أيضاً .. لا أبالغ إذا قلت إنها لو انصرفت إلى التخصص فى فن أدبى واحد، لأثرت المكتبة العربية والغربية أيضا بنفائس عظيمة . تصنع تيارا فكريا خالدا .. إن أديبتنا خطبت وحاضرت وترجمت وفتحت صالونها للأدباء والمفكرين .. وكل هذا بالطبع وزع إنتاجها ومواهبها.

أما موقف النقاد من أدبها فانقسم إلى نوعين :

الأول : تقريظ للعمل الأدبى ومزيج من الثناء والمدح والإطراء .. سواء كان المؤلف صائباً ، فى أفكاره أو غير صائب ، ولايهتم هذا النوع من النقد بالتحليل والولوج إلى جوهر العمل الأدبى .. فالإعجاب والاغتباط ليسا هما النقد .. وإن كان كذلك – فى نظر بعض الناس – فإنها نظرة سطحية تضر بالعمل الفنى لأن

الفكر ليس سلعة تباع وتشترى .. بفضل الدعاية لجودة هذه السلعة .

النوع الثانى : هو نقيض للنوع الأول وأصحابه يبعدون عنه كل مصطلحات الإطراء والثناء .. فيكون هذا النقد أشبه بحكم المحكمة أو بالبلاغ العسكري يعلن الأحكام العرفية .. وهذا النقد المتحامل نصيب الهدم فيه أكثر من نصيب البناء والتوجيه .

وكان نصيبها فى النوع الثاني من النقد وفيراً ، فنظر هذا النقد إلى مؤلفاتها نظرة استخفاف بالمرأة ومواهبها وقدراتها.. رغم أن ميأً ترى أن النقد وحي لأنه يدرك الوحي ويحتضنه ، وحرية « لا تمييز فى العبودية » رغم أن النقد ، كثيرا ما يضل نتيجة لمفهومنا الخاطى للنقد ، وأحسب أن النقد التحليلى أقل حظا فى الانتشار من الهجوم والطعن وحب التقول .. وكانت ، كما قال العقاد ، « شديدة التبرم بالنقد وكانت تتوقاه كثيراً ، ولو تبين لها أنه صادر عن نية حسنة ، فإذا حدث أنها تعرضت لنقد فى سبيل تصرفها بالترجمة ، فإنى أعتقد أن هذا لما أعلمه من مزاجها وحذرها كاف للعدول عن هذا التصرف أو لاستدراكه إذا أتيح لها أن تستدركه.. وحين قرأت نقدا لتصرفها بالنقل عن الألمانية لكتاب « فريد ريك مكس مولر » وكانت مبتدئة بالنقل عن هذه اللغة عادت إلى ترجمة الكتاب فى طبعته الثانية من جديد فتقيدت بالأصل محاولة إبراز الكتاب فى العربية بصيغته الشعرية البسيطة خاليا من الإستعارة الغربية والتنميق الشرقى » .

ولما نشرت الطبعة الثانية من هذه الترجمة لكتاب « الحب الألمانى » أو «ابتسامات ودموع » حسب اختيارها تناول هذا الكتاب بالنقد العنيف الكاتب اللبنانى الكبير « ميخائيل نعيمة » وكان مغتربا فى نيويورك إذ وجد الرواية المعربة

لا تستحق نقلها من لغتها إلى العربية ، فعدها من الطبقة الثانية أو الثالثة بين الروايات على حد قوله « وليس ما يدعو إلى الأسف سوى أن ميا لم تصرف وقتها فى ترجمة كتاب أفضل منه بل حرام على كاتبة من طبقة ميّ أن تتلهى بالترجمة ولها ، ومن عواطفها وأفكارها ما تقدر أن تنسج منهما قصائد وروايات ومقالات كثيرة » .

ولعل ميأً بعد أن قرأت هذا التهكم واللوم فى نقد الأديب نعيمة لترجمتها «الحب الألمانى» قد عدلت عن نقل ماراقها من روائع الأدباء الغربيين إلى اللغة العربية ، وحسنا صنعت فى التعبير عن أدبها لا التعريب لغيرها ، على أن الناقد نعيمة لم يقتصر على التهكم بترجمة ميّ وما جاء فى مقدمة الكتاب المترجم بقلمها، بل تناول بالتهكم محاضرة لها عنوانها « غاية الحياة » وقد ألقتها فى الجامعة المصرية عام ١٩٢١م.

كان نعيمة فى نقد هذه المحاضرة أشد عنفا وسخرية ، مما جاء فى المحاضرة ، فمن قوله « لا شك عندى أن السيدات اللواتى سمعن خطاب ميّ فى الجامعة المصرية صفقن لها تصفيقاً حاداً أكثر من مرة وفى أكثر من موقف واحد ، ومما لا شك فيه كذلك أنهن انطلقن إلى بيوتهن معجبات بحلاوة الخطاب وبراعة الخطيبة ، إنما غير عالمات عن « غاية الحياة » أكثر مما كن يعلمن حين دخلن قائمة الخطابة ، وذلك لأن الخطيبة انصرفت إلى نحت ألفاظها وصقل عباراتها أكثر مما انصرفت إلى ربط أفكارها وتسلسل براهينها، فكانت مقودة بقوالبها اللغوية أكثر منها بتحاليلها الفلسفية فجاء ما قالته طليا جميلاً ، منمقا كتمثال من رخام ، أما روح ذلك التمثال فظلت مدفونة فى قلبه الحجرى (❖) .

(❖) وداد سكاكينى: مرجع سابق ، ص ٢١٤، ٢١٥.

وبالطبع كان للنقد العنيف الجارح وقع مؤلم فى نفس ميّ ، لكنها كانت تسعى دائما إلى تجويد ما تكتبه .

ومن الذين سخروا منها الكاتب الصحفى محمد التابعى - كما قال بعد موتها - وعبر عن سخريته فى مجلة « روز اليوسف » واصفا كتاباتها بأنها سلسلة متصلة الحلقات من الاقتباسات بين نثر ونظم يربط بين حلقاتها عدد كاف من الأقواس والنقط وجمل اللحام مثل: «وأذكر أنى قرأت لفيلسوف ألمانى».. أو « يحضرنى فى هذا المقام ماقاله شاعر اللتين .. » .

يقول التابعى « هذا بعض ما كتبت .. وكانت سخرية قاسية عاتبنى عليها يوما أنطون الجميل - يرحمه الله - ولكنى كما قلت، كنت فى شبابى قاسيا طويل اللسان » (❖).

هذا جانب من النقد - أو ما ادعى أصحابه أنه نقد - الذى تعرضت له ميّ فى حياتها وهناك أضعاف هذا .. لكنا نشير مجرد إشارة إليه ، لأن مثل هذا النقد سيان إن ذكرناه أو لم نذكره ، لا يضيف جديدا إلى أدبها .

وإن كان أصحاب هذا الاتجاه النقدى تحاملوا على مؤلفات مى .. ففى الجبهة الأخرى نقيض هذا الاتجاه .. وهو اتجاه الثناء والإطراء .. وعلى سبيل المثال نلاحظ أن سلسلة المقالات التى كتبها الشاعر الكبير كامل الشناوي ونشرت فى جريدة " أخبار اليوم" القاهرية عام ١٩٥٥م عن ميّ زيادة لا تخلو من ثناء وإطراء وصل إلى حد المبالغة واصطنع الشناوي مختلف الأساليب للإثارة

(❖) السابق : ص ٢١٦.

والتشويق والتلفيق كذلك، كل هذا ليرضي نزوع القارئ الذى يهوى الإثارة والدعابة للتسلية الرخيصة .. وما كان هذا ينتظر من أديب كبير ككامل الشناوي، له مكانته الأدبية المرموقة ، كان ينتظر منه أن يدرس حياتها وأدبها من منطلق رصين جاد..

وقد صدر للناقد محمد عبد الغنى حسن فى عام ١٩٤٢ كتاب «حياة ميّ » والذى يضم مجموعة من الحوارات والمطارحات مع نخبة من الأدباء والمفكرين والشعراء الذين عرفوا ميّ وأعاد عبد الغنى حسن طبع كتابه عام ١٩٦٤ م وبدل عنوان كتابه إلى (ميأ زيادة .. أديبة الشرق والعروبة) وأضاف إلى الكتاب دراسة مختصرة عن حياة ميّ وأدبها ونماذج منه ..

إن المؤلف أدخل فى طبعته الجديدة لكتابه الكثير من الآراء المزعومة لغيره ، التى فيها تشهير وتجريح لميّ .. وتكرير لما قالته بعض الصحف والمجلات عن ميّ، فكانت تلك الإضافات حشوا زائدا .. ضارا للكتاب .. وأحسب أن الكتاب فى طبعته الأولى الصادرة عام ١٩٤٢ م كان أكثر دقة وصدقاً. . وإن قولى هذا لا يقلل من قيمة الكتاب ، فهو أهم الكتب التى من الممكن الرجوع إليها فى دراستنا لحياة ميّ وكتاب « أدباؤنا » للأديب اللبناني عبد اللطيف شرارة .. الذى تحدث فيه عن ميّ ولم يأت بجديد ، بل هو إعادة لكتاب « ميّ زيادة أديبة الشرق والعروبة » للأستاذ عبد الغنى حسن ، بالإضافة إلى أن فى الكتاب الكثير من المغالطات والمبالغات والتأويلات الخاطئة التى لا يجيزها عقل (❖) وهذه المبالغات تتعلق بطبيعة ميّ وأنوثتها ومحنتها وما كنت أظن - إطلاقا - أن كاتبا كالأستاذ شرارة يؤلف كتابا بهذه السطحية ..!.

(❖) انظر : أدباؤنا، منشورات صادر ، بيروت ، ص ٦ ،٧، ٦٨.

إن « ميّ » ليست فوق النقد .. هذا لا جدال فيه،. لكن النقد الجاد الواعى افتقرته حتى يومنا هذا مؤلفات ميّ زيادة .. إننا فى حاجة إلى النقاد الجادين الذين نأمل أن يتناولوا أدبها فى ضوء أدب عصرها .

« إن مذاهب النقد في كل أدب إقليمى أو عالمى متفقة على اصطلاح واحد فى أن لكل زمان ومكان مقاييس للنقد ومدلولات يختلف أكثرها من جيل إلى جيل ، فما كان النقاد يرويه فى نتاج الكتاب والشعراء أيام ميّ قد تتجافى عنه المقاييس التى يصطنعها النقاد فى أيامنا لتأثرهم بأشتات المذاهب الفكرية والاجتماعية ، فمن الحيف والتعسف أن نطبق المقاييس الحديثة المصطنعة على أدبها وأسلوبها ، فإذا شاء باحث أو ناقد أن يتناول آثار هذه الأديبة بالتمحيص والتحقيق ، فلا ينبغى أن يقارنه بأدب اليوم ولا بنتاج الأديبات الحديثات ، بل بأدب أمثالها وأترابها من أدباء الطليعة، لأن العصر قد تغير وتطورت الأذواق والموازين» (❖) .

إن الجيل الجديد لم يقف مع مؤلفاتها وقفة تأمل وهذا يرجع لأسباب كثيرة منها أن مؤلفاتها لم تعد تطبع طبعات جديدة .. وأن ذكرى وفاتها أصبحت تهمل من قبل الجهات الثقافية العربية ، فأضحى الكثير من القراء لا يعرفون ميأً وإذا عرفوها فهي معرفة أسوأ من النسيان .. كما أن العديد من مقالاتها وخواطرها لم تجمع حتي الآن، بل ما زالت متناثرة فى ثنايا الصحف والمجلات المصرية والعربية .

إن خير تقدير لميّ قراءة آثارها ودراستها ، فهى التى كتبت تقول: « النظر فى كتابات الأديب ، والتحدث عنها هو خير الوسائل للاحتفاء بذكراه ، بل هو أحسنها على الإطلاق » .

(❖) وداد سكاكينى : مرجع سابق ، ص ٢١٨.

الشعر فى موكب الرثاء

إذا ألقينا نظرة على الصحف والمجلات الأدبية الصادرة فى شهر أكتوبر ونوفمبر وديسمبر عام ١٩٤١.. وجدناها حافلة بالمقالات والخواطر النثرية والقصائد التى ترثى ميا ..

وأقيم فى دار الاتحاد النسائي الذى ترأسه « هدى شعراوى » حفل تأبين لرحيل ميّ .. والتقى فى ذلك الحفل الكثير من أدباء العرب من كل قطر . واستمع الحضور إلى قصائد الشعراء خليل مطران وأحمد محرم وعباس محمود العقاد وغيرهم .. ووقف الدكتور طه حسين تلك الليلة من مساء الرابع من ديسمبر ١٩٤١ قائلا :

خليلى عدا حاجتى من هواكما ومن ذا يواسى النفس إلا خليلها ؟
ألما بميّ قبل أن تطرح النوى بنا مطرحا أو قبل بين يزيلها
فإلا يكن إلا تعلل ساعة قليلاً فإني نافع لي قليلها

وظن الكثير من السامعين أن تلك الأبيات من نظم الدكتور طه حسين، لأنه ألقاها حزينا .. رصينا ، يخرج الحروف من مخارجها بحزن وأناة .. وكانت الأبيات التى ألقاها الدكتور من شعر ذي الرمة « الشاعر الأموي المعروف » .. وألقى الدكتور كلمته فى رثائها وختم حديثه بأن كرر البيت الأخير مرة ثانية :

فإلا يكن إلا تعلل ساعة قليلاً فإني نافع لى قليلها

وقد يكون من باب الاحتفاء بخلود الشعر ووفائه أن نسجل نص قصيدتى الأستاذ العقاد وخليل مطران .. تاركين التحليل والتأويل للقاريء ثقة منا بعقليته..

آه من التراب !

شعر: عباس محمود العقاد

أين فى المحفل « ميّ » يا صحاب ؟ عودتنا هاهنا فصل الخطاب
عرشها المنبر مرفوع الجناب مستجيب حين يدعى مستجاب
أين فى المحفل « ميّ » ياصحاب ؟
سائلوا النخبة من رهط الندى أين «ميّ» هل علمتم ؟ أين ميّ ..؟!
الحديث الحلو واللحن الشجى والجبين الحر والوجه السني ..
أين ولى كوكباه ؟ أين غاب ؟
أسف الفن على تلك الفنون حصدتها - وهى خضراء - السنون
كل ما ضمته منهن المنون غصص ما هان منها لا يهون
وجراحات ، ويأس ، وعذاب
شيم غر رضيات عذاب وحجى ينفذ بالرأى الصواب
وذكاء ألمعى كالشهاب وجمال قدسي لا يعاب
كل هذا فى التراب . آه من هذا التراب
كل هذا خالد فى صفحات عطرات فى رباها مثمرات
إن ذوت فى الروض أوراق النبات رفرفت أوراقها مزهرات
وقطفنا من جناها المستطاب
من جناها كل حسن تشتهيه متعة الألباب والأرواح فيه
سائغ ميز من كل شبيه لم يزل يحسبه من يجتنيه

مفرد المنبت معزول السحاب

الأقاليم التى تنميه شتى كل نبت يانع ينجب نبتا

من لغات طوقت فى الأرض حتى لم تدع في الشرق أو فى الغرب سمتا

وحواها كلها اللب العجاب

يالذات اللب من ثروة خصب نبر يقيس من حس وقلب

بين مرعى من ذوى الألباب رحب وغنى فيه وجود مستحب

كلما جاد ازدهى حسنا وطاب

طلعة الناضر من شعر ونثر كرحيق النحل فى مطلع فجر

قابل النور على شاطئ نهر فله فى العين سحر أي سحر

وصدى فى كل نفس وجواب

حي « ميا » إن من شيع ميا منصفاً ، حيا اللسان العربيا

وجزي حواء حقا سرمديا وجزي ميا جزاء أريحيا

للذى أسدت إلى أم الكتاب

للذى أسدت إلى الفصحى احتسابا والذى صاغته طبعا واكتسابا

والذى خالته فى الدنيا سرابا والذي لاقت مصابا فمصابا

من خطوب قاسيات وصعاب

أتراها بعد فقد الأبوين سلمت فى الدهر من شجو وبين

وأسى يظلمها ظلم الحسين ينطوى فى الصمت عن سمع وعين

ويذيب القلب كالشمع المذاب

أتـراهـا بـعـــــــد صـــــــمت وإبـاء　　　سلمت مـن جـــســـد أو من غـــبـــاء
ووداد كل مــــــــافــــــيـــــــه ريـاء　　　وعـداء كـل مــا فـــــيــه افـــــتـراء
وسكون كل ما فيه اضطراب

رحــمــة الله على « ميّ » خـصــالا　　　رحـــمـــة الله على « ميّ » فـــعــالا
رحــمــة الله على « ميّ » جـمــالا　　　رحـــمـــة الله على « ميّ » ســـجـــالا
كلما سجل فى الطرس كتاب

تكلمُ الطلعـــــة مــــازلت أراهـا　　　غــــضـــــة تنشـــــر ألوان حـــــلاهـا
بـين آراء أضـــــــاءت فـى سـنـاهـا　　　وفــــروع تتـــــهـــــادى فى دجـــاهـا
ثم شاب الفرع والأصل ، وغاب

غــــاب والـزهرة تؤتي الثـــمــــرات　　　ثمـــــرات من تجــــاريب الحــــيـــــاة
خـيــر مـا يؤتي حـصـاد السنوات　　　بعـــثـــرتهن الرياح العـــاصـــفـــات
ورمتهن ترابا في خراب

رد مـــــا عندها ياهذا التـــــراب　　　كـل لـب عـــبـــقـــرى أو شـــبـاب
فى طوياك اغـتـصـاب وانتـهـاب　　　خلقـــا للشـــمس أو شم القـــبـــاب
خلقا ، لا لانزواء واحتجاب

ويك ! مـــا أنت براد مــــا لديك　　　أضــــــيـــع الآمــال مـا ضــاع عليك
مـجـد « ميّ » غـيـر مـوكـول إليك　　　مـجـد « ميّ » خـالص من قـبـضـتـيك
ولها من فضلها ألف ثواب

فجيعة الشرق

شعر: خليل مطران

قد تولى رفاقنا وبقينا ... يعلم الله بعدهم ما لقينا
هل من الصاب فى كئوسك سؤر ... قد سقينا يادهر حتى روينا
أو داع يتلو وداعاً ، وتأبين على الإثر معقب تأبينا
أيها الشاعر الذى كان حينا ... يتغنى ، وكان ينحب حينا
حطم العود إن كر الليالى ... لم يغادر فى العود إلا الأنينا
أن يلم الردي بميّ غداة ... يا لقومى بأى خطب دهينا
طالع السعد هل تحول نوءاً ... يبعث الريح والسحاب الهتونا
فإذا ما أقر أمسى عيونا ... قرح اليوم بالدموع العيونا
نعمة ما سخا بها الدهر حتى ... آب كالعهد سالبا وضنينا
أيهذي الثرى ظفرت بحسن ... كان بالطهر والعفاف مصونا
لهف نفسى على حجى عبقرى ... كان ذخراً فصار كنزا دفينا

❖ ❖ ❖

إيه يامىّ أسرف اليتم تبر ... يحا بروح كان الوفى الحنونا
فقدك الوالدين حالاً فحالاً ... جعل البيض من لياليك جونا
ورمى أصغريك رامى الكبيرين فذاقا قبل المنون منونا
أقفر البيت ، أين ناديك يامىّ إليه الوفود يختلفونا؟
صفوة المشرقين نبلا وفضلا ... فى ذراك الرحيب يعتمرونا
فتساق البحوث فيه ضروبا ... ويدار الحديث فيه شجونا
وتصيب القلوب وهى غراس ... من ثمار العقول ما يشتهينا

فى مجال الأقلام آل اليك السبق فى المنشئات والمنشئينا
أين ذاك البيان يأخذ بالألباب فيما تجلين أو تصفينا

فى لغات شتى ، وفى لغة الضاد تجيدين صوغ ما تكتبينا
أدب قد جمعت فيه علوما يخطئ الظن عدها وفنونا
وتصرفت فيه نظما ونثرا باقتدار تصرف الملهمينا
تبتغين الصلاح من كل وجه وتعانين شقوة المصلحينا

وحتى قلب يفيض بالحب للخير ، ويهدى إليه من يهتدونا
ويود الحياة عزا وجهدا لا يود الحياة خسفا ولينا
فهو آنا يبث رفيقا يملأ النفس رحمة وحنينا
وهو آنا يثور ثورة حر عاصفا عصفة تدك الحصونا

يبصر العقل ، يكشف الجهل ، يوحى العدل ، يرعى الضعيف والمسكينا ،

❖ ❖ ❖

أين ذاك الصوت الذى يملك الأسماع فى كل موقف تقفينا
فجع الشرق فى خطيبته الفصحى ، وما كان خطبها ليهونا .

أبلغ الناطقات بالضاد عيت بعد أن أدت البلاغ المبينا
أطربته ، وهذبته ، وحثته على الصالحات دنيا و دينا
بكلام حوى الطريفين تتغيما كما يستحب ، أو تلوينا
قدرته لفظا ، ولحظا، وايماء بما ودت المنى أن يكونا
ذاك في العيش ما شغلت به والغيد تلهو ، وأنت لا تلعينا
لم ترومى إلا الجليل ، وجانبت الأباطيل وأتقيت الفتونا
وجعلت التحصيل دأبا ، وأتيت جناه ، فطاب للمجتنينا
فعليك السلام ذكراك تحيا وبرغم البعاد لاتبعدينا

مؤلفات ميّ زيادة

- أزاهير حلم Fleurs du Reve بالفرنسية ١٩١١م ، نقله إلى اللغة العربية الدكتور جميل جبرا، ١٩٥٢م .
- رجوع الموجة ، رواية مترجمة عن اللغة الفرنسية، ١٩١٢م.
- الحب في العذاب ، رواية مترجمة عن اللغة الفرنسية، ١٩١٢م.
- ابتسامات ودموع ، رواية مترجمة عن الألمانية ، ١٩١٣م. وأعيد إصدارها فى ترجمة منقحة ١٩٢٢ .
- باحثة البادية « ملك حفنى ناصف » ، دراسة أدبية نقدية ، ١٩٢٠م .
- غاية الحياة ، محاضرة ألقتها فى الجامعة المصرية ، ١٩٢١م.
- سوانح فتاة ، مجموعة خواطر وآراء فى الحياة ، ١٩٢٢م.
- كلمات وإشارات ، مجموعة خطب اجتماعية وأدبية وفلسفية، ١٩٢٢م.
- المساواة ، بحث فى المساواة بين الناس والعدالة الاجتماعية والديمقراطية، ١٩٢٣م.
- الصحائف ، مختارات من مقالات نشرتها فى الصحف والمجلات ، ١٩٢٤م .
- بين الجزر والمد ، خواطر ومقالات في الأدب والفلسفة والحضارة ، ١٩٢٤م .
- وردة اليازجي ، دراسة أدبية نقدية ، ١٩٢٦م .
- عائشة تيمور ، دراسة أدبية نقدية ، ١٩٢٦م.
- رسالة الأديب فى الحياة العربية ، محاضرة ألقتها فى الجامعة الأمريكية ببيروت، ١٩٣٨م .
- الرسائل ، نشرتها السيدة مادلي أرقش فى بيروت ، ١٩٤٨م.

وقيل إن لميّ عدة كتب لم تطبع أو طبعت لكن لم يعثر عليها أحد من الباحثين .. منها " ليالي العصفورية" ، "من الأدب العالمي " ، "الخيال على الصخرة " وتلك الكتب مفقودة . بالإضافة إلى أن لميّ مجموعة من القصص والخواطر متناثرة في الصحف والمجلات لم تجمع حتى الآن .

المراجع

أولاً : الكتب :

(أ) مؤلفات مي زيادة :

- جمع وتحقيق: سلمى الكزبري، المؤلفات الكاملة لميّ زيادة، ط مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٢ .
- مجـ ١ : باحثة البادية ، وردة اليازجي ، عائشة تيمور ، بين الجزر والمد ، المساواة ، غاية الحياة ، الحب فى العذاب .
- مجـ ٢ : كلمات وإشارات جـ ١ ، كلمات وإشارات جـ ٢ ، ظلمات وأشعة، الصحائف، سوانح فتاة ، ابتسامات ودموع ، رجوع الموجة .

(ب) مؤلفات عن مي زيادة :

- جبرا جميل جبرا : أزاهير حلم .. تأليف ميّ زيادة، ترجمة عن الفرنسية إلى اللغة العربية ، دار بيروت ، ١٩٥٢م .
- سلمى الحفار الكزبرى: بحث نشر فى مقدمة المؤلفات الكاملة لميّ زيادة ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، ١٩٨٣م .
- طاهر الطناحى : أطياف من حياة ميّ ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٤م .
- عباس محمود العقاد : سارة ، دار المعارف ، ١٩٨٥م .

- عامر العقاد : غراميات العقاد ، « بالكتاب فصل يتناول علاقة العقاد بميّ »، دار حراء ، القاهرة، ١٩٧١م.
- فاروق سعد: باقات من حدائق ميّ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٣م .
- محمد عبد الغني حسن : ميّ زيادة أديبة الشرق والعروبة ، عالم الكتب، القاهرة ، ١٩٦٤م.
- وداد سكاكيني : ميّ زيادة في حياتها وآثارها ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٩م .
- وديع فلسطين : ميّ ، حياتها وصالونها الأدبي ، مؤسسة المعارف والطباعة والنشر ، بيروت، ١٩٨٣م .

(جـــ) مؤلفات أخرى عن ميّ زيادة اطلعنا عليها ولم نستخدمها كمراجع :

- العوضى الوكيل : مطالعات وذكريات (بالكتاب فصل خاص بميّ وعشاقها) ، القاهرة، ١٩٧٢م .
- جبران خليل جبران : الأجنحة المتكسرة ، دمشق ، ١٩٤٣م.
- جميل جبرا : ميّ في حياتها المضطربة ، بيروت ، ١٩٥٣م .
- عبد السلام هاشم حافظ : الرافعي وميّ ، القاهرة ، ١٩٦٤م .
- عبد اللطيف شرارة : ميّ زيادة ، بيروت ، ١٩٦٥م .
- فاروق عبود: جدد وقدماء « فى الكتاب فصول تتناول علاقة الحب والمراسلات بين ميّ وجبران »، بيروت ، ١٩٥٤م .
- كامل الشناوي : الذين أحبوا ميّ ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

❖ منصور فهمي : مي زيادة ورائدات الأدب العربي الحديث ، القاهرة ، ١٩٥٤م .

❖ محاضرات عن مي زيادة ، القاهرة، ١٩٥٥ م .

❖ مي « سلسلة المناهل » ، بيروت ، ١٩٥٤ م .

❖ هدى شعراوي : ذكري فقيدة الأدب النابغة مي « مجموعة الخطب والقصائد التي ألقيت في حفل تأبين مي » ، القاهرة ، ١٩٤٢ م .

ثانيا : الدوريات :

❖ مجلة آفاق عربية ، بغداد، ع ٢ ، شباط ، ١٩٨٦ م .

❖ مجلة أدب ونقد ، القاهرة، ع ١١، مارس ، ١٩٨٥ م .

❖ مجلة الدوحة ، قطر ، ع١٠٣ – يوليو ، ١٩٨٤ م .

❖ مجلة صوت المرأة ، القاهرة، ع ١ ، ١٩٤٩ م .

❖ مجلة الهلال: القاهرة، ع ديسمبر ١٩٤٧ ، ع مايو ١٩٤٨ ، وأعداد يناير وفبراير وأبريل وديسمبر ١٩٦٢ ، وعددا أبريل ويوليو ١٩٦٤ ، وعدد فبراير ١٩٨٦ م .

رسائل مخطوطة

في ٢٨ نوفمبر ١٩٢٤

يا أبا العلاء،

مبروك، حقك يُرَدّ إليك كما يُرَدّ إلى
الشباب المصري حقه عندك!
أودُّ أن أذكرك أني تنبأتُ بهذا في إيوان أبي
الهول بتاريخ ١٤ يوليو، وكاهن أوزيريس يشهد.
قلتُ يومئذ أن الجامعة المصرية ستستدعيك إليها خلال
شهر نوفمبر، ولم يكن في ذلك الحين من حديث أو
شبه حديث عن الأزمة التي ظهرت في الشهرين الأخيرين
أتعد، يا أبا العلاء وقولتك معًا، أتعد بتصديق
المرأة بعد اليوم؟
لقد كنتَ طول هذه المدة رجلاً، وعرفتَ ا
تتألم كرجل حقاً
لديّ الآن كلمة واحدة أرجو أن تغتفر ما فيه
من أنانية: إني سعيدة

"مي"

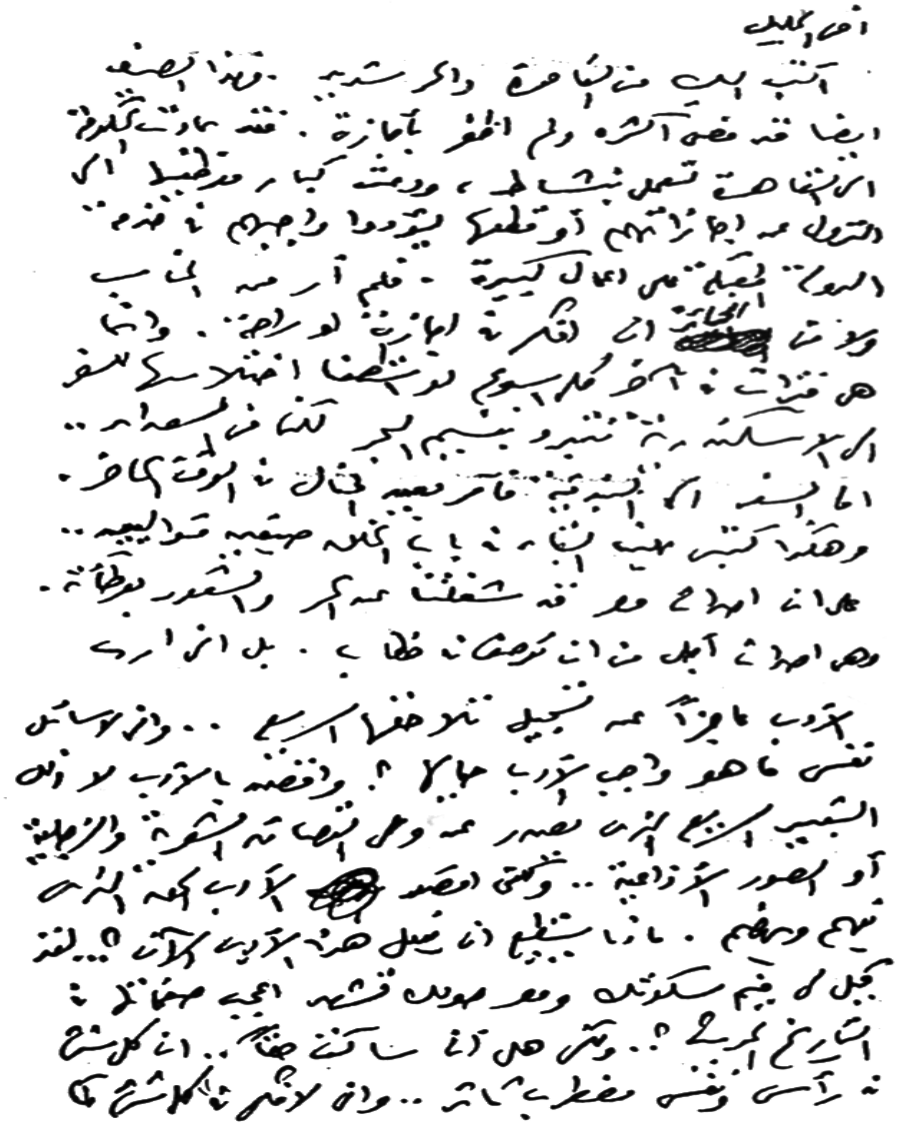

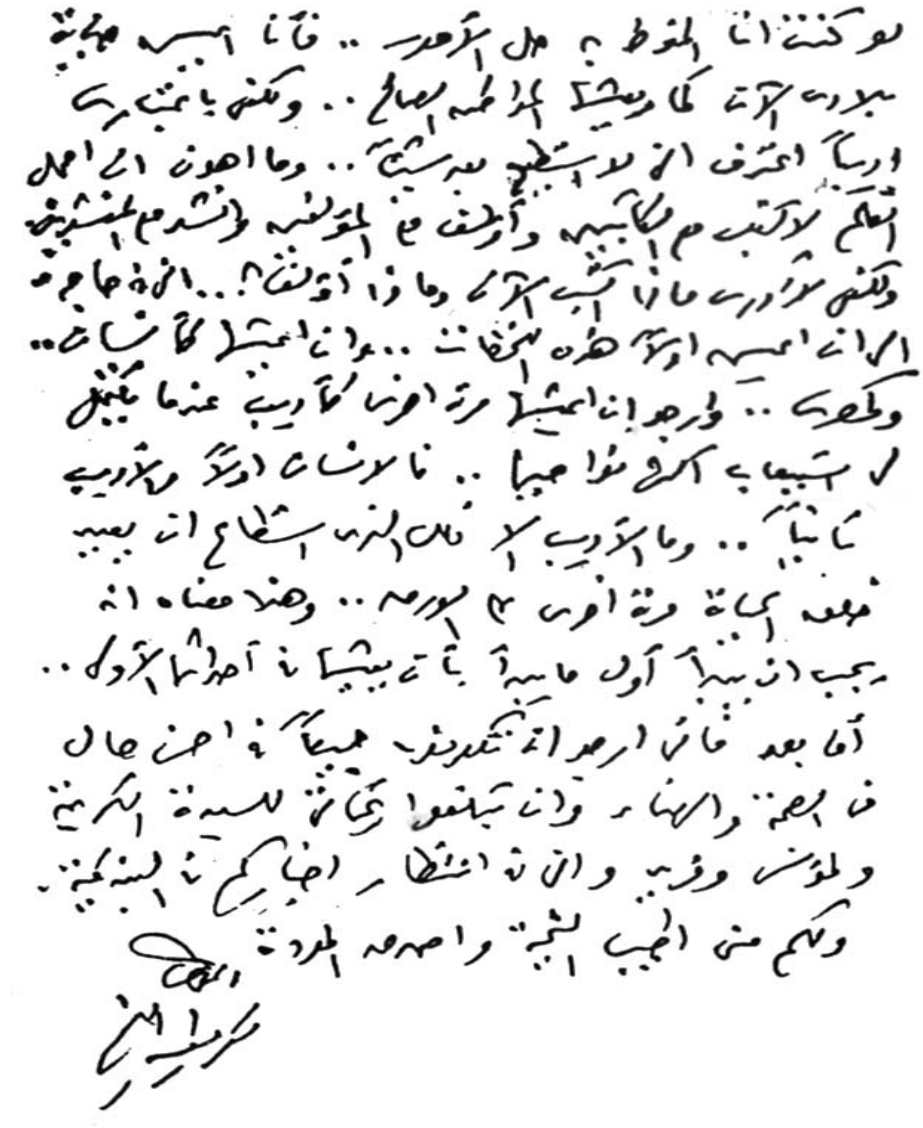

العنوان التلغرافي (فرقومية) — **الفرقة القومية المصرية** — تليفون رقم ٥٦٢٤٠

شارع عماد الدين رقم ١٤٠

القاهرة في ٢٧/٧/٢٨

حضرة صاحب العزة الاستاذ الجليل الدكتور طه حسين بك

عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية

اتشرف بابلاغ عزتكم شكر لجنة ترقية المسرح للعزة وشكري الخاص لما تفضلتم به على الفرقة القومية المصرية من التحفة النفيسة باهدائكم الى ترجمتكم لقصة انتيجون احتسابا لخدمة الفن ونشر الثقافة المسرحية

وقد عاق من وصول هذا الشكر الزكي اليكم في حينه انني لم اظفر بالعنوان الا اليوم على اثر زيارة زرتها لفضيلة مولانا الشيخ شقيقكم بوزارة الاوقاف

واملي ان تكونوا مع الاسرة الكريمة في اتم هناء

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام؟

مدير الفرقة القومية المصرية

خليل مطران

صح : عنواني من اول اغسطس الى اول اكتوبر ١٩٢٩ هو بيروت (لبنان) بشباك البريد

النقابة الزراعية المصرية العامة
شارع الشيخ ابو السباع رقم ٨

العنوان التلغرافي : سنديكول بمصر
تليفون رقم { ٥٤١٠٠ / ٥٤١٠٠٦

الموضوع

قلم .... مطلوب الرد ....

نمرة القيد	
نمرة الكوبيا	
عدد المرفقات	

القاهرة في ٢٧/٨/ سنة ١٩٣٦

حضرة الاخ الاستاذ الكبير

ورد الي عن كتابكم ورد الى شيئاً من العافية فانا استطيع الكتابة
اليك بعد الفتور وفي النفس من برح الشوق ما فيها.

اني لسعيد اولاً بانك تنعم بطيب الجو وسلامة الجسم وانك الى
ذلك تضيف لذة روحية قوية هي لذة في العزلة قليلة وستكون بها الشرف
بل للعالم الادبي مفخرة من تلك المفاخر التي تتحف بها الالباب آناً بعد آن.
واني لسعيد ثانياً بان حفلة السيدة المصونة الفاضلة قرينة استاذنا في
صحة وسرور وان نجليكما العزيزين على ما تحبان وتحب لهما . ادام الله
لكم هذه النعم بل زادها وبارك فيها ليزداد نموها .

الفرقة القومية اجهدتني فيما اجهدت من علل اخرى وقد بذرت منذ
اللجنة ما كانت مصرة على بتره وانقذ الامر وبذلت ما اوتيت من
قوة في جلسة اجماع لتخفيف ما استطيع تخفيفه وقد اطلعتكم شأنه
بعضهم ما استطعت اصلاحه وكان قد خرج سيما ارجو ان يوفق

اما سير الفرقة بعد هذا فمنتظم ومنهج الموسم من الروايات ما لدينا
بادئين بما يسمى بالتأليف او يشبهه وعند عودة استاذنا بالسلامة اصف
له كل ما يجدر بالعرض عليه ومدافعة الآن تجنباً لزيادة المجهود في الكتابة
واختم جوابي هذا على الرغم منه دون ان يكون بودي ان اقول الشيء الكثير ،
مهدياً اليكم والى الاسرة المحترمة العزيزة تحيات ود واجلال بها درة من
صميم الفؤاد .

المخلص
خليل مطران .

UNIVERSITY OF CALIFORNIA, LOS ANGELES

BERKELEY • DAVIS • IRVINE • LOS ANGELES • RIVERSIDE • SAN DIEGO • SAN FRANCISCO SANTA BARBARA • SANTA CRUZ

NEAR EASTERN CENTER
LOS ANGELES, CALIFORNIA 90024

١٢/٦/١٩٧٥

عزيزي غالي،

تحياتي. أكتب إليك لأبلغك أني سأترك لوس انجيليس
يوم ١٧/٦/١٩٧٥ في طريقي إلى القاهرة مرورا بنيويورك ولندن وباريس
والمنتظر أن أكون في القاهرة في أواخر يونيو أو أوائل يوليو. ولا تكتب إلي
حتى يصلك مني خطاب آخر من القاهرة.
للأسف حتى الآن وطباعة كتاب تاريخ الفكر المصري الحديث المجلد
الثالث من عصر اسماعيل إلى ثورة ١٩١٩ تتعثر أو تسير ببطء. وقد
وصلتني أمس صورة عقد غير مطلوب وبعد الاطلاع عليه وجدته
غير مرض. وقد علمت من ميشيل أن الأفضل للجميع أن أضع بنفسي
صيغة العقد، وقد فعلت هذا الصباح وأرسلت إليه الصيغة المقترحة.
فأرجو أن تتم الإجراءات بسرعة وفي العقد المقترح بند ينص
على أني وكلت ميشيل لترتيب العقد نيابة عني ولتمثيل مصالحي في
العقد فأرجو أن يقبلوا هذا التوكيل، وأن ينتهي كل شيء بسرعة
مولد
في الخلفية التاريخية لعصر اسماعيل - ١٩١٩. [illegible] ويتناول
بدأت في انجاز المجلد الثاني من نفس الفترة الخاص بالفكر
السياسي والاجتماعي [illegible] كبيرا عن الأفغاني
ويشمل نحو ١٥٠ أو ٢٠٠ صفحة بحسب النشاط. وعند عودتي
إلى مصر سأكتب عن يعقوب صنوع وعبد الله نديم ومحمد عبده
وقاسم أمين ولطفي السيد وربما بعض مفكري الدرجة الثانية مثل
ولي الدين يكن وعبد العزيز جاويش الخ...
وأرسل لك صورة من بحثي عن الأفغاني أرجو أن تقرأها
وأن تعطيها لميشيل لقراءتها وأحب أن أعرف رأيك فيها ورأي ميشيل

وارجو أن تحافظ على هذه الأوراق في مكتبتك رغم أن الأصل عندي ولكن أحدا لا يعرف الظروف فربما اضطررت لنشرها غيابيا. على كل حال فارجو أن تنفذ بدقة ما أقوله: هذا البحث ليس للنشر في مجلات أو جرائد وإنما في كتاب، وسأوافيك بالباقي عندما أكتبه ولا يجوز أن يصدر في كتاب إلا بعد صدور كافة أجزاء الكلمة التاريخية.

ولعل من المهم أن تعلم أن هذه المقالات (أو الفصول) عن الأفغاني كتبت أولا كمقالات للأهرام وقد أرسلت الثلاثة الأولى منها لأحمد بهاء الدين في نوفمبر الماضي عندما كان رئيسا لتحرير الأهرام وطلبت إليه إبلاغي إن كانت ستنشر أم لا حتى أوافيه بالباقي منها. وبالفعل أبرق إلي في أوائل نوفمبر ١٩٧٤ بأنها ستنشر، وبالتالي أرسلت إليه باقي الفصول، ولكنها مع الأسف لم تنشر حتى الآن. ولست أعرف السبب. ترى هل أصبح شخص الأفغاني أيضا "مقدسا" بحيث لا يجوز لمثلي تناوله بالبحث؟ على كل حال كل شيء بحيثيات وكل شيء بأوانه. وبالطبع سأحاول عند عودتي إقناع الأهرام بنشر مجموعة الأفغاني لأنها جزء هام من التفتيش في أعماق النفس المصرية وما داخلها من مؤثرات خارجية.

أرجوك الإشارة إلى هذه الأشياء كتابة فيما تكتب أو تنشر. عسى أن تنكشف هذه الأزمة الثقافية التي تعانيها مصر بصفة خاصة والعالم العربي بصفة عامة.

ولو وجدت عندي بعض المال مررت ببيروت في طريقي إلى القاهرة ولو ليومين أو ثلاثة، ولكني أرجح أني لن أمر هذه المرة. ومن خلال إصدار تاريخ الفكر المصري الحديث عن دار الفارابي أو غيرها، لا تنس أن تحاول مع [illegible] التفاوض مع دار نشر لإعادة نشر جميع أعمالي، في بيروت في طبعة تشمل كل العالم العربي ولا تشمل مصر مع رجائي ألا تراسلني بالبريد وأنا في مصر في أمثال هذه الأمور إلا في حدود العموميات فاتفاقي مع الناشر يجب أن يكون سريا وعقد الناشر يصلني [illegible] في [illegible] مستقبل سلامي. وكونوا جميعا حذرين [illegible] أكثر [illegible] كما تقول، وقد عادت لبنان إلى سكة السماء. ربنا يستر.

لويس عوض

الفهرس

- مقـدمة 9

الفصل الأول: روافد التكوين الأولى.. نفسية الأنثى وعقلية الأديبة 11

- الطفولة والصـبا... 13
- بين الـعلم والأنـوثة 25
- الدراسة والصـحافة 41
- اللغـة العربيـة والأديان 53

الفصل الثانى: مى وأقطاب عصرها.. من الربيع إلى الخريف 71

- الصـالون 73
- عاشـقة ومعشـوقة 93
- المحنـة 143

الفصل الثالث: مى فى ذاكرة الزمن.. القيـمة الأدبية والفكرية 183

- الانتباه الـثقافي 185
- من أجـل المرأة 195
- أزاهير المبـدعة 203
- النقد بين تيارين 237
- الشعر في موكب الرثاء 243
- مؤلفات ميّ زيادة 249
- المراجع 251
- رسائل مخطوطة 255

تم إعداد الرفع بواسطة

مكتبة عسكر

ask2pdf.blogspot.com